

حسن الأمين

# قيمة خالدة

في التاريخ والأدب



داراثراث الإسلام

الطباعة والنشر والتوزيع

# قيمة خالدة

في التاريخ والأدب

الجزء الأول

بقلم

حسن الأحسين





دار التراث الإسلامي  
لطبعه ونشره وتوزيعه  
بيروت - لبنان  
١٩٨٤ م.ب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه بحوث نشرت في الصحف العربية في اوقات متباينة وظروف متباعدة ، جمع ما بينها انها من تاريخ هذه الامة في الصهيون سواء كانت بحوثا في التاريخ او بحوثا في الادب . ولم اشا ان افصل فيها بين ما هو تاريخي بحث او ادبى بحث ليقيني بارتباط الاثنين وتمازج التوقيعين .

وبعد ان نشرتها فصولا متفرقة ، رأيت ان اولف بينها في اضمامه واحدة ، اذا تنوّعت اغصانها وتلوّنت افنانها ، فستظل من روض متكامل وحفل مقامسك ، لا يعود تاريخ العرب وادب العرب . وحسبى بالعرب محتدا يمد بكل كريم ويرفد بكل طيب .

وليس من شأن الكاتب ان يرضي كل الميل ، ويوافق كل المناخي . وليس من أمره ان يمازج بين تضارب الاهواء وتشاكس الاراء . ولكن من شأنه ان يكون مخلصا فيما يقول . وهذا ما احسبني كنته ، وما اعلمني عشته .

فالى المخلصين وحدهم اهدي هذه الصفحات وكل ما كتبت وما سوف اكتب .

حسن الامين

بيروت

## هذه اللغة العربية « ١ »

هذه اللغة العربية المظلومة التي تهاجم بلا هوادة وتهجا بلا رفق ... هذه اللغة التي ينسى المهاجمون كل جمالاتها ، ولا يذكرون الا ان فيها قواعد صعبة تدق على افهمهم وتعيسى بها انكارهم ، والا ان فيها عامية وفصحي وهم يريدونها عامية بلا فصحي !

هذه اللغة التي حملت لنا احدى الصحف تحقيقا عنها من احد « الدكاثرة » ، تحقيقا لا شك ابدا بان الدكتور كان مخلسا فيه ، وان لم يكن مصريا ... وادا كانت اللغة قد منيت بالقادحين ، فهى قد اصييت ببعض المادحين ، فكل من فكر في امر من امورها كان عندهم مأجورا هداما ... اما ان فيمن هاجموها مأجورين هدامين فهذا حق كل الحق ، واما ان فيمن نقدوها مخلصين بنائين فهذا ايضا حق كل الحق ، ونحن لن نأخذ انفسنا الا بالدفع ا الذي نؤمن به ونعتنده .

اول ما يطالعك من هذه الاراء هو القول بازدواجية اللغة العربية وان فيها فصحي وعامية ، بل يكاد يقال ان فيها لغتين ... وهذا المأخذ الذي يقول به المهاجمون تهويلا عجيا ، ويصخبون به صخبا شديدا ، هو اهون من ذلك

١ كانت هذه المقالة ردًا على بعض من هاجم اللغة العربية .

واقل خطراً ... فليس العجيب ان يكون في اللغة العربية  
عامية وفصحي ، وان يكون بينهما هذا الفارق ، بل العجيب  
هو صمود هذه اللغة امام الاستعمار والفتح ، وبقاها حية  
الى يوم الناس هذا ... العجيب هو ان اللغة العربية  
ام يكن شأنها شأن اللغات البائدة ، ممن لم يبق منها الا  
آثار ، كالسريانية وغير السريانية ، بل ظلت لغة الملايين تتدفق  
بالادب العربي والشعر الرقيق !

ان اللغة التي فقدت سلطانها ، وعنت للمفاتيح  
ستة قرون او تزيد ، لا يرتفع لها فيها علم ، ولا يهدر فيها لها  
صوت ، ولا يرف لها فيها نفم ... ان اللغة التي حكمها  
المتغلبون الفاتحون حكم المحتاج الفاصلب ، الذي يرى  
فيها شبع المقاومة وخيال الانتفاض ، حكموها قرون حكما لا  
رحمة فيه ولا لين ، حتى اذا خيل للناس انه لن  
يقوى فيها نفس يتrepid ولا حركة تتجدد ، خرجت من الظلام  
القائم كأتم ما تكون بريقا واسعاما !

اعجبون ان يكون في اللغة العربية فصحي وعافية ،  
وند مزق الفتح اقطارها ، وحجز بين ديارها ، فاصبح  
العربي المحكوم من الانكليز يسمى مثلا المنضدة « ميز »  
والشامي المحكوم من الفرنسيين يسمىها « طاولة » !  
ان النتيجة الحتمية لما نال العرب من اضطهاد ، وما  
صارت اليه اقطارهم من تشتت ، هو ان تتشما فيهما  
« العamiات » المحلية التي تبتعد تباعد قويا ، كما ان  
النتيجة الحتمية لما صارت اليه حال العرب اليوم  
من استقلال وتحرر ، ولما ستصرير اليه في الغد من تجمع

وتوحد ، ان تصييق الشقة بين العامية والفصحي ، وان تظل تصييق وتضييق حتى تغدو خيطا دقيقا لا تخلو من مثله لفة ولا يشد لسان !

ان النتيجة الحتمية لانتشار الصحافة والمذيع ، ولتقدير الثقافة والتعليم ، هي ان يأتي يوم يصبح فيه التفاوت بين اللهجات العربية تفاوتا جزئيا يقوم على نوع من اللفظ وطريقة في اخراج الحروف ... خذ عاميين جاهلين من قطرين عربين مختلفين ، عاميين من بقایا الاستبعاد وفلول الاستعمار ، خذ هذين العاميين واجعلهما يتقاهمان ، فاما معك بانهما يكادان لا يبينان في بعض ما يؤديان من قول ، وما يريدان من كلام ... ولكن خذ شابين مثقفين من قطرين عربين مختلفين ، تر ان ليس في لهجة كل منهما ما يباعد بينها وبين ان يفهمها الاخر ، ذلك انهما قد دنوا من الفصحي ونأت بهما الثقافة عن العامية .

لم تعد الالفاظ الجديدة تؤخذ عن طريق الحكمين الغربياء ، فيقول العراقي لسائق السيارة « دريفر » ويقولها الشامي « شوفير » ، بل انها تؤخذ من الصحافة ومن المذيع ، فكل البلاد العربية من طنجة الى مسقط تقول اليوم بعامياتها وفصاحتها : القنبلة الذرية ، وقاذفات القنابل ، والقناثات ، والتأمين ، والتصف الجوي ، وغيرها من الكلمات المستحدثة الجديدة ، ولم يعد في البلاد العربية من لا يقول : سيارة ، وطيارة ، وقطار .

ان الصحافة والثقافة والمذيع ، وان التقارب والتعارف والاجتماع ، هي التي ستمحو ازدواجية اللغة العربية

المزعومة ، وهي التي لن تبقى من كل هذا الازدواج الا بقایا نجد امثالها في كل لغة .

وبعد ازدواجية اللغة يطالعونك بأمر قواعد اللغة ويستشهد بعضهم على ذلك بجملة « ان الطقس جميل » ويرى ان كلمة الطقس هي مبتدأ منصوب ، لأن الطقس هو موضوع الكلام ، فهو الاساس اذن ... هو مبتدأ ، ولكنه مبتدأ منصوب ، ووجه نصبه هو دخول هذه الاداة للتوكيد ... يقول هذا القول ، ويعدها من مشاكل اللغة ، ويتخذها دليلاً لدعم رأيه في الهجوم على القواعد العربية !

وكنتم اود لو انه استشهد بغير هذا الكلام ، فكيف فاته ان هذا الذي يقوله هو عين ما تقوله كتب النحو ، من كتاب سيبويه الى احدث كتاب صدر في هذه السنة .

ماذا قال النحاة عن « ان » ، نحاة عصر سيبويه ، ونحاة عصر القائل ... انهم يقولون عنها وعن اخواتها انها تنصب المبتدأ وتترفع الخبر وهذا كل عملها ... وماذا من جديد في قول المعارض ؟ انهم يقول صراحة كما قال : ان الطقس مبتدأ ولكنه منصوب ، ووجه نصبه دخول هذه الاداة عليه للتوكيد ... وكل جريرتهم انهم سموا هذا المبتدأ المنصوب « اسم ان » تمييزاً له عن المبتدأ المرفوع ، انهم لم ينكروا انه مبتدأ بدليل انهم قالوا : « ان تنصب المبتدأ » اذن لهم عندهم مبتدأ ولكنه مبتدأ منصوب !

ويقول ، او بالاحرى يقال عن لسانه : « ترى الا نستطيع ان نعلم العربية بطريقة ترسخ في عقول الولاد ويميلون اليها ، عوضاً عن ان ينفروا ويبكونوا ويلعنوا

سيبوبيه ، بدلاً من ان يترحموا عليه ويرحموه ؟ » ونقول لقد كنا اولادا ، وكان الملايين غيرنا اولادا ، وتعلمنا اللغة العربية ، ورسخت في عقولنا ، وملنا اليها ، وترحمنا على سيبوبيه ورحمناه . اتنا لم ننفر منها ولم نبك ابدا ... وما ذنب اللغة اذا اساء تعليمها بعض المعلمين ، او ضاق عن فهمها بعض المتعلمين ؟

واما كانت — كما يقول الناقل لكلام المعرض — اذا كانت هدى « ابنة الدكتور الحلوة المهمومة تدمع عيناهما الحلوتان ، كلما اخذت فرضاً في الاعراب ، فتأتي الى ابها مولولة : بابا دخلك ساعدني عندنا « كواعد » ومش فاهمي شي ... اذا كانت هدى « لا تستطيع مجاراة الكسائي والفراء والاخفش » — كما يقول الكاتب — اذا كانت هدى كذلك ، فهل يجوز ان نحكم على النحو بالموت ، اكرااما لعينيها الحلوتين ، لثلا تدمعا فرقاً من القواعد ... وما دامت هدى لا تستطيع ان تلفظ القاف من كلمة « قواعد » فما علينا اذن ، الا ان نلغي القاف من اللغة ونحل محلها الكاف !

لقد كنت احب للكاتب ان يعالج الموضوع معالجة جدية صارمة ، ولم اكن احب له ان يقحم ، في موضوع خطير بهذا الموضوع ، مثل هذا الم Hazel المزير !

واما الثالثة التي لا ينون بشرؤنها فهي مسألة الخط العربي الجميل ... انهم ينسون كل مزايا هذا الخط ولا يخطر لهم الا الحرف اللاتيني ... ينسون ان الحرف اللاتيني ليس هو كل شيء في هذه الدنيا العريضة، وان الامر

التي لا تأخذ به هي أكثر عدداً واسع حدوداً من الام التي تأخذ به .

وما أوهى الحجة التي ينادون بها للحرف اللاتيني من ان علينا ان نفهم اولاً لنستطيع القراءة ... وانني اسأل الكاتب : ا هو جاد في هذا القول ؟ .. احثا يضيق فمه وهو يقرأ ثم يتوقف حتى يفهم فيعاود القراءة ! .. اني اسأله كم مرة يحدث له ذلك وهو يقرأ كتاباً من الدفة الى الدفة ؟ .. ا هو متوقف عند كل كلمة متعدد في كل عبارة ؟ .. احثا يجد في ذلك مشكلة ؟

اما الامر الذي نقر الكاتب عليه - وان اخذناه على غير ما يأخذ - فهو قوله : ملقتنا لصيقة بالعاطفة والدين والتاريخ والقومية .

اجل والله ، اجل وذمة العرب ... ان لفتنا لصيقة بكل ذلك ، وستظل لصيقة بكل ذلك ابداً . على عكس ما يتبناها الكاتب ! ..

واما ان هذه النواحي الفكرية ترى بعين القلب لا بعيين العقل ، فاننا نخالفه فيه ونقول له : انها ترى بكل العينين ... ان لها عيناً تشع من القلب ، وعيناً تشع من العقل ، وحسبها عيناهما المشعتان مصباحاً في هذا الديجور !

## معركة عين جالوت ( ١ )

لا احسب ان امة نكبت بمثل ما نكبت به هذه الامة في الغزو المغولي الذي بدأه جنكيز خان وامضى هولاكو . ولا احسب ان شعراً استهدف لمثل ما استهدفت له الشعوب التي جاءت على طريق هؤلاء الفزاعة الراعبين ، الذين تجاوزوا كل حد في القتل والتدمر والغدر والاباحة ، والذين انسوا كل ما سطره التاريخ من احوال .

فلم تكن غايتهم توسيع ملك وحكم شعوب وامتلاك بلاد ، مما يمكن ان يكون غاية كل فاتح مجتاح ، ولا كان الدافع حب السيطرة والتحكم والاغتناء . بل كان الدافع حقد الوثنية على التوحيد ، وكراه الجهل والعمى للعلم والهدى .

ومن هنا لم ينفع الناس مقاومة ولا تسليم ، ولم يجدهم امان ولا ايمان ، فالمدافعون المهزومون يبادون والمصالحون المستأمنون يقتلون ، ثم بعد كل ذلك احراق للكتب واستئصال للعلماء .

ومضى هولاكو على هذا السبيل ، ودمر ايران وقوض العراق ، ثم نفذ الى الشام مستهدفاً مصر لقمع

١ - لق عين جالوت في فلسطين بين بيisan ونابلس وهدمت المعركة في رمضان السنة ٦٥٦ هـ - ١٢٦٠ م .

کارثه و تطفی مصیبته .

وبينما هو يهم بالخطوة الجديدة اذ بلغه نصي اخيه ومليكه ( منكوقاآن ) وترامى اليه ان تزاعا بين اهله يوشك ان يحل ، فلم يشأ ان يستثير غيره بسيادة الموقف الجديد ، فآب الى بلاده مخلفا جيوشه الكثيفة على اهيتها لغزو مصر بقيادة قائد من اشرس قواده اسمه ( كيتويوكا ) .

القہد

وكان هولاكو قد انفذ قبل رحيله نذيرا الى حاكم مصر، الملك المظفر سيف الدين قطز<sup>(٢)</sup> ، مع واحد واربعين رجلا من رجاله الفلاط الشداد .

وكان انباء انتصاراته قد عمت الدنيا كلها ، وكانت جبوشه ثلة ببابها ، وكان الناس في كل مكان يوقتون بالفشل ان قاوموه ، بعد ان كسر في زحفة مالم يكسر ، ولمتع ما لم يفت .

في هذا الجو المشحون بمعنى الانهزام الملوء بالرعب ،  
المفعم بالانخذال ، مضى وفده يحمل الى حاكم مصر هذا  
الكتاب :

« ان الله تعالى قد رفع شأن جنكیز خان واسرتة ،  
ومنحنا ممالك الارض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصي  
امتنا يتضى عليه ، مع نسائه ، وأبنائه ، وأقاربه ،

٢ - الملك المنظر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي تسلطن بعد خلع استاذه الملك التصور على بن الملك المعز ابيك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٧.

والمتصلين به ، وبلاه ورعاياه . كما بلغ ذلك اسماع الجمیع . اما صیت جیشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة کقصة رستم واسفندیار . فاذا كنت مطیعا کخدم حضرتنا ، فارسل الینا الجزیة ، واقدم بنفسک واطلب الشحنة ، والانکن مستعدا للقتال » .

هذا هو الانذار المخیف الذي حمله الواحد والاربعون مغولیا الى السلطات المصریة وهذا هو التهدید المروع الذي وصل الى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة فقد دانت لهم ممالك الارض ، وكل من تمرد عليهم قضى عليه وخربت بلاده . وشهرة جیشهم المنتصر كانت اعرف من ان ينوه بها . وكمبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولیة .

وھبط الوفد مصر جبارا متکبرا ، يزلزل بروعته العزائم ويوجهی الھم . هبط مصر وهبط معه تاريخ اسود من الانتصارات الكاریحة ، وماضی بشع من التسلط المھول ، كانوا کافیین للتسليم والخذلان ، لولا ان جابھتهما حمیة شماء ورجلة انونفة وبطولة ونداء .

وکلن قد سبق الوفد المغولی الى مصر وفود المهزومین في البلاد الایخرى من الذين اطاحت بهم الضربات المغولیة فتساقطت بلادهم ، البلد بعد البلد ، فتجمعوا كلھم في مصر لاجتیئن الیها .

وھا هم المغول يلاحقونھم الى القاهرة وينازلونھم على النیل .

## مؤتمر عسكري

كان الامر اخطر من ان يقطع فيه انسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فاذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما اوتسي من سداد الرأي وقوه العزم ، ان يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري ، الملك المظفر قطز ، مؤتمرا عسكريا ، كان في محاوراته ونقاشه في ارفع مستوى عرفه التاريخ من الاجتماعات العسكرية والمؤتمرات الحربية . وجرت المداوله فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قال الحاكم المصري للمؤتمرين ، وكانوا في اكثريتهم من القواد اللاجئين :

« لقد توجه هولاكو من توران الى ايران بجيشه جرار ، ولم يكن لا ي مخلوق من الخلفاء والسلطانين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء الى دمشق ولو لم يبلغه نصي اخيه للحق مصر بالبلاد الاخرى ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا ، وهو كالاسد المهزوز والتبين القوي في الكمين ، واذا قصد مصر فلن يكون لاحد قدرة على مقاومته . فيجب ان تتدبروا الامر قبل فوات الفرصة » .

## مناقشة الموقف

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصري الملك المظفر مؤتمره العسكري .

انه يبسط الامر على حقيقته لا يحاول ان يهول ولا ان يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، او اذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمة .

فبالرغم من ان المتكلم هو صاحب مصر ، والجيوش ج gioشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليه وعلى بلاده وبالرغم من انه مستطيع ان يفرض الرأي الذي يريد ، فاما تسليم او قتال ، فانه لم يشا الا ان يشرك حتى ممثلى البلاد الاخرى في الرأى وان يستمع اليهم . اسفى المؤتمرون الى بيان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان اول المحبين ناصر الدين قيمري ، فقال من جملة كلام له :

« ان البلاد المتدة من تخوم الصين الى باب مصر هي الان كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا اليه لطلب الامان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت امران بعيدان عن حكم العقل ، انه ليس بالانسان الذي يطمأن اليه ، وهو لا يفسي بعهده وميثاقه ، فانه قتل مجاهة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربيل بعد ان اعطاهم العهد والميثاق ، فاذا سرنا اليه فسيكون مصيرنا مصيرهم » .

فرد الحاكم المصري :

« ان كافية بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفحائن ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقد تضي على جميع من فيها من حرث ونسيل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرق مصر خرابا تاما

كغيرها . وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا ، واحدا من ثلاثة . الصلح او القتال او الجلاء عن الوطن . اما الجلاء عن الوطن فامر متذر ، وذلك لانه لا يمكن ان نجد مقرأ لنا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

### القرار الاخير

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري انه ميال الى المسالمة ، ولكن الحقيقة ان المسالمة لم تكن من رأيه – كما تبين فيما بعد – ولكنه لم يشاً ان يفرض الحرب ، بل فضل ان تكون بقرار جماعي او ان يفوض الامر اليه . وعندئذ يقررها اعتنادا على التقويض ، وهكذا كان .

فقد رد ناصر الدين القميри قائلا :

« وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انه لا يوثق بهمودهم » .

واذن فقد اصبح الطريق ممهدا لاتخاذ قرار مشرف . ان المسؤول عن مصر يبرهن على استحالة الجلاء . والقطيري يبرهن على استحالة المصالحة . ولكن بقى راي اخر باستطاعته ان يبرهن على عقم المقاومة ، على انه بعد الرايين السابقين ، وما فيهما من وضوح ، لم يعد باستطاعة هذا الرأي الاخير الا ان يلجلج دون ان ينفع . لذلك رأينا بقية الحاضرين – وكان معظمهم قد ذاقوا ، الهزيمة امام هولاكو فخدمت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا الى التسلیم – يقولون لصاحب مصر قطر : «

« — ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بما يتناسبه رأيك »  
فقال الملك المظفر :

— ان الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا الى القتال . فاذ اذن لنا فهو المراد والا فلن تكون ملومين امام الخلق .  
وكانت كلمته حاسمة ، فقر الرأي على وجوب المقاومة .  
ورأى بعضهم ان يفاجئوا المغول بأمر يدل على الحزم والمضي  
في القتال دون هوادة ريقطع الطريق على اية دعوة انهزامية  
ما شاروا بقتل رسول المغول . فاستصو布 الملك هذا الرأي  
وامر بصلب الرسول في الليل .  
ولقائل ان يقول :

وما ذنب الرسل ، والرسل في كل الشرائع لا تقتل ..  
ولكن الذي يطالب بمثل هذا ينسى ان المغول لمتهنو  
الشائع ، وغدوا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا  
المهود ، وان كل ما يمكن ان يرعب هؤلاء القوم هو حلال في  
كل شريعة صحيحة ، وان الامر كما قال علي بن ابي طالب  
عليه السلام : الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله ، والغدر بأهل  
الغدر وفاء عند الله .

### المغول على ابواب مصر

كانت طلائع المغول قد وصلت الى غزة ، وكان قد  
عسكر فيها جيش متواضع بقيادة القائد المغولي ( بايدر ) ، وكلن  
هذا القائد يتهدى للهجوم على مصر ، فلما اتاه خبر صلب  
الرسول ارتاع لذلك وتردد في التقدم ، ورأى ان يراجع

قائد الاعلى ( كيتوبوقا ) الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة سلوك ، فاستشاط هذا غيظا وامر ( بайдر ) بان لا يتقى قبل وصوله .

ولكن المصريين كانوا قد تخلوا عن الدفاع وعزموا على ان يبدأوا بالهجوم ، فاقتحم جيشهم غزة وطاردوا ( بайдر ) حتى نهر العاصي . فزاد هذا التحدي من غضب كيتوبوقا واسرع بجيشه لتأديب المصريين واثقا من نفسه مطمئنا الى جبروت قواه .

### المعركة الفاصلة

وكان المصريون موقنين ان الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف ، وان الاستنابة لا تكفي لرد الاعداء ، فلا بد من اعمال الرأي لأن الجيش القادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مرهوب الجانب . لهذا تعمد الملك المظفر اعمال الحيلة فعبأ جيشه في كمين تعبئة محكمة ، وخرج هو ببضعة آلاف يقابل المغول وجها لوجه في ( عين جالوت ) فرشقته سهام المغول رشقا عنينا ، وکروا عليه كرة زلزلته عن مواجهة فانهزمت جيشه وتراجع ، فتعقبه المغول واعملوا السيف في المصريين المنهزمين فقتلوا منهم كثيرا ، ولكن لم تلبث ان طلعت عليهم الكمائين المصرية من ثلاثة جهات فصدمتهم صدمة عنيفة صمدوا لها من الفجر الى منتصف النهار واستقتل الفريقيان ، ولكن المفاجأة المصرية اثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول ، فلم تلبث بشائر النصر ان لاحت لل(nr) المصريين ، ولم تلبث الجموع المغولية ان اخذت بالتصدع ،

ولم تلبث الهزيمة ان حاقت بها .

وابسى (كيتوبقا) ان ينهزم ، وآثار الموت على الفرار، وصمد يجالد بسيفه جلادا عنيفا ، ولكنه في النهاية سقط اسيرا وسيق مكلا الى الملك المظفر ، فعنقه مذكرا اياه بالدماء التي سفكها والعمود التي نكلها . فعاد المغولي يهدد ويتوعد قائلا من جملة كلامه : « ستطأ سنابك خيل المغول من اذربیجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالبي خيولهم الى هناك ، ان لهولاكو ثلاثة الف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض انه نقص واحد منهم » .

ولكن رأس كيتوبوقا طاح عن جسده ومضى المصريون يطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونها منهم حتى بلغوا شاطئ الفرات .  
ومضى تهديد كيتوبوقا في الهواء . ولم يكتب لسنابك خيل هولاكو ان تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية .

## بطلان

تتعرض الامم احيانا الى مواقف يتزلزل فيها كيانها ويتهم وجودها ، فتفدو وkanha شلو ممزق ، فقد الرأس والاطراف .

هنا تتجلى كوامن العزائم وتبرز مخبأ العبريات ، فيقيض الله للامة من لم تكن تحسبهم شيئا فاذا هم كل شيء . هذا ما صار اليه امر العرب والمسلمين بسبب الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو ، حين استطاع تدمير البلاد والعباد ، وقضى على آخر رمز اسلامي قضاة المبرم وحل ما كان قد بقي من روابط يمكن ان تشد البلاد بعضها الى بعض ، واخمد كل صوت يمكن ان يستصرخ مستجدا ويستثير محاسا . فعادت الامة قطيعا سائبا تتعاوله الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعي الاسلام نعاته ، ورثاه رثاته ، وخيل للناس ان الوثنية سادت وان لا قائمة تقوم بعد لكلمة التوحيد .

ولكن الاسلام ، وقد كان احيا بعقريته الشعوب وخلق النور الساطع من الظلام الدامس ، لم يكن ليستسلم بمثل تلك السهولة التي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون قبل اليوم ، كان لا يزال منها قيبسات في نفوس بنيه ، فمن قلب اليأس برز الامل في عزم رجلين اثنين قيض لهما ان ينقذوا الاسلام من اخطر بلاء اصابه . ومن المؤسف ان الجمhour الاسلامي يجهل كل شيء عنهم ، بل ان الخاصة الاسلامية نفسها لا تكاد تعرف الا لمحات خاطفة عنهم ،

في حين أن بعض من احيطت اسماؤهم بالتهويل والتطبيل في بعض الاحداث الاسلامية ليسوا باهل لشيء من هذا . وكان نصيبيهم من العمل نصيبا لا يستحقون عليه ذرة من هذا الاجر الضخم .

هذا الرجلان متناقضان في كل شيء ، فلقد جرى كل منهما في طريق لا صلة لها بطريق الآخر ، وكانت وسيلة كل واحد منهما مختلفة عن وسيلة الثاني ، بل ان واحداً منهم لم يتصل بزميله ولم يتعرف اليه ولم يدر عن خططه شيئاً ، بل عمل كل فيما هيء له وسار في الطريق التي لا يحسن السير في غيرها . ولو انه انحرف عنها قيد شعرة لتعسف السبيل وضل الدرب واتاه معه العروبة والاسلام .

### الملك المظفر

هذا الرجلان البطلان هما الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر ( ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م ) والعالم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ( ١٢٠١ - ١٢٧٤ م ) .

وقصة الاول منهما ذكرت في مقال آخر ، فلا اعيد منها هنا شيئاً سوى القول بأن هذا الرجل العظيم استطاع ان يبطل اسطورة الجيش الذي لا يغلب فهزם المغول في عين جالوت ( ١٢٦٠ م ) هزيمة لم يتوقعها احد ، بل خاص في الاصل معركة لم يتوقع خوضها احد .

لقد انتصر في عين جالوت على المغول انتصارا يمكن القول من ناحية انه كان حاسماً ، هذا اذا اعتبرنا النتائج البعيدة التي ادى اليها هذا النصر . فان الزحف المغولي

ـند تقدم بقيادة هولاكو لم يوفه شيء وانهارت امامه جميع القوى . حتى خيل الناس في كل مكان انه ماض في نسخه حتى النهاية ، وان مصر هي هدفه الثاني بعد الشام ، وان هذا الهدف كغيره من الاهداف قريب المنال ، ومتى استصفى المغول مصر فانهم سيمضون حتما الى ما هو ابعد ، ولا يعلم الا الله اين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في « عين جالوت » لكان الامر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقواها عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي اعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي حقها بهم المصريون بقيادته : ان ذلك اثبت اولا ان المغول يمكن ان يهزموا ، ثم وضع حدا لتقديمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام ايضا ، ومن هنا يمكن اعتبار النصر المصري في « عين جالوت » نصرا حاسما .

### **نصير الدين الطوسي**

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الاول ، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان ( ١٢١٥ - ١٢٢٧م ) البلاد الاسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ،

وكان بين الفاجدين نصير الدين الطوسي ، فهـام على وجهـه يطلب الملاـجـاـ الـامـيـنـ فـوـجـدـهـ فيـ قـلـاعـ الاسـمـاعـيـلـيـةـ الحـصـينـةـ ،ـ تـلـكـ القـلـاعـ التـيـ صـمـدـتـ وـحـدـهاـ لـجـنـكـيـزـ خـانـ وـصـدـتـهـ عـنـ اـسـوارـهـ ،ـ فـظـلـ حـقـدـ المـغـولـ مـضـطـرـمـاـ عـلـىـ الاسـمـاعـيـلـيـنـ الـىـ انـ اـسـتـطـاعـواـ الثـارـ مـنـهـمـ فيـ عـهـدـ هـوـلـاكـوـ حـفـيدـ جـنـكـيـزـ .

ولـمـ يـكـنـ نـصـيرـ الدـيـنـ وـحـدـهـ هوـ الـذـيـ اـحـتـمـىـ بـهـذـهـ القـلـاعـ ،ـ بلـ لـقـدـ لـجـأـ إـلـيـهـ كـثـيرـ مـنـ اـسـتـطـاعـواـ الفـرارـ وـالـنجـاهـ .

وـعـنـدـمـاـ تـقـدـمـ المـغـولـ فيـ غـزوـهـ الثـانـيـ ،ـ وـاعـادـ هـوـلـاكـوـ سـيـرـةـ جـدـهـ ،ـ كـانـتـ الـحـمـلـةـ هـذـهـ مـرـأـةـ منـ القـوـةـ بـحـيـثـ هـابـتـهـ القـلـاعـ الاسـمـاعـيـلـيـةـ فـلـمـ تـسـتـطـعـ لـهـاـ صـدـاـ ،ـ وـنـزـلـ الـامـيـرـ الاسـمـاعـيـلـيـ رـكـنـ الدـيـنـ خـورـشـاهـ عـلـىـ حـكـمـ المـغـولـ ،ـ فـكـانـ حـكـمـهـ قـتـلـهـ وـقـتـلـ اـعـوـانـهـ وـمـنـ لـجـأـ إـلـيـهـ ،ـ وـاسـتـشـنـواـ مـنـ ذـلـكـ ثـلـاثـةـ رـجـالـ كـانـتـ شـهـرـتـهـمـ الـعـلـمـيـةـ قـدـ بـلـغـتـ هـوـلـاكـوـ فـامـرـ بـالـبـقـاءـ عـلـيـهـمـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ هـذـاـ الـابـقاءـ حـبـاـ لـلـعـلـمـ وـتـقـدـيرـاـ لـرـجـالـهـ ،ـ بلـ لـانـ هـوـلـاكـوـ كـانـ بـحـاجـةـ إـلـىـ ماـ اـخـتـصـ بهـ هـؤـلـاءـ الثـلـاثـةـ مـنـ مـعـارـفـ ،ـ فـاثـنـانـ مـنـهـمـ كـانـاـ طـبـيـبـيـنـ هـمـاـ مـوـقـعـ الدـوـلـةـ وـرـئـيـسـ الدـوـلـةـ ،ـ وـالـثـالـثـ كـانـ مـشـهـورـاـ بـاـخـتـصـاصـهـ فـيـ اـكـثـرـ مـنـ عـلـمـ وـاحـدـهـ هوـ نـصـيرـ الدـيـنـ الطـوـسـيـ،ـ وـكـانـ مـاـ اـخـتـصـ بـهـ عـلـمـ الـفـلـكـ ،ـ وـكـانـ هـوـلـاكـوـ مـقـدـراـ لـهـذـاـ عـلـمـ تـقـدـيرـ حـاجـةـ لـاـ محـضـ تـقـدـيرـ ،ـ مـؤـمـناـ بـفـائـدـتـهـ لـهـ .ـ لـذـلـكـ رـأـيـنـاهـ بـعـدـ ذـلـكـ يـعـنـىـ بـاـنـشـاءـ مـرـصـدـ «ـ مـرـاغـةـ »ـ وـيـوـفـرـ لـهـ كـلـ مـاـ يـسـتـدـعـيـ نـموـهـ وـتـقـدـمـهـ .ـ .ـ .ـ

## رجل الساعة

جمع نصیر الدين الطوسي الى العلم الواسع العقل الكبير ، فتريك سيرته رجلا من افذاذ الرجال لا يمر مثله كليوم . وتشاء القدر ان تعدد مهمته لا ينهض لها الا من اجتمعت له مثل صفاته : علم وعقل وتدبر وبعد نظر ، فكان **رجل الساعة في العالم الاسلامي** ، هذا العالم الذي كان مثخنا بالجراح .

كانت مهمة الطوسي من اشق المهام ، وكانت ازمه النفسية من اوجع ما يصاب به الرجال ، فانه وهو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين المسلمين ، يرى نفسه فجأة في قبضة عدو المسلمين ، ويرى هذا العدو مصرا على ان يبقىه في جانبه ويسيره في ركباه . والى اين يمشي هذا الركاب ؟ انه يمشي لغزو الاسلام في دياره والقضاء عليه في معاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟

ان اقل تفكير في التمرد على رغبة القائد المغولي سيكون جراوه حد السيف ... وانتي لاتخيل الطوسي متأملا طويلا التأمل ، مطرقا كثيرا الاطراق ، لقد كان يعز عليه ان يذهب دمه رخيضا وان يكون ذلك بارادته هو نفسه ، فلو ان سيفا من سيفوف المغول الجانية اودى به فيمن اودى بهم في رحاب نيسابور وسهول ايران لكان استراح . اما الان فلن يستسلم للقدر الطاغي وسيثور على حكم الزمن الفاشي .

## الوضع العام

كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخبط ويدبر . وهو في ذلك آية من الآيات ، وقد ادرك ان النصر العسكري على المغول ليس ممكنا ابدا ، فقد انحل نظام العالم الاسلامي انحلاطا تاما لم يعد معه امل في تجميع قوة تهاجم المغول وتترجمهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة اضعف من ان تفك في ثورة ناجحة . على ان الغرب الاسلامي كان لا يزال سليما ، وكانت مصر هي القوة الوحيدة التي تتوجه اليها الانتظار ، وقد استطاعت مصر ان تذيق المغول مرارة الهزيمة وان تردهم عنها ، ولكنها لم تكن مستطيعة اكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيما احتلوه من بلاد بعيدة واخراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الدين طويلا فايقن انه اذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء على الاسلام ، وها هو يرى بام عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلون ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ ..

لقد استغل حاجة هولاكو اليه ، وحرصه على ان يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم ، فعزم على كسب ثقته واحترامه فكان له ما اراد ، وصار له من ذلك سبيل لانتزاع اكبر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطاع ان ينجي من القتل الكثيرين ممن كانوا سيفوتون .

ولما استتب الامر لهولاكو خطأ نصير الدين خطوه الاولى ، وكانت هذه المرة خطوة جباره فقد اقنعه بان يعهد اليه بالاشراف على الاوقاف الاسلامية والتصريف

النصر الاول

احرز نصیر الدين النصر الاول في معارك الاسلام ، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم ، ولن يحمد المسلمين عن طلبه ، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة . فاذا كان انشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو اليها ، ولن يدرك اهميتها ، فان انشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتما منها لهولاكو فكيف العامل ؟

هنا تبدو براعة الطوسي ، فهو لا يكتفى ببيان الأدلة والبراهين فحسب ، بل ينبعج في إثباتها بطرق مبتكرة ومتقدمة ، مما يزيد من انتشارها وتأثيرها .

والاستفادة من مواهبه لا بد من انشاء مرصد كبير ، فموافق هولاكو على انشاء المرصد ، وغوض لنصر الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الابكر الذي حققه الايام لنصر الدين ، وباتت بعدها مستريحاً للمستقبل لا يشغلها شيء الا الاعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصى الى نهاية القصوى .

يقول الدكتور علي اكبر فياض : « كان يعيش عند ذاك رجل يعد من اكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، الا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم ان يقوم بانقاذ التراث الاسلامي من ايدي المفسول » .

ويقول الاستاذ مدرسي : « استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولاكو ان يستحوذ تدريجياً على عقله وان يروض شارب الدماء فيوجهه الى اصلاح الامور الاجتماعية والثقافية » .

### الخطة الحكيمة

ضخم نصير الدين امر المرصد لهولاكو واقنعته انه وحده اعجز من ان يرفع حجراً فوق حجر في ذاك البناء الشامخ ، وانه لا بد له من مساعدين اكفاء يستند اليهم في مهمته الشاقة ، وانه لا مناص من اجل ذلك من ان يجمع عدداً من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة او في خارجها ، موافق هولاكو على ذلك .

وهنا هب نصير الدين الى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبدالله المراغي ، وعهد اليه بالتطواف في البلاد الاسلامية ، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة الى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤا في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على احسن الوجوه ، وقصد الى اربيل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاريون ولبى الدعوة غيرهم فجاءوا من كل مكان . جاءوا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقو حول نصير الدين يعدون العدة لانشاء اكبر معهد علمي عرفة العالم الاسلامي ، ساترين هدفهم بالمرصد ، مغلفين طريقهم بالافلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة اقصاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن ابي الشكر المغربي الذي كان احد السادة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : « التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، ول يأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس اول اكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة **Academie** ، واقامة اعظم مرصد عرف في الشرق وانشاء اول جامعة حقيقة من النوع المعروف اليوم

بالـ *Université*

**رواية شاهد عيان**

وكان في طليعة الوافدين الى مراغة العالم الدمشقي

مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مraigة وادارته تحدث في مقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله : « . . . وذلك كله باشارة مولانا المعلم والامام الاعظم العالم الفاضل الحق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء » .

ثم يقول : « فجمع العلماء اليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان لهم ارأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحيين كما قيل :

نميل على جوابه كأننا  
نميل اذا نميل على ابينا  
ونغضبه لنخبر حاليه  
فنلقى منهما كرما ولينا  
وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد  
الطوسي ادام الله ايامه .

### النتائج الخطيرة

مضى العمل منظما دقيقا وانصرف العلماء باشراف الطوسي منذين مخططا مدروسا ، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ، وحتى كانت مكتبة مraigة بالذات تضم مجموعة قل ان اجتمع مثلها في مكتبة اخرى ، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الاسلامية تعود حية سوية ، وحتى كانت النفوس مشبعة بالامل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى

كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون على كل وجهة ...

ثم يموت هولاكو ، ولكن الاسلام الذي اراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية ، متوجه الفكر . والعرب الذين عول الطاغية على تحطيمهم يظلون شامخين سالمين ، ثم يموت ابن هولاكو وخليفته ( اباقاخان ) والاسلام لا يزال بقيادة الطوسي صامدا ، يقاتل ويقاوم ويدعو ويهدى .

ويأتي بعد اباقاخان ، ابن هولاكو الاخر ( تكودار ) فاذا بالاسلام ينفذ الى قلبه وعقله ، واذا به يعلن اسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوسي قد مات سنة ٦٧٢ هـ ( ١٢٧٤ م ) . مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بارفع صوت واعلى نبرة . مات الطوسي مودعا الامر الى تلميذه واقرب المقربين اليه قطب الدين ابو الثناء محمود بن مسعود الشيرازي ، فنهض بالعبء على ما اراده نصير الدين . فلم يجد « تكودار » الذي اصبح اسمه « احمد تكودار » خيرا من الشيرازي خليفة الطوسي ليكون رسوله الى العالم العربي والاسلامي .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي : « لم يمت نصير

الدين الا بعد ان جدد ما بلي في دولة التتار من العلوم الاسلامية واحياما مات من آمال المسلمين بها » .

الى ان يقول : « ... ان الانتصار على التتار لم يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة « عين جالوت » وانما كان بفتح قلوبهم الى الاسلام وهدايتهم له » .

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي ان يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية ، وان تنجح خططه في تحويل المغول من وثنين الى مسلمين .

## ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي المغول بعد النكبة الكبرى ، اسير لم ير فيه آسره الا غلاما حدثا قد يصلح اكثر ما يصلح للخدمة في الدور او الدواوين ، ولم يثر في نفس الاسر ابعد مما يمكن ان تشير فيها اية دابة من دواب الارض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد الى العمل طوعا او حرها واي شأن لصبي لم يتجاوز الاربع عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الالوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ومن هوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الاسير الذليل هو عبد الرزاق بن احمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٢ هـ في بغداد ثم وقع في ايدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقودا الى آذربایجان ثم منها من مكان الى آخر حتى عثر عليه في من عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي تحدثت عنه في مقال سابق والذي كان له فضل افساد الخطط المغولية في القضاء على الاسلام في معاقل الاسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من اسره فلم تفته ملامح

الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسى يومذاك يفتش عن الاكفاء ويسعى الى الاذكياء ليلم بهم التسلل فيجدد مسيرة الاسلام قدما الى ابعد الفئات . فعمل الطوسى على فكاك الغلام ثم ضمه الى حاشيته . وما عسى ان تكون حاشية الطوسى ؟ كانت علماء حكماء وبناء اشداء رصهم الطوسى رصا في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشا يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب . فكان لفتانا الاسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العالمة العاملة ، بدأه اولا تلميذا للطوسى تلميذا استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسى ميدانا لكافحه المريض الطويل .

ووجه الطوسى تلميذه فيما وجهه الى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ، كما اتقن التلميذ اللغة الفارسية واحاط بآدابها ونظم الشعر بها ، ولم بلغة الفاتحين المغول . وكان من اعظم انجازات الطوسى حرصه على انتقاد الكتب وجمعها في مكتبة كبيرة وصونها من ايدي المخربين والغابثين ، وبعد ان تم له ذلك وقامت المكتبة عهد بالاشراف عليها الى تلميذه ابن الفوطى . وهكذا اجتمع عبد الرزاق الفكر النير والذهب المفتح والاستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان ان انتهى الى ان يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

## في مراغة

قلنا ان عبد الرزاق ولد ببغداد ، ونقول ان اللقب الذي

التصق به ( ابن الفوطي ) انما جاءه من قبل جده لامه ، وهو منسوب الى الفوط جمع فوطة وهي نوع من الثياب ويبدو ان الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب او بيعها، ويقال انه ينسب الى معن بن زائدة لذلك يلحق باسمه احياناً لقب الشيباني . وكانت ولادته بعد مضي سنتين من خلافة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدرى شيء عن حداثته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القرية من دار الخلافة وانه سمع قبل سقوط بغداد من الصاحب محيي الدين ابن الجوزي احد قتلى وقعة بغداد ، وانه ولد في اسرة متوسطة الحال ثم اسر واطلق من الاسر واصبح قيماً للمكتبة الكبرى في مراغة طيلة ثلاثة عشر عاماً . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد أصبحت مقراً لدولة تتبعها خراسان وايران باسرها والعراق والاناضول اي انها كانت عاصمة المشرق الذي استولى عليه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتتطور عاماً بعد عام ، فمن عداء صريح للإسلام والمسلمين ومذابح وفواجع ونهب وسلب واحراق الى هدوء ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتأمين العلماء واستقدامهم من الأفاق بعيدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبر نصير الدين الطوسي .

### المكتبة ودار الرصد

يفهم مما سجله ابن الفوطي نفسه انه وضع للمكتبة

نظاماً دقيقاً يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرّفون ثم عكف على طلب العلم فكان أن استهواه التاريخ فانصرف إليه . وبدأ أول ما بدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آتته وحّمته وثقفته فسجل كيف انشئت دار الرصد وأشار إلى استقدام العلماء المدرسيين إليها وذكر عمل كل منهم وأختصاصه ومؤلفاته مترجماً له ترجمة ممتعة ، والف كتاباً خاصاً سماه « نذكرة الرصد » خصصه بالذين وفدوه إلى الدار أو مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوتة المكتبة من نفائس الكتب وصفاً ممتعاً فكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقد حفظ في كل ذلك صوراً للحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والأدبية ما كان لها أن تحفظ لولا أن سجلها بقلمه المبدع . مما كان حقيقة بما وصف به من ( أنه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة ) .

## العودة إلى بغداد

وتزداد الحياة تطويراً وتحولاً فمن بين السنتين الثلاث عشرة التي قضتها في مراغة كانت ست منها في حياة الطاغية هولاكو والباقية في عهد ابنه أباقا ، انغمى فيها ابن الفوطى في المجتمع انفماراً كاملاً واستطاع بكىسته أن يتغلغل في أرفع المقامات المغولية وأن يزور الاميرات المغوليّات وأن يستزيد من الصداقات ويكثر من الأخوان . وأن يسجل من وحي ذلك كل طريف معجب . على أنه وهو في قمة نجاحه وعنفوان تألقه لم ينس

وهو البغدادي العريق والعرافي الاصيل ضفاف دجلة ومسارح الطفولة ومدارج الصبا وذكريات الاهل والاحباب ، وثار به الحنيين الى بغداد التي فارقها غلاما غض الاهاب ، فلم ينسه اياها نصوح الشباب وشيوخ الذكر ونجاح الامر حتى كان العام ١٢٧٨ هـ ( ١٩٣٦ م ) حين حكم العراق الصاحب علاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفوطى هي ان يحمله الصاحب الى بغداد فتحقق الصاحب له الرغبة فكان مما قاله عنه : « هو الذي اعادنى الى مدينة السلام سنة تسعة وسبعين وستمائة وفوض الى كتابة التاريخ والحوادث وكتب لي الاجازة لجميع مصنفاته واملى على شعره في قلعة تبريز سنة سبع وسبعين وستمائة .

### في بغداد

العمل الذي اتقنه ابن الفوطى في مراغة هو نفسه الذي عهد اليه به علاء الدين الجويني في بغداد وهو الاشراف على مكتبة المستنصرية وكانت انذاك اعظم مكتبة عامة في العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر ، فعكف ابن الفوطى على عمله فيها بنفس الدقة والاتقان والتنظيم الذي عرف به في مكتبة مراغة . وكانت سنه يومئذ دون الثلاثين فرأى ان يستزيد من العلم فاقبل على دراسة الفقه والحديث بتعمق واتقان حتى استحق بين المحدثين لقب ( الحافظ ) .  
وانشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محبة للعالمين

والمتعلمين البدائيين ومقصدا للطائرين الواغديين ،  
وكان يشير في تدويناته إلى زواره وزوار مكتبه من كل  
الإنسان .

كما وضع معجماً خاصاً بهن تتمذ عليهم واحداً منهم فبلغ عددهم إلى الخمسين.

من حال الى حال

وظل ابن الفوطى على عمله في المستنصرية  
خمساً وعشرين سنة بدأت سنة ٦٧٩ وانتهت سنة ٧٠٤  
كان التحول خلالها قد ازداد سرعة والدنيا تبدل غير الدنيا .  
وكانت غراس نصير الدين الطوسى قد نمت وأثمرت  
فالسلمة الدولة المغولية وتحولت إلى مجتمع إسلامي  
يساهم في نهضة الإسلام وتقدم المسلمين .

كما ان السياسة تطورت من حال الى حال فان ارغون حفيـد هو لاـكو صب نقمته على آل الجويـنـي لأنـهم نصـرواـ عـمه اـحمد تـكـودـار فـبـطـشـ بـهـمـ وـاستـأـصلـهـمـ وـقـرـبـ خـصـوـمـهـ ،ـ كـمـاـ عـامـلـ الـعـراـقـيـنـ بـعـامـةـ مـعـاـمـلـةـ اـنتـقامـ وـقـمـعـ لـيـلـهـمـ الـىـ آلـ الجـويـنـيـ .ـ

وقد كان كل ذلك بمرأى من ابن الفوطي فشهد  
الصراع الحزبي المغولي الدامي وشهد مصارع آل  
الجويني الذين حكموا العراق اكثر من عشرين سنة  
حكمها حبهم إلى العراقيين وأمالهم اليهم ، كما كان قد  
شهد من قبل وفاة الصاحب علاء الدين ووفاة استاذه  
ومربيه نصير الدين الطوسي ووفاة الاجيال التي

عاصرت الطوسي او تخرجت عليه .

شهد كل ذلك في العصر المغولي الاول من فتح بغداد الى اواخر القرن السابع ، وهذه الفترة تعتبر من اشرس الفترات المغولية واعنفها ، ولكن المغول اخذوا يتكيفون تكيفا تدريجيا فلطف الاسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكِد القرن السابع ينتهي ويقبل ما نستطيع ان نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالاسلام وتحسّسهم بظاهر الحضارة الاسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النقوس والادارء تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطى هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرهف الحس واتصل برجالها حكاما وعلماء ونافذين ، مكتب عن كل ما شاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفك ثاقب وقلم رشيق .

### في تبريز

بعدما تخلى ابن الفوطى عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل الى تبريز حيث اقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين الى بغداد فرجع اليها ثم عاد الى بغداد وكثير تردد الى تبريز . ويبدو ان الذي جذبه الى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمذاني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره ازهى عهودها

العلمية والمعمارية والسياسية فلابد له ابن الفوطي وعاود سيرته في الاخذ عن العلماء والدرس على الشيوخ ولقي في تبريز الامام قطب الدين الراري الفقيه الرياضي الفيلسوف فتلذ عليه ثم استجازه كما اخذ عن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تتعجب بهم تبريز ، ولكن اثر الراري كان فيه بارزا .

وبعد ان وزر رشيد الدين لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخربيده وابي سعيد تغير عليه الاخير لدسائس حيكت حوله فاقصي عن الحكم ثم اعيده اليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتى قتله السلطان ابو سعيد في احداث ليس هذا مكان ذكرها ..

على ان افجع ما اعقب هذه الاحاديث هو احرق مكتبة رشيد الدين وكانت تضم ما لا يقل عن خمسين الف مجلد . ويبدو ان معظم مؤلفات ابن الفوطي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمه للنيران فيما ذهب من كتب، وهذا لم يبق من تلك المؤلفات الا اسماؤها فضاع بذلك تاريخ فترة من ادق فترات تاريخنا ولم يبق في ايدينا الا اجزاء محدودة مما كتب ابن الفوطي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيان ابن الفوطي اذ قتل صديقه واحتراقت كتبه فترك تبريز وعاد الى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات على حادثة تبريز عن احدى وثمانين سنة .

## كتاب مجمع الاداب

ضاعت مؤلفات ابن الفوطي النفيسة حرقا في

احداث تبريز على الارجع ، وان كان يمكن ان يكون بعضها قد ذهب للاسباب نفسها التي ذهبت بها مؤلفات غيره من العلماء . ومن كتبه كتاب ( مجمع الاداب ) الذي لم يوجد منه الا جزءان الرابع والخامس وقد وجد الاول منهما في دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو نسخة الاصل ومسودة المؤلف بخط يده . وووجد الثاني في مكتبة جامعة لاهور بالباكستان وهو نسخة المؤلف ايضا . وهذا الجزآن هما اثنان من اصل خمسين مجلدا يتالف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذين الجزأين . وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هي ان يؤرخ للعصر عن طريق التاريخ لرجاله . وقد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتى قبيل وفاته ، اذ وردت دراسات عن جماعة وجدوا سنة ٧٢١ اي قبل وفاته بستين وسنة ٧٢٢ اي قبل وفاته بسنة واحدة ولا ننسى انه كان عندذاك في الواحدة والثمانين من عمره . وقد كان لهذا الكتاب اثره الكبير في امداد المؤرخين الذين تلوا عصر المؤلف بادق المعلومات التاريخية عن ذاك العصر . وومن استفاد منه واخذ عنه كل من الصفدي في ( الواقفي بالوفيات ) والذهببي في ( تاريخ الاسلام ) والسيوطسي في ( بغية الوعاة ) وابن عنبة في ( عمدة الطالب ) وشمس الدين الجزري في ( غاية النهاية ) وابن كثير في ( البداية والنهاية ) وغيرهم .

### ابن الفوطي في المصادر القديمة

في طليعة من تحدث عن ابن الفوطي كمن

الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ اذ جعله منهم كما سماه مؤرخ الافق ، ويبدو من حديث الذهبي ان كتابه ( مجمع الاداب ) ذا الخمسين مجلدا هو مختصر لكتاب اكبر . فالذهبـي يقول : ( وعمل تاريخا كبيرا ) لم يبيضه ثم عمل آخر دونه في خمسين مجلدا اسمـاه مجمع الاداب ) . فهل مجمع الاداب هو مختصر من مطول ام هو كتاب اخر ؟ . . . .

وذكره كذلك صاحب الدرر الكامنة وقد جاءت عبارته صريحة في ان المجمع هو اختصار لكتاب الكبير ، اذ قال : . ا، تاريخا حافلا جدا ثم اختصره في آخر سماه مجمع الاداب في خمسين مجلدا . . . .

وذكر صاحب الدرر فيما ذكر من مؤلفاته : كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا ثانينا نرى ان ابن الفوطي لم يكن مؤرخ سياسة واحادث فحسب ، بل هو ايضا مؤرخ ادب . ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة تضاف الى غيرها من الخسائر ولو بقى لعرفنا فيه حياة شعراء تلك الفترة وقرأنا اثارهم بقلم معاصر سامع لهم باذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو ابداع ابن الفوطي بكتابه التراجم في وصف الذهبـي له حين قال عنه : ( . . . له الـبـاعـ الطـوـيلـ في تـرـصـيـعـ تـراـجـمـ النـاسـ ) . ووصفه الذهبـي ايضا بقوله : اـ كانـ روـضـةـ مـعـارـفـ وـبـحـرـ اـخـبـارـ ) .

### في المصادر الحديثة

نم يلقـ ابنـ الفـوطـ يـ حتـىـ الـيـومـ ماـ يـسـتحقـهـ منـ

الدارسيين في العصر الحاضر بأسئلة الشيخ محمد رضا الشيرازي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشق فاستهواه ابن الفوطى استهواه عجيبة جعله يخصه بعده بحوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئين سماه ( مؤرخ العراق ابن الفوطى ) .

### **المثقف الفريد**

لا شك ان ابن الفوطى كان في عصره مثال المثقف العالمي الثقافة الموجل فيها والأخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبي في ذلك ان يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانين من عمره كما كان وهو في مطالع الشباب وغضارة العمر . وان يذكره المؤرخون في اول صفوفهم كما يذكره المحدثون في رأس حفاظهم ، فقيها بين الفقهاء وغليسوفا بين الفلاسفة ورياضيا بين الرياضيين وشاعرا بين الشعراء وصوفيا بين الصوفيين ، واداريا بين الاداريين وملما بين المعلميين متذوقا للجمال والموسيقى والشعر .

### **مؤرخ الشعب**

واما كنا قد ذكرنا فيما تقدم انه ترجم للعلماء والشعراء والسياسيين فان هذا الفقيه المحدث الحافظ قد ترجم فيمن ترجم لهم لاعلام الموسيقى الالية والصوتية ، مل ببدو انه كان ذا نصر في الموسيقى وتحارب ،

عملية . كما ارخ للوراقين والناسخين والمعامين والمؤدبين وذوي الفنون والصنائع الجميلة ، وبذلك خرج على طرائق المؤرخين قبله الذين اهملوا تاريخ الشعب وعنوا بتاريخ المتسطيين وحدهم فهو في الواقع مؤرخ الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

## رشيد الدين الهمذاني وكتابه جامع التواریخ

الغزو المغولي الاول الذي حمل وزره جنكيز ، ثم الغزو المغولي الثاني الذي باء بائمه هولاكـو لم تؤرخهما المصادر العربية تارينا مفصلا يعرض دقائقهما ويوضح وقائهما بحيث تكون الصورة امامنا جلية ترينا ما جرى رؤية بنية شاملة .

وكل ما اشتملت عليه المصادر العربية حديث اجمالي متقطع ، وتدوين عام موزع على وقائع السنين . ولم يكن من هم اكثـر من كتبوا عن ذلك ان يخصصوا تاريخا محصورا بالغزو وحده ، بل كان هم معظمهم منصرفـا الى التدوين العام لما يجري خلال كل عام ومنه بطبيعة الحال تقدم المغول الى البلاد الاسلامية .

وممن عـنـي من مؤرخي العرب بتاريخ المغول ، ابن كثير في البداية والنهاية وابـو الفداء في تاريخه ومؤلفـ الحـوـادـثـ الجـامـعـةـ والـسـبـكـيـ فيـ طـبـقـاتـهـ وابـنـ خـلـدونـ وابـنـ حـجـرـ فيـ الدرـرـ الـكـامـنـةـ وـالـعـيـنـيـ فيـ عـقـدـ الـجـمـانـ وـالـسـخـاوـيـ فيـ الضـوءـ الـلـامـعـ . هذا مـضـافـاـ الىـ ماـ وـرـدـ فيـ الـكـامـلـ لـابـنـ الاـشـيـرـ وـماـ اوـرـدـهـ اـبـنـ الفـراتـ فيـ تـارـيـخـهـ .. وـفـيـ عـصـرـناـ هـذـاـ يـمـكـنـ انـ نـعـتـرـ كـتـابـ الدـكـتـورـ جـعـفـرـ خـصـبـاكـ اـفـضـلـ ماـ الـفـ فيـ هـذـاـ الـمـوـضـوعـ .

اما في غير اللغة العربية فمن اشهر تواريخ المغول باللغة الفارسية كتاب ( جهان كشاي ) لعطا ملك الجويوني و ( تاريخ وصف ) لعبدالله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصف الحضرة و ( تقويم الوقائع التركية ) لصاحب كشف الظنون . وفي اللغة التركية عدة كتب وضعت بالتركية رأسا او ترجمت اليها مثل كتاب ( شجرة الترك ) لامير خiosa وكتاب ( كلشن خلفا ) وكتاب ( ترك تاريخي ) وكتاب التاريخ العام لسائر بطون القتر والمغول والترك ، منقول من الفرنسية الى التركية .

والمغول سواء في عهد جنكيز او حفيده هولاكو لم يكونوا حملة حضارة ولا رسول عقيدة . كما لم يكونوا ذوي ثقافة ولا اهل علم مما يمكن ان يحملهم على ان يدونوا التاريخ بأنفسهم ، او ان يعدوا من رجالهم من ينصرف الى غير القتل والضرب والتخريب والسلب . ولكنهم بعد ذلك وقد اسلموا ثم بدأوا يتسبعون بروح الحضارة الاسلامية ويروضون من جماحتهم ويهذبون من عتواهم ، ثم يوغل الفكر الاسلامي فيهم فيلتفتون الى غير الطفيان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكر الذي اخذ يستنير بنور المدنية وضياء العلم . انهم وقد احتوتهم الذهنية الاسلامية وصهرتهم اوساطها ، بدأوا يعنون بتاريخهم والطلع الى ماضיהם وحاضرهم وتسجّل ما يمكن ان يعتبروه من مآثمتهم وما ترهم .  
واذا كان ماضيهم زاخرا بسفك الدماء ، حافلا

بالترويع ، قائما على الغدر وتحليل كل محرم . فان ذهنيتهم ، بل ربما كان لنا ان نقول : ان ذهنية الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت ترى في الغلبة وقهر الشعوب افخم امجادها بصرف النظر عما يرافق هذه الغلبة من احوال وفجائع .

وهكذا فان مجرد تصورهم ما احرزه جنكيز من انتصارات ، وما حققه هولاكو من فتوح ، كان في نظرهم شيئا خطيرا يستحق ان يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليلا على بطولتهم واشارة الى قوتهم وشجاعتهم . وكان اول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمة الى الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

### رشيد الدين

وتعود الصلة بين رشيد الدين وبين المغول الى اليوم الذي حق فيه هولاكو انتصاراته الخامسة في زحفه الطويل فكان مما خضع له قلعة الموت حصن الاسماعيليين الحسين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذاني . فقتل هولاكو الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثلاثة لا رحمة بهم ، بل حاجة اليهم لان الاول كان فيلسوفا كبيرا وفلكيا مشهورا والثاني والثالث كانوا طبيبين معروفين . وكان هولاكو بحاجة لهذا النوع من الرجال فاللزم الثلاثة

ساحتها وامرهم بمرافقته والسير في ركباه .  
والطيبب موفق الدولة هو جد الطيبب فضل الله  
رشيد الدين الهمذاني .

ولسنا ندرى الى اي مدى استمرت صلة الجد بالغول ،  
ولا نوع الصلة التي كانت بعد ذلك للا ب بهم ولكننا نعلم ان  
رشيد الدين كان من اعوان غازان السلطان المغولي المسلم  
المقربين وخلصائه الاثيرين .

على ان ما يرويه رشيد الدين نفسه قد يدلنا على  
ان صلة الاسرة بالغول ظللت مستمرة وانها تعمقت بعد  
اسلامهم . فرشيد الدين يقول عن نفسه : « على هذا  
النحو كنت استغل اوقات فراغي ، وذلك لاتسي الحق  
بقصر السلاطين منذ شبابي الغض » .

ولا بد ان الذي الحقه بالقصر هو ارتباط ابيه بذلك  
القصر بعد ارتباط جده . ويبدو لنا ان ذلك الارتباط كان في  
تسلسله ارتباط اسرة عرفت بالطيبة ومهاراتها بها وانه كما  
كان الجد طبيب القصر المغرلي كذلك كان ابا ثم كان  
الحفيد .

### سيرة رشيد الدين

ولد رشيد الدين في مدينة همدان سنة ٦٤٥هـ ( ١٢٤٧م ) على الارجح . اذ انه يحدثنا انه كان في سنة ٧٠٥ في حدود الستين من حياته . وقبل غازان كان على  
صلة باباقيا خان وخلفائه مكرما عندهم معنيا به في بلاطهم .  
ولكننا لا نعلم انه تولى منصب اكيرا قبل غازان الذي ولد  
الملك سنة ٦٩٤هـ ( ١٢٩٥م ) .

ونحن نعلم ان اول من اسلم من ملوك المغول هو ( تكودار ) بن هولاكو الذي ولد الملك بعد أخيه ( اباقا خان ) وتسمى بأحمد . وكان اباقا خان قد عهد بالملك الى ابنه ( ارغون ) . ولكن آل الجويني ومن والاهم من الامراء والقواد لم يدعوا ارغون يتولى الملك ونادوا بتكودار ملكا سنة ٦٨٠ ولم يطل الامر اكثر من ثلاثة سنين حيث استطاع ارغون التغلب على عمّه الامير ( احمد تكودار ) وقتله وتولى الملك بعده . وفي عهد ارغون انتعشت الوثنية من جديد كما اشتذ نفوذ اليهود . وبعد ارغون تولى ابنه غازان الذي كان اول ملك مغولي يؤدي الصلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الامراء والكرياء وجمهور الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الدين بغازان في اول امرها صلة علمية بحتة . وكان السلطان يفتتم فرصة لقائه برشيد الدين ليذاكره في مبادئ الاسلام وتفسير القرآن ويستوضحه ما خفي عليه من شؤون الدين ، وليجول معه في امور العلم والفكر .

ثم وlah المنصب الاول في الدولة وجعله وزيرا له ، بعد مقتل الوزير السابق صدر الدين الزنجاني ، الذي اودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الایقاع به لديه ، فادى ذلك الى مقتله واحلال رشيد الدين محله عام ٦٩٧هـ ( ١٢٩٧ م ) واشرك معه في الوزارة سعد الدين الساوجي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده اخوه الجايتو خدابنده فحفظ للوزيرين منصبيهما وظلت لرشيد الدين نفس

المنزلة التي كانت له عند غازان .  
وكمما حيك له الدسائس لدى غازان اخذت  
الدسائس تحاك له ولزميله سعد الدين لدى ( خدابنده )  
فنجا منها رشيد الدين مرارا في حين انها ادت الى  
مقتل زميله سعد الدين واحلال علي شاه محله الذي  
أخذ يدس على رشيد الدين دون ان ينجح في دسائسه .  
ومات الجايتو خدابنده ورشيد الدين على مكانته . وتولى  
بعد خدابنده ولده ابو سعيد والتنافر بين الوزيرين على  
اشدё ودسائس علي شاه لدى اببي سعيد تتوالي حتى  
نجح في حمل السلطان علي اقصائه عن الوزارة سنة  
١٣١٧هـ ( ١٩٧١م ) . على ان مساعي اصدقائه اعادته  
من جديد الى الوزارة بعد ان تردد واحجم . ولتكن هذه  
العودة كانت السبب في وصوله الى نهاية المحنـة . اذ اتهمـه  
زميلـه علي شاه بأنه سـمـمـ السلطـانـ خـدـابـنـدـهـ وبـعـدـ منـاقـشـاتـ  
طـوـيلـةـ اـقـتـنـعـ ابوـ سـعـیدـ بـانـ رـشـيدـ الـدـيـنـ انـ لـمـ يـسـمـمـ  
ابـاهـ فـهـوـ عـلـىـ الـاـقـلـ وـصـفـ لـهـ دـوـاءـ كـانـ السـبـبـ فـيـ مـوـتـهـ .  
وبـالـرـغـمـ مـنـ انـ التـهـمـةـ كـانـتـ وـاهـيـةـ فـانـ سـيـطـرـتـ عـلـىـ  
ابـيـ سـعـیدـ فـأـمـرـ بـانـ يـقـتـلـ رـشـيدـ الـدـيـنـ وـانـ يـقـتـلـ مـعـهـ  
ولـدـ الـيـافـعـ اـبـراـهـيمـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ قـدـ تـجـاـزـ السـادـسـةـ عـشـرـةـ  
مـنـ عـمـرـهـ بـدـعـوـىـ اـنـ هـوـ الـذـيـ نـاـوـلـ دـوـاءـ بـنـفـسـهـ لـلـسـلـطـانـ .  
فـقـتـلـ وـلـدـ اـمـامـ عـيـنـيـهـ ثـمـ قـتـلـ هـوـ سـنـةـ ١٣١٩هـ ( ١٩٧٨م ) وـقـدـ  
بـلـغـ الثـلـاثـةـ وـالـسـبـعـيـنـ مـنـ عـمـرـهـ .

ولـمـ يـلـبـثـ بـعـدـ ذـلـكـ اـبـوـ سـعـیدـ اـنـ اـدـرـكـ اـنـ مـخـطـنـاـ  
فـيـمـاـ اـجـرـاهـ عـلـىـ رـشـيدـ الـدـيـنـ وـلـدـهـ ، وـشـاءـ اـنـ يـكـفـرـ

عما فعل فاستدعى غياث الدين احد اولاد رشيد الدين وعهد اليه بالمنصب الذي كان يشغلها ابوه في الوزارة .

## الربع الرشيدى

انشأ رشيد الدين في تبريز ضاحية اطلق عليها اسم الربع الرشيدى وعنى بها عناية فائقة . على ان اكثر ما يهمنا من تلك الضاحية انه انشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل ان يجتمع مثيله في مكتبة . وكانت محتواه على ما لا يقل عن خمسين ألف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من افعى اثار النكبة احراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التي لم يصلنا الا اسمها وكانت فيما تحويه مكتبة الربع الرشيدى وذهب كلها طعممة للنار . ويكتفى ان نذكر منها مؤلفات ابن الفوطي وحدها .

## المثقف المسلم والعالم العالمي

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهي حياة مهما كان قد اوتى فيها من كفاءة وتفوق في حسن تحرير الامور ، ومهما كتب له من النجاح في ميادينها ، فهو يعلى كل حال حياة كحياة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقين ، الذين لا يلبث اسمهم ان يضيع في طيات الزمن ويختفي في اغوار الدهر . ولو كانت هذه الحياة هي كل ما كان لرشيد الدين لما وجد من يشغل نفسه بها ويلفت قراءه اليها .

ولكن لرشيد الدين حياة اخرى هي التي تعنينا في هذا البحث ، وهي التي عنت قبلنا غيرنا من الكتابيين : هي حياة العالم المفكر المؤرخ ، وهي حياة اكسبت رشيد الدين الخلود ، وجعلته من احياء الذكر على طول الدهر .

يقول المستشرق الفرنسي ( كاترمير ) في مقدمته التي كتبها لكتاب جامع التواریخ : « اذا غضبنا النظر عن الطب الذي اقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الاخرى التي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر ، وجدنا انه ايضا لم يهمه دراسة الزراعة والهندسة والمتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط احاطة تامة بكثير من اللغات وهي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه ايضا « كان مولعا بالمعرفة اشد الولع فما استطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع ان يجد لنفسه الوسيلة لمعالجة الاداب والعلوم والاحاطة بالدين الاسلامي الى اعمق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحسن بن يوسف بن المطهر ، المعروف بالعلامة الحلي في بعض كتبه ان مجالس رشيد الدين في عهد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث اسلامية تعرض فيها شتى البحوث وتطرح مختلف الاسئلة لا سيما المتعلقة منها بالاسلام . وان بعض من كان يحضر كان يسأل رشيد الدين عن دقيق الامور ، وكان رشيد الدين يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلبي انه حضر بعض تلك الجلسات في عهد السلطان الجايتو خدابنده واستمتع الى سؤالين اسلاميين طرحا على رشيد الدين وانه اجاب عنهما . ولشدة اعجاب الحلبي بجواب رشيد الدين فقد دون السؤالين والجوابين . يقول العلامة الحلبي ما نصه : ( وحضرت في بعض الالالي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فاجاد في الجواب عنهما ) .

والواقع ان رشيد الدين كان يمثل المسلم المثقف ، المرفيع الثقافة كما كان يمثل العالم العالمي ، باوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنى . ولو لم تشغله السياسة ، ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . اذ انه لم يعط الجانب الثقافي الا بعض العطاء ومع ذلك فقد كان له فيه مثل الذي رأينا .

واذا كان لرشيد الدين من الكتب مثل ( التوضيحات ) و ( مفتاح التفاسير ) والرسالة السلطانية ) و ( الاحياء او الاثار ) و لطائف الحقائق ) و ( بيان الحقائق ) ، فلا شك ان قمة اعماله التأليفية هي ما كتبه في التاريخ في كتابه ( جامع التواریخ ) .

### قصة جامع التواریخ

يعود الفضل بالدرجة الاولى في تأليف هذا الكتاب الى السلطان غازان الذي شاء ان يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ الى مصادر معروفة واحادث مكتوبة تكون المادة الاولى للمؤرخ

الذى يأخذ على نفسه القيام بهذا العباء .  
وكان سلاطين المغول يحتفظون في خزائنهم بوثائق  
مكتوبة بلغتهم فيها تدوين لكثير من وقائعهم ، كما كان  
كثير من الاسر المغولية العربية يحتفظ بمثل هذه الوثائق .  
وكان كل ذلك يحتاج إلى من ينظمه وينسقه ويستخلص  
منه الحقائق ، ويخرج منه اصولاً لتاريخ يمكن ان يدون .  
واهتم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنه فعمل  
على تحقيقها ، ولم يكن في بلاطه افضل من رشيد الدين  
من يمكن ان يعهد اليه بانجاز تاريخ المغول وتدوينه . فاودع  
لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد اليه باستطلاع  
ما يمكنه استطلاعه من المدونات الاخرى او الروايات غير  
المعروفة .

فقام رشيد الدين بالمهمة على افضل وجوهها  
وعكف على انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف استطلاعه  
شؤون الادارة والحكم .

ولما اوشك الكتاب على التمام كان غازان قد توفي  
( ١٣٠٣ ) وورث عرشه اخوه ( الجايتو خدابنده ) فلم  
يكن اقل اهتماما من أخيه بانجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه  
بان طلب الى رشيد الدين ان يشير الى الشعوب التي  
اتصل بها المغول ويعرض تاریخها وان يضيف الى ذلك  
دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ( ١٣١٠ ) حتى كان الكتاب قد  
انتهى مكتوباً باللغة العربية واللغة الفارسية باسم  
( جامع التواریخ ) واودع مكتبة المسجد الذي كان رشيد الدين

تد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلا : « الواقع ان تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تأليفه على فحص الوثائق الوطنية » الصحيحة المحفوظة في سجلات الامبراطورية والمذكرة التي في حوزة الاسر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق هي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفاً لمنهج رشيد الدين وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه : « استطيع ان اشهد لنفسي باني لم ادخل اي احتياط او جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف او مشكوك فيه . وقد اقتبست دون اي تغيير ما انطلقت عليه اصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت احسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من اعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الانساب . وحققت هجاء اسم كل امة وكل قبيلة » .

الواقع اننا نستطيع ان نعد ميزة التجدد اولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وان نومن بانه سعى وراء الحقيقة سعياً مخلصاً شجاعاً ، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدث عما في تاريخهم من فظائع ، وكان كما قال عنه كاترمير : « اذا كان يبدو في كتابه مسلماً صادقاً الاسلام ، فانزراه من جهة اخرى يتتجنب الاطراء غير المجدية ويتمسك دائمًا بنزاهة في الرأي تستحق كل اجلال ، ولا سيما اذا كانت من مؤرخ » .

ويقول ايضاً : « يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة

ايضا ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبها هذا الشعب (المغولي) وتخريب اعظم المدن واكثرها ازدهارا وتدمير السكان العديدين دون قلق او ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقووا بها ارضا وصنعوا من اغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم » .

## تاريخ هولاكو

عندما نراجع كتاب تاريخ هولاكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والاهوال التي رافقت هولاكو ومشت معه في كل خطوة خطاتها مما نص عليه رشيد الدين نصا واضحا، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى اليه الامر بعد ذلك من الظفر .

نرى ان هذا القسم قد حوى من الحقائق واوضح من الخواصي ما لم يكن ممكنا الوصول اليه في غير هذا الكتاب . لقد ابرز لنا مثلا مقدمات معركة عين جالوت والاحاديث التي ادت الى تلك المعركة ابرازا لا نجد له مثيلا في غيره . وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد امامنا ما يمدنا بمثل ما امدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وتراسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فانه يذكر كل الكلمات والجمل التي وصفت هولاكو بما هو فيه والتي صورته سفاكا غادرا لا يرعى الا ولا ذمة ولا يحفظ عهدا ولا امانا .

انه يذكر مثلا عن لسان ناصر الدين قيمري من ببار اعضاء المؤتمر قوله عن هولاكو : « لا يتورع عن احتزار الرؤوس . وهو لا يفسي بعده و ميثاقه » . ويذكر عن لسان سيف الدين قطر قوله واصفا ما جرى في البلاد التي مر بها هولاكو : « ان كافة بلاد ديار بكر و ربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفحائن ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث و نسل » .

### حقائق اخرى

من الحقائق التي عرفناها في كتاب ( جامع التواريХ ) حقائق مذهلة حقا . فلم يكن يدور في خلدنا ان المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وان قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض والمصر على التحرير والثابت عليه . فان هذا القاضي او قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الاسماعييليين في قلائهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان لا يفتأ يتосل الى منكوحان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع الاسماعييلية .

ولقد سار هولاكو وشعار حملته القضاء على الاسماعييليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويفيدنا رشيد الدين عن ذلك قائلا عن هولاكو : « ثم ارسل عدة رسل الى الملوك والسلطانين في ايران تشتمل على تلك

العبارات : « بناء على امر القاآن فذ عزمنا على تحطيم  
قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . . . »

### تدابير ابن العلقمي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان  
يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها  
الدوادار الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبهه  
المؤتمر الذي عقده من يسميهم امراء بغداد وعظماؤها  
في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه  
والذي اضطر على حضوره – على ما يبدو – الدوادار نفسه  
وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين  
الخطر الداهم . وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك  
باعداد الجنود عرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون اكمال  
الاعداد وكيف ان الخليفة رفض مد الجند بالمال مما افسد  
خطط الوزير . .

ثم يشير رشيد الدين الى حقيقة اتهام ابن العلقمي  
 قائلا :

« ولما كان الدوادار – في تلك الفترة – خصما للوزير  
فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين  
الناس ان الوزير متفق مع هولاكوخان » .

كما يشير الى ان سليمان شاه حين احضر بين  
يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلا كيف لم يشر على  
الخليفة بما فيه الرأي ، وان سليمان شاه اجابه بان  
الخليفة لم يستمتع لنصح الناصحين .

## حقائق وحقائق

ومما يشير النفس اسى ان المستعصم الذي رفض ان يوجد بالمال لاعداد الجيش وتنظيمه كما اراد ابن العلقمي، يضطر بعد ان دخل المغول ببغداد لان يكشف لهولاكو عن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الارض حتى وجدوه وكان مليئا بالذهب الاحمر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كما يروي رشيد الدين .

ثم يقول : وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعفه المغول بعضه على بعض مكان كجبل على جبل .

## بعد فوات الاوان

وبعد فوات الاوان يدرك المستعصم ان ما قد اشار به ابن العلقمي كان هو الصواب وانه لو عمل بأرائه لما وصل الحال الى ما وصل اليه ..

ولما استدعاه هولاكو عاد يستشير ابن العلقمي قائلا له : ما حلتنا ؟ .. فقال ابن العلقمي : « لحيتنا طويلة ». وكان مراده من ذلك كمَا نص رشيد الدين - : ( انه عندما فكر اول الامر في ان ترسل احمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدوادار : « لحية الوزير طويلة » وحال دون الاخذ بهذا الرأي واستمع الخليفة لكلامه واهمل تدبير الوزير ) . ولا شك ان الامر الان قد خرج عن كل تدبير ورأي . ومن صراحة رشيد الدين استعماله كلمة الشهادة

لمن يقتله المغول كما قال عن تاج الدين بن صلايا الاريلسي : « ... وعند محاكمته ثبت جرمها واستشهد » .

كذلك يشير الى ما بلغ اليه الملوك من الطلع الذي حملهم على الاستخداة استخداة مزريا : فهو مثلا يحدثنا عن السلطان عز الدين صاحب الروم ، انه عندما فتحت بغداد أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه لهولاكو اثناء معايبته اياه ، وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة قبل عز الدين الأرض وقال : ( ان املي هو ان يشرف الملك راس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها ) .

## مجلدات الكتاب

يشتمل كتاب جامع التواریخ على اربعة مجلدات :

الاول : يتعلق بتاريخ المغول المشتمل على تاريخ القبائل التركية المغولية واجداد جنكيز ، ثم جنكيز نفسه ومن بعده خلفاؤه حتى غازان . والثاني : يتعلق بتاريخ الفرس قبل الاسلام ، ثم التاريخ الاسلامي الى سقوط بغداد ، ثم الامم التي اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث : يشتمل على ابعد عصور التاريخ حتى اخر خلفاء بنبي العباس . والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الاقاليم السبعة وولايات ممالك العالم .

على ان كاتمير يقول : لدينا الجزء الاول من كتاب رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول . وانه الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على اصدق

المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم . ثم يتساءل كاترمير : هل الاجزاء الثلاثة الاخرى قد ضاعت دون امل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير تحقيق اكثراً ما يمكنه تحقيقه من المجلد الاول ولكنه لم يستطع تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الشناب : ان حديث كاترمير عن (جامع التواریخ ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف اجزاء منه لم تكن قد عثر عليها ايا م كاترمير او من ناحية النشر .

ومن امثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨ وهي قسم من الجزء الاول متعلق بـ اجداد جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وكان اخراج آخر جزء من هذا البحث سنة ١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد اخرج هذه الاجزاء المستشرق الروسي ( بربزي ) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من اوائل هذا القرن اكثراً من قسم من المجلد الاول لهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي ( بلوشيه ) سنة ١٩١١ والذي نشر في ايران سنة ١٩٣٧ والذي نشره المستشرق التشکسلوفاکي ( کارل ) سنة ١٩٤٠ وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهذا يمكن القول ان المجلد الاول من جامع التواریخ قد نشر كله . كما نشر کارل بان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق بالفرنج من المجلد الثاني .

## في اللغة العربية

كان عبد الوهاب عزام اول من دعا في العرب لنشر ( جامع التواریخ ) وترجمته والقى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين تحدث فيها عن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربي منه وترجمة بقية الاجزاء الى اللغة العربية .

ثم مضت عهود وعهود فكان ان قررت ادارة الثقافة والارشاد القومي في مصر ان تقوم بنشر هذا التاريخ . ولكننا لا نعلم انه صدر في اللغة العربية غير قسم من المجلد الثاني - الجزء الاول وهو ( تاريخ هولاكو ) . نقله الى اللغة العربية كل من محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب . وطبع سنة ١٩٦٠ .

كما نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيد الدين التي كتبها المستشرق الفرنسي كاترمير والتي ترجمها محمد القصاص .

وذلك نشر الجزء الثاني من المجلد الثاني ..  
ووعد يحيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر ما ينجز من الكتاب اولا بأول . ولا نعلم بعد هل تحقق شيء من هذا الوعد ام لا .

## حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاته

كان رشيد الدين حريصا على ان تصل مؤلفاته لا

سيما جامع التوارييخ الى الاجيال الاتية . وقد كان يعلم ما كان يمكن ان يكون عليه ، او ما كان عليه مصر كثير من الكتب حين لا يكون في ايدي الناس منها الا نسخ محدودة تذهب بها ايدي الحدثان لا سيما في العصور التي تكثر فيها الفتن وتعتم الفوضى .

لذلك حرص اشد الحرص على ان يتخذ طريقة يكتب، مؤلفاته معها الوصول من جيل الى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية . كما استكتب مجلدا ضخما ضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية زيادة منه في الحرص على حفظها . واودع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدى ليكون مدفنه . ثم توسع في الاحتياط فوق قسمـا من ثروته لكتابـة نسخـة بالفارسـية ونسـخـة بالعـربـية في كل عـام من مـجمـوعـة مؤـلفـاتـه كلـها لـدرـسـلـ الـوـىـ مـديـنـةـ منـ مدـنـ الـاسـلامـ الـكـبـرـىـ وـتـوـقـفـ عـلـىـ اـهـلـ تـلـكـ المـدـيـنـةـ ، وـكـتـبـ فيـ ذـلـكـ وـصـيـةـ جـيـلـةـ طـرـيـفـةـ مـؤـثـرـةـ .

ولكن كل ذلك الحذر لم يفـدـ وضـاعـ ما ضـاعـ مـنـ مؤـلفـاتـهـ وـوـجـدـ شـائـنـهـ شـائـنـ كلـ المؤـلـفـينـ فيـ تـلـكـ الـعـهـودـ .

ولعل هذا الحرص هو الذي اوصل اليـنا ما وصلـ ، ولو لـاهـ لـضـاعـ الجـمـيعـ ، وقد كان مـطـمـئـنـا الى بنـاءـ الـرـبـعـ الرـشـيدـيـ الـذـيـ حـفـظـ فـيـهـ كـتـبـهـ ، ولكن الـرـبـعـ كـلـهـ نـهـبـ سـعـدـ نـكـبـتـهـ وـاحـتـرـقـتـ مـكـتـبـتـهـ كـمـاـ قـلـنـاـ .

## من ملامح الدولة الفاطمية

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن من عمداء جامعة القاهرة واساتذة التاريخ السابقين فيها وهو يتحدث عن كتاب ( المجالس والمسائرات ) للنعمان بن محمد : ( وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز ( الفاطمي ) بالدولة البيزنطية غاوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين وصور ما حل بالروم وخلفائهم امام اساطير المعز تصويرا رائعاً وذكر الرسائل التي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عدف المعز ومهادنته ولاول مرة نسمع ان مسلمي جزيرة قريطش ( كريت ) الذين كانوا تحت الحكم العباسى يطلبون النجدة من المعز ( الفاطمى ) لحرب الروم ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين اهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ » .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين من اساتذة جامعة القاهرة :

فالقاهرة الفاطمية اصبحت مطمح انتظار العلماء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر ان تنتزع زعامة العالم الاسلامي في الحياة العلمية .

ويقول ايضاً : وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الأخرى يرمون من يستغل الفلسفة بالزندقة والالحاد .

ويقول ايضاً : وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وقد اوقفوا ارزاقا ثابتة للمستغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له .

ويقول ايضاً : وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ويقول ايضاً : ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وفنونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت حلقات الدرس في المساجد او الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي اسوان وقوص في الجنوب ، كما كان امراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشيوخ وعن مصر الفاطمية اخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب .

وبقول الدكتور مصطفى مشرفة : انه كان للمالكية في الازهر الفاطمي خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولاصحاب ابى حنيفة ثلاثة حلقات ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحاكم بامر الله بالذات : والحاكم بامر الله لما امر بعمارة دار العلم ونقل اليها الكتب من القصر اسكنها من شيوخ السنة شيخين احدهما ابو بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما .

### **الوحدة بعد التجزئة**

هذه الصور المشرقة التي جلاها لنا فريق من

الباحثين عن الدولة الفاطمية هي في الحقيقة نقاط من بحر الواقع الذي كانت عليه تلك الدولة ، وما بلغته في الميادين النضالية والفكرية والعلمية ، وسنحاول هنا عرض ما يسمح به مقال محدود السطور مقيد المكان .

كلمة الدكتور حسن ابراهيم حسن تشير اشاره خاطفة الى امور خطيرة في حياة هذه الدولة منها انها كانت ضرورة من ضرورات العالم الاسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقوا كلمتهم وتلاشت دولتهم واصبحوا يتطلعون الى الحمى الذي يمكن ان يلجأوا اليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى الروم واصرارهم على غزو الاسلام في دياره واسترداد ما اخذه منهم والثار لماضي البعيد حتى ان نقوص فوقيات لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف الى الحجاز نفسه والوصول الى مكة والمدينة .

في هذا ال Bharan الرهيب كان المنفذ منه نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد فكانت الدولة الفاطمية هي المنفذ فجمعت الشمال الافريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة في وحدة متماسكة جعلته دولة بعدما كان عدّة دول متباذنة متناحطة .

وليس الشمال الافريقي هينا حين تجتمع قواه وتتوحد كلمته وليس موارده قليلة حين يقدر لها قيادة حكمة حازمة .

## في مواجهة الاخطار

ونكذا رأينا تلك الدولة الفتية ترتفع من بين الزعازع،  
وتقوم شديدة لتواجه الخطر الداهم بعد ان اخذت اطراف  
البلاد الاسلامية تنتقص واحدة بعد الاخرى مما عبر عنه  
شاعر ذاك العصر ابن هاني الاندلسي عند قوله :

فمدينة من بعد اخرى تستبىء  
وطريقة من بعد اخرى تقتفي  
حتى لقد رجفت ديار ربعة  
وتزلزلت ارض العراق تخوفا  
والشام قد اودى واودى اهله  
الا قليلا والحزاز على شفا  
وقد كان نعيير هذا الشاعر تعبيرا واضحا يعطي  
الصورة الحقيقية للوضع الاسلامي في تلك الايام ، ويبين  
بجلاء حالة الدنيا العربية وما كانت فيه ، وهو من الشعر  
الواقعي النادر الذي يرسم الحقيقة الوطنية على اصدق  
حالاته . . .

الشام قد اودى الا قليلا ، والحزاز على شفا ، اما بقية  
الاقطار كديار ربعة والعراق وغيرها فاذا كانت بعيدة عن  
الخطر الان ، وهو غير مساور لها مباشرة فقد كانت راجفة  
متزللة حزنا على ما جرى وخوفا مما سيأتي ، وهذا  
لعمري من افضل ما يمكن ان يعبر عنه شعر الامم في  
مأساتها ونوازلها .

ثم ينطق الشاعر بلسان العالم الاسلامي معبرا  
عن الامل العظيم بالدولة الجديدة :

لا تيأسوا فالله منجز وعده  
قد آن للظلماء ان تكتشفا

### التصدي للعدو

ولتف قليلا لنرى ما هي حقيقة الحال الذي يصوره  
الشاعر :

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور استاذ التاريخ  
الاسلامي في جامعة القاهرة : « اتجهت سياسة الفاطميين  
بعد ان امتد نفوذهم الى مصر في عهد المعز لدين الله  
الفاطمي سنة ٩٥٨ هـ ( ١٩٦٩ م ) الى استعادة المدن  
التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام » .

وهكذا نرى ان الوحدة لم تقتصر على الشمال  
الافريقي وحده بل تعدت بلاد اخرى ، تعدته الى  
مصر نفسها ثم تعدت مصر الى فلسطين وسوريا ولبنان  
وكذلك الى الجزيرة العربية وحين يلتقي الشمال  
الافريقي في وحدة مع مصر والشام وغيرهما وحين تتولى مصر  
بكل امكانياتها وكفاءاتها زمام هذه الوحدة الكبرى يكون الامر  
بعثنا اسلاميا شاملا ووثوبا عربيا كاسحا ، وهكذا اصبحت  
الدولة الجديدة ذات كيان خطير قضى على الدوليات  
وجمع الشمل في اطار يشدتها شدانا لمواجهة الاحداث الرهيبة ،  
وكان في اولها حفظ بلاد الشام واسترداد ما تساقط منها في  
ايدي الروم الذين وصلوا في احدى نوباتهم في عهد الامبراطور  
حسا زيمسكيوس سنة ٩٧٥ الى حمص وبعلبك واضطررت  
دمشق نفسها الى التسلیم ودفع الجزية لهم ثم ساروا

فاستولوا على بعض مدن الساحل مثل صيدا وبيروت .  
 ( فالشام قد اودى الا قليلا ) كما قال الشاعر .

وظل الروم يتقدمون وظلت الاستعدادات الفاطمية  
 تتوالى لانقاذ الشام حتى اصطدمت بالروم في طرابلس  
 الشام برا وبحرا فاوقعت الهزيمة بهم فارتدى قواهم الى  
 انطاكية ..

### **الاسطول العظيم**

وقد كان للاسطول الفاطمي الشأن العظيم في دفع  
 عادية الروم والافرنج ولقد كان الفاطميون بعيدى النظر  
 حين ادركوا ان الجيوش البرية وحدها لا تكفى لحماية  
 العالم الاسلامي وانقاذ الوطن العربي فأنشأوا اسطولا  
 ضخما حمى البلاد من الهجمات البيزنطية ثم دافع  
 عنها بعد ذلك في الحروب الصليبية .

وفي هذا الاسطول يقول بعض المؤرخين : « بلغ عدد  
 ربابة اسطول الفاطميين خلال القرن الرابع المجري  
 ( العاشر الميلادي ) خمسة الاف ربان وعدد سفنه مائتي  
 سفينة واضطرر الافرنج الى الانحياز بمرابكهم الى الجانب  
 الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا ييرحونه لأن  
 هذا البحر يسيطر عليه الاسطول الفاطمي من مضيق  
 جبل طارق حتى بيروت » .

### **ظلم ذوي القربي**

ولقد كان من افعى ما عاناه الفاطميون ان غيرهم

كان يستعين عليهم بالاجنبي الفاتح فبينما كانوا  
يناضلون لحماية البلاد ورد الافرج والروم عنها كان حكام  
الاندلس يحرضون عليهم الروم ويستعينون عليهم بهم .  
وكان امير حلب يستنجد ببسيل الثاني امبراطور الروم سنة  
٣٨١ ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على  
نهر العاصي فتهزمهم ، وكذلك يثير عليهم ( علاقة ) ثورة  
في صور ثم تكون فاتحة اعماله الاستنجاد بالروم  
وبالامبراطور بسييل الثاني ، ولكن الحركة تنتهي  
بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علاقة .

**والامير حسان بن مفرج بن الجراح الطائي** صاحب  
الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستعديهم على  
اهمه هو الآخر .

بل ان فقيها من الفقهاء وحافظا من الحفاظ يبدو انه  
من الرملة نفسها هو الحافظ محمد بن احمد بن سهل الرملي (١)  
يقول : « لو كان معه عشرة اسهم لرميت الروم بسهم ورميت  
المغاربة (٢) بتسعة » وقد عمل اميره حسان بن مفرج بهذه  
الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى  
فالقى بسهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يلق  
ولا بسهم واحد على الروم بل اضاف سهامه الى سهامهم  
فسلطواها مجتمعة على ( افامية ) ففندوا منها مفاصيم  
كثيرة واستولوا على قلعتها واسروا كثيرا من اهلها .

١ - يسميه بعض المؤرخين باسم اخر .  
٢ - اي الفاطميين .

## الجبهة الفريبية

وقد كان الفاطميون مضطرين لأن يحاربوا على ثلاثة جبهات هي الجبهة الشرقية جهة بلاد الشام لدفع الروم عنها والجبهة الداخلية ليتقوا دسائس بنى جنسهم ، والجبهة الفريبية جهة أوروبا التي كانت قد استغلت ضعف القوى الإسلامية وتمزقها إلى دويلات فأخذت تهاجم البلاد بلداً بعد بلد فراحت هذه البلاد تستنجد بالفاطميين كمارأينا فيما فعلته جزيرة كريت .

وكانت أوروبا تحاول ضرب الدولة الجديدة قبل أن يستند ساعدتها ويعملو أمرها فهاجمتها في مواقعها الأوروبية لتنقضي عليها فيها ولكن الفاطميين صمدوا لأوروبا في بلادها كما صمدوا لها في بلاد الشام وغير بلاد الشام ويحدثنا ابن الأثير عن واحدة من المعارك الرهيبة التي خاضها الفاطميون في سبيل صون الوطن الإسلامي سنة ٢٥٤ وذلك قبل امتداد دولتهم إلى مصر ، ولما كانت هذه المعركة من أروع الصفحات في تاريخنا العسكري فأننا ننقل وصفها بنصه من ابن الأثير :

« ... ذلك أن أحمد بن الحسن والي المعز على صقلية أرسل يستمدءه فبعث إليه المعز المدد بالعساكر والأموال مع أبيه الحسن وجاء مدد الروم فنزلوا عبر سهل ( مسيني ) وزحفوا إلى رمطة ومقدم الجيش الفاطمي الحسن بن عمار وأبن أخي الحسن بن علي .

فاحاط الروم بهم وعظم الامر على المسلمين

فاستمатаوا وحملوا على الروم وعقرعوا فرس قائدتهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت ايديهم بالغنائم والاسرى ، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فل الروم من صقلية وجزيرة ( ريو ) في الاساطيل ناجين بانفسهم فاتبعهم الامير احمد واصحابه في الماء واحرقوا كثيرا من المراكب التي للروم ففرقوا وكثروا القتل في الروم فانهزموا لا يلوى احد على احد ) .

وكما كانت هذه الواقعة صفحة رائعة في تاريخنا الحربي ونضالنا في البر والبحر فكذلك كانت في تاريخنا الادبي حيث خلقها الشاعر محمد بن هاني الاندلسي بقصيدة فريدة يخاطب بها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تعد من اسمى ما في تراثنا الشعري من روائع الكفاح البطولي يقول ابن هاني في مطلعها :

### يوم عريض في الفخار طويـل

لا تنتهي غرر له وحجول

وكانـت لهذه المعركة نتائجها الحاسمة لـأعلى الجبهة الغـربـية وـحدـها بل حتى على الجبهـة الشرقيـة نفسها والـى ذلك يـشير الشـاعـر :

مسـحت شـغور الشـام اـدـمعـها بـه

ولـقـدـ تـبـلـ التـرـبـ وهـيـ هـمـولـ

وتـبـدوـ حـمـاسـةـ العـالـمـ الـاسـلـامـيـ لـنـتـائـجـ هـذـهـ المـعـرـكـةـ

وـاعـتزـازـ بـهـاـ وـاطـمـئـنـانـهـ بـعـدـهاـ مـصـورـاـ بـقـلـمـ الشـاعـرـ :

وجلا ظلام الدين والدنيا به  
 ملك لما قال الكرام فهو  
 متكشف عن عزمه علوية  
 للنفر منها رنة وعویل  
 فلو ان سفنا لم تحمل جيشه  
 حملت عزائمه صبا وقبول  
 يجلو البشیر ضياء بشر خليفة  
 ماء المدى في صفحاته يجول  
 لله عينا من رأى اخباته  
 لما اتاه بريدهما الاجفیل  
 وسجوده حتى التقى عفر الثرى  
 وجبينه والنظم والاكليل  
 لو ابصرتك الروم يومئذ درت  
 ان الايهما تشاء كفیل  
 ان التي رام ( الدمشق ) حربها  
 لله فيها مشارم مسلول  
 نامت ملوك في الحشايا وانثنت  
 كسلى وظرفک بالشهاد كحیل  
 تلهیك صلصلة العوالی کلما  
 الہت او لئک قینة وشمیل

### الفاطمیون والعلم

وفيما قاله الدكتور محمد كامل حسين يتضح لنا  
 الجانب الآخر من الصورة الفاطمية ، فإذا كان الفاطمیون

قد اقاموا الوحدة بعد التجزئة وانشأوا الجيش الضخم والاسطول الفخم فهموا بذلك العالم الاسلامي من اكبر كارثة كانت متاح بـه ، فلنهم الى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الاولى لحكمهم خطوة هي ان يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة ، وخططوا كما نقول اليوم لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على انشاء جامعة بـرئ ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده فلا يشغلهم شاغل العيش عن الانصراف الى العلم ولا يليهم الفقر عن التوسيع في البحث والدرس فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم ثم ارسلوا يستدعون العلماء من الخارج . وقد اشتـد هذا المنهج واتسـع وقوـي بعد اقـامة الوحدة بـضمـنـ الـبـلـادـ الـاـخـرـىـ الـىـ مـصـرـ وـاـنـشـاءـ القـاهـرـةـ وـاـقـامـةـ الـازـهـرـ وـقـدـ تمـ ذـلـكـ عـلـىـ الشـكـلـ الـاـتـىـ :

١ - خصصوا لكل مذهب من المذاهب الاسلامية في جامعتهم الكبرى الازهر كرسيـا لـتـدـرـيسـ ذـلـكـ المـذـهـبـ وـقـدـ كانـ عـدـدـ الطـلـابـ يـتـقـنـ معـ اـنـتـشـارـ ذـلـكـ المـذـهـبـ فيـ مـصـرـ وـالـبـلـادـ الـقـرـيبـةـ مـنـهـ ،ـ وـقـدـ عـرـفـنـاـ مـنـ عـدـدـ الـحـلـقـاتـ الـتـيـ كـانـ يـنـضـمـ يـاـ هـاـ الـطـلـابـ مـقـدـارـ اـنـتـشـارـ كـلـ مـذـهـبـ مـنـ تـلـكـ المـذاـهـبـ وـعـنـدـمـاـ يـكـونـ عـدـدـ حـلـقـاتـ الـمـالـكـيـ خـمـسـ عـشـرـ حـلـقـةـ وـمـثـلـهـاـ عـدـدـ حـلـقـاتـ الشـافـعـيـةـ ،ـ وـعـنـدـمـاـ تـكـونـ حـلـقـاتـ الـحنـفـيـةـ لـاـ تـتـجـاـوزـ الـثـلـاثـ ،ـ وـعـنـدـمـاـ نـفـقـدـ حـلـقـاتـ الـحـنـبـلـيـةـ فـمـعـنـىـ ذـلـكـ اـنـهـ كـانـ لـلـمـذـهـبـيـنـ الـمـالـكـيـ وـالـشـافـعـيـ الـاـغـلـيـةـ يـلـيـهـماـ بـفـارـقـ كـبـيرـ الـمـذـهـبـ الـحـنـفـيـ وـانـ الـمـذـهـبـ الـحـنـبـلـيـ لـمـ يـكـنـ لـهـ وـجـودـ .

وكذلك كان المذهب الجعفري حلقاته ولكننا لم نستطع معرفة العدد في اقوال المؤرخين .

٢ - كان العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي يعانون محن الفقر وكانت حياتهم مأساة مجعة فارسل الفاطميون يستدعونهم اليهم ويضمنون لهم العيش الكريم ، وكاملة لما كان يجري نورد اسماء محددة من كل عصر اذ ليس من المستطاع الالام باسماء الجميع . والذى يدعو الى الاعجاب بالفاطميين ان جميع العلماء الذين استدعوهم او وفدو اليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين .

نمن تلك الاسماء اسم عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة الذي وفدى الى مصر فاقام فيها اربعين سنة يلقى تلاميذ مذهبه . ومنها اسم القاضي ابو الفضل محمد البغدادي امام الشافعية الذي وفدى هو الاخر الى مصر واخذ يملئ من مذهبة ما شاء الله ان يملئ حتى مات سنة ٤٤١ .

وكذلك ابو الفتح سلطان بن ابراهيم الفلسطيني ( ٥١٨ ) وابو الحجاج يوسف المiroقي ( ٥٢٣ ) ومجلبي بن جمبع المخزومي ( ٥٥٠ ) والقاضي علي الموصلي الخلعي ( ٤٤٨ ) وابو محمد عبدالله السعدي ( ٥٦١ ) . وهؤلاء كانوا من ولی القضاء للفاطميين على انهم شافعيو المذهب . ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمان المعروف بابي بكر النعال الذي كانت اليه الرحلة في مصر ،

وكان حلقته في الازهر تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة  
الطلاب الذين كانوا يقصدونه .

وهناك قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي أحد  
الائمة المجتهدین في المذهب ، والذی وصفه الخطیب فی تاریخ  
بغداد بأنه لم ير في المالکیة افقه منه لقد ضاقت به دنیا العرب  
والاسلام فکاد یموت من الجوع فی بغداد فلم یجد الا مصر  
الفاطمیة یحتمی بها فلما جاءها تدفق علیه المال وامروه  
بالانصراف الى علمه وبحثه ولكن الامر لم یطل فاصب بالفالج  
فقال : « لا اله الا الله ، عندما عشنا متنا ، (٤٢٢ ) وعبد  
الجلیل مخلوف الصقلي (٥٤٩) وابو بکر الطرطوشی (٥٢٥)  
وغيرهم .

وقد حرصنا على ان نختار واحداً من كل فترة تاریخیة  
لتبين ان الامر قد استمر ولم ینقطع .

ومن اشهر العلماء الذين لجأوا الى مصر في عهد الحاکم  
بامر الله ابو الفضل جعفر وكان مکفوفاً فاعجب به الحاکم  
وخلع علیه ولقبه عالم العلماء .

على انتنا ونحن نشير الى بعض العلماء الذين  
احتضنهم مصر الفاطمية فان اشهر واحد منهم هو ابن الهیشم  
الذی استدعاہ الحاکم بامر الله وخرج لاستقباله بنفسه .

وكان الحاکم یأمر باحضار جماعة من المتخصصین في  
كل علم بعضهم من اهل الحساب والمنطق ، والفقھاء  
والاطباء للمذاکرة بین يديه ، فكانت تحضر كل طائفة على  
انفراد ثم يخلع الحاکم على الجميع ويصلهم

ومن ابلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابن أبي اصيبيعه : « انه لما وصل المذهب — وكان فاضلا في صناعة الطب — إلى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفایته وسمع بالديار المصرية وانعمام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما ارباب العلم والفضل متوجه إلى مصر فوهبت له الاموال واقام فيها مكرما ».

### المكتبات

لقد تفرد الفاطميون بإنشاء دور الكتب الكبرى في الاسلام وبلغت تلك الدور حدا عجيا واجتمع فيها ما يشير اليوم دهشتنا . ويكفي ان مكتبة القصر مثلا كانت تضم ستمائة الف والف وكتاب ( ٦٠٠٠ ) ولتسهيل المطالعة على المراجعين كانوا يقتنون من امهات الكتب الكبرى التي تكثر حاجة الناس إليها كانوا يقتنون منها عشرات النسخ ، فقد كان يوجد من تاريخ الطبرى وحده الف ومائتا نسخة منها نسخة بخط ابن جرير نفسه ومن كتاب العين نيفا وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل إلى غير ذلك من هذا وأشباهه .

وقد توسع الحاكم بأمر الله بشأن دور الكتب العامة وحرص على تسهيل وصول جميع طبقات الشعب إليها ، فقد قال المسبحي وهو يتحدث عن مكتبات القصر ان بعضها كان في خزائن القصر ( البرانية ) ، ويرى الدكتور محمد كامل حسين ان هذه الخزائن ( البرانية ) هي التي

انشأها الحاكم سنة ٤٩٥ وسمّاها دار العلم وحمل  
اليها من خزائن القصر من مسائر العلوم والاداب ما لم  
ير مثله قط مجتمعاً واحداً من الملوك وقد اباح ذلك كلّه لسائر  
الناس على طبقاتهم .

### الشرف خاتمة

ادرك الدولة الفاطمية ما يدرك غيرها من الدول في  
 ايامها الأخيرة فشاخت وضفت واستنفدت معظم قواها  
 في مقارعة الصليبيين براً وبحراً وفي اخماد الفتن .

وفي العام ٥٦٤ بدا ان تهديداً صليبياً ربما وصل الى  
 مصر نفسها وذلك في عهد الخليفة اليهودي آخر الخلفاء .  
 وقد ايقن العلّاض ان لا قيل له بمقاومة الصليبيين وان  
 جيوشهم في وضع قد لا تستطيع معه المسمود في وجه الزحف  
 الفرنجي ، فلم يتردد لحظة واحدة في ان يضع خلافته  
 وملكته وكل بلاده في ايدي غير فاطمية يعرف مطاعها به ويدرك  
 ما تضمره لما يعتقد ويرتّاي ولم يتوان عن ان يسلّمها كل  
 شيء ما دامت تستطيع المعاونة على دفع الصليبيين  
 عن مصر واقدم على تضحية ليس لها شبيه ولا نظير .

لقد ارسل يسّيد عصي نور الدين محمود ، وهو يعلم  
 ما فعل نور الدين في حلب وغير حلب ، ارسيل يسّيد عصي  
 ليحتل بلاده بعون شاء من قواده وقص شعور نسائه  
 وارسلها مع كتب الاستنجاد قائلاً لنور الدين : « هذه شعور  
 نسائي من قصري يستغثّن بك لتنقذهن من الفرنج » .  
 وكانت خاتمة الدولة الفاطمية وهي اشرف  
 خاتمة تصيّنها دولة من الدول لنفسها بيديها .

## أبن هاني الاندلسي

اذا كان المدح قد فرض على الشعر العربي فأصبح الشاعر ولا حيلة له الا صوغ المدائح ليستطيع العيش فقد كانت حظوظ الشعراء في هذا السبيل مختلفة ، مختلفة لان شاعرا قد يوفق لمدح لا يخجله لبطولة فيه او سجايا حميدة ، ومما لا يبدو معه الشاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضحة الاستجداء ..

كما قد لا يوفق شاعر آخر لمثل هذا المدح ، وقد يكون في مجتمعه اولى بالذم والتجريح منه بالثناء والمديح . ومع ذلك فالشاعر مسوق الى مدحه مدفوع الى الاشادة به لان الرزق في يديه ، والمال رهن كلمته .

### سيف الدولة وكافور وعهد الدولة

على ان حظ الشاعر الواحد قد يختلف بين مدح وآخر ، فحظ المتنبي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عند كافور . واما كانت قصائد المتنبي في سيف الدولة هي في اصلها مدحا ، فأنها ايضا اعجاب ببطولة البطل العربي الصامد في وجه الغزو الاجنبي ، المكافح عن الحمى الوطني . والمعارك التي شهدتها المتنبي مع سيف الدولة جديرة بأن توحى اليه بمثل ما اوحت حتى

ولو لم يكن المتبني يقصد المدح او لو لم يكن الكسب من غaiاتـه .

والامر مع المتبني يجري على هذا القياس حتى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلك العصر مثلاً كان يزري مدح كافور . فالمتبني وهو يمدح عضـd الدولة كان في موقفـغير موقفـهـوـهوـيـمدـحـسيـفـالـدوـلـةـ وـاـذـكـانـ عـضـdـ الدـوـلـةـ مـنـ الـلـوـكـ الـذـيـنـ لـاـ مـغـمـزـ فـيـهـ ،ـ وـلـهـ مـنـ الـمـآـتـيـ ماـ يـصـحـ مـعـهـ انـ يـكـونـ مـمـدـحـاـ .ـ فـهـ عـلـىـ كـلـ حـالـ لـيـسـ فـيـ وـضـعـ يـشـبـهـ وـضـعـ سـيـفـ الدـوـلـةـ وـهـوـ لـمـ يـكـنـ الـجـنـديـ الـمـقـاتـلـ لـلـعـدـوـ الـخـارـجـيـ ،ـ وـلـاـ وـضـعـتـهـ الـاحـدـاثـ فـيـ لـهـوـاتـ الـحـرـبـ الـوـطـنـيـ فـمـاـ يـمـكـنـ اـنـ يـوـحـيـ بـهـ لـشـاعـرـ كـالـمـتـبـنـيـ يـسـتـطـيـعـ ايـ اـمـيـرـ اـنـ يـوـحـيـ بـمـثـلـهـ .ـ وـمـنـ هـنـاـ تـرـاجـعـ قـصـائـدـ المـتـبـنـيـ فـيـ مـدـحـ عـضـdـ الدـوـلـةـ عـنـ قـصـائـدـهـ فـيـ مـدـحـ سـيـفـ الدـوـلـةـ وـقـدـ كـانـ هـذـاـ التـرـاجـعـ وـاـضـحـاـ لـكـلـ ذـيـ حـسـ شـعـرـيـ ،ـ وـاعـتـرـفـ بـهـ المـتـبـنـيـ نـفـسـهـ .ـ

والواقع ان ما كان يهزـ المـتـبـنـيـ وـهـوـ يـشـهـدـ مـعـرـكـةـ الحـدـثـ مـثـلـاـ مـعـ سـيـفـ الدـوـلـةـ فـيـنـطـقـهـ بـهـذـاـ القـوـلـ :

هلـ الحـدـثـ الـحـمـرـاءـ تـعـرـفـ لـوـنـهـ  
وـتـعـرـفـ ايـ السـاقـيـيـنـ الـفـمـائـمـ  
سـقـتـهـاـ الـفـمـامـ الـغـرـ قـبـلـ نـزـولـهـ  
فـلـمـ اـنـمـاـنـهاـ سـقـتـهـاـ الـجـمـاجـ  
بـنـاهـاـ فـأـعـلـىـ وـالـقـنـاـ يـقـرـعـ الـقـنـاـ  
وـجـيـشـ الـمـنـايـاـ حـولـهـ مـتـلـاطـمـ

وقت وما في الموت شك لواطف  
 كأنك في جهن الردى وهو نائم  
 تمر بك الابطال كلهم هزيمة  
 ووجهك وضاح وثفرك باسم  
 ومن طلب الفتح الجليل فائما  
 مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتز له المتبني ،  
 وبالعكس من ذلك ، عندما مسست قلب المتبني عاطفة  
 جياشة فرأى جمال الطبيعة في شعب بوان ، ثم لم يسمع  
 في تلك المفاني لسانه العربي ، عاد متاثرا لما يرى ويسمع ،  
 ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبدع ما أبدع .

### متبني المقرب

ومن الشعراء الذين وفقوا لمدحه جدير ب مدحهم  
 الشاعر محمد بن هاني الاندلسي شاعر المعز لدين  
 الله الفاطمي الذي اطلق عليه معاصره لقب ( متبني  
 المغرب ) .

وربما كان ما يجعل ابن هاني جديرا بهذا اللقب  
 هو ان مواضيع مدح ابن هاني للمعز ، هي عين  
 مواضيع مدح المتبني لسيف الدولة . فقد كانت ظروف  
 كلا المدوحين متشابهة ، وكان كلاهما مندفعا لمقاومة الخطير  
 الخارجي المهدد للبلاد الاسلامية يومذاك بل ان مسؤولية  
 المعز كانت اكبر ، فهو مسؤول عن جبهة طويلة ممتدة على  
 مدى شواطئ افريقيا الشمالية كلها ، ثم هو مسؤول عن

الجزر الاسلامية المهددة وفي طليعتها جزيرة صقلية .  
ولم يكن الوضع الاسلامي والوضع العربي  
يومذاك مما يقوى العزائم ويشحذ الهم ، بل كان شمال  
العرب والمسلمين ممزقا واحتلماهاتهم مشتدة ، لا الهدف  
يجمعهم ولا الخطر يوحدهم .

وكان الاجنبي الطامع يعرف ذلك كلـه ، وكانت نار  
الانتقام متـاجـحة في نفوس البيزنطيـين ( الروم ) الذين لم ينسـهم  
تطـاول الايـام ذـكريـات هـزـائـمـهمـ المـاضـيـةـ ، وجـلـاثـهـمـ عنـ بلـادـ الشـامـ  
وـغـيرـهـاـ ، وـكـانـواـ يـحـنـونـ لـلـعـودـةـ اليـهاـ منـ جـدـيدـ . بلـ انـ نـقـفورـ  
فـوقـاسـ الثـانـيـ كـانـ يـهـدـدـ بـالـاستـيـلاءـ حـتـىـ عـلـىـ المـدـيـنـةـ  
وـمـكـةـ وـاسـتـطـاعـ تـحـقـيقـ الـكـثـيرـ مـنـ اـمـانـيـهـ وـفيـ ذـكـرـ يـقـولـ ابنـ  
هـانـيـ :

اسـفـيـ عـلـىـ الـاحـرارـ قـلـ حـفـاظـهـمـ  
لوـ كـانـ يـجـديـ الحـرـ انـ يـتأـسـفـاـ  
يـاـ وـيـلـكـمـ اـكـمـ مـنـ صـارـخـ  
اـلـاـ بـشـفـرـ ضـاءـ اوـ دـيـنـ عـفـاـ  
حـتـىـ لـقـدـ رـجـفـتـ دـيـارـ رـبـعـةـ  
وـتـرـزـلتـ اـرـضـ الـعـرـاقـ تـخـوـفـاـ  
فـمـدـيـنـةـ مـنـ بـعـدـ اـخـرـىـ تـسـبـىـ  
وـطـرـيـقـةـ مـنـ بـعـدـ اـخـرـىـ تـقـتـفـىـ  
وـالـشـامـ قـدـ اوـدـىـ وـاـدـىـ اـهـلـهـ  
اـلـاـ قـلـيلـاـ وـالـحـجـازـ عـلـىـ شـفـاـ  
وـطـنـيـ مـنـاضـلـ

هذه صرخة وطنـيـ منـاضـلـ يـرـىـ بـلـادـهـ تـتسـاقـطـ

أمام ضربات الاعداء ، ويرى قومه متخاذلين ، هذه صرخة وطنية مناضل اكثراً منها نفمة شاعر مداح .

والواقع ان المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد امل العرب وال المسلمين وكانوا يتطلعون اليه من كل مكان ، حتى من الارض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه . فعندما شعرت مثلاً جزيرة (كريت) بالخطر الداهم ، ولاحظ لها طلائع الغزو مطلة من بعيد كان همها ان توصل نداءها الى الرجل المؤمن ، ويحدثنا الدكتور حسن ابراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب (المجالس والمسائرات) للنعمان فيقول : « وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاتлас عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ، وصور ما حل بالروم وخلفائهم امام اساطيل المعز تصويراً رائعاً ، وذكر الرسائل التي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهانته . ولأول مرة نسمع ان مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذي كانوا تحت الحكم العباسى يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين اهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ » .

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك ان ممدوحه اهل لما علق عليه من آمال فيقول :

لا تيأسوا فالله منجز وعده  
قد آن للظلماء أن تكتشفا

### الاسطول العربي

لقد كان المعز جديرا بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الايام ، فلم يدع الوقت يذهب عبثا وادرك للوهلة الاولى انه امام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الاشد . لذلك صرف جهده اول ما صرفة الى انشاء اسطول ضخم يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطئ الافريقية الشمالية من اي غزو متوقع ، وبذل لهذا الاسطول اقصى ما يستطيع بذلك حتى اصبح اسطوله سيد البحر المتوسط ، وحتى صار مهددا للاعداء بعد ان كان الاعداء مهددين ، وحتى صاروا يخشونه بعد ان كانت البلاد تخشام .

وقد كان هذا الاسطول اعظم ما يمكن ان يصل اليه اسطول في ذلك العصر مجهزا بأحدث الالات الحربية والادوات النارية . دأثار هذا الاسطول حماسة الشاعر ورأى فيه المخرج من الاخطار والحماية من النوازل ، وهاج فيه اعتزازه وحميته ، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد الشعر العربي :

لـك البر والـبحر العـظيم عـبابـه  
فسـيـان اـغـمـار تـخـاضـ وـبـيـدـ  
ومـارـاعـ مـلـكـ الرـومـ الاـاطـلـاعـهـاـ  
قـشـرـ اـعـلامـ لـهـاـ وـبـنـودـ

عليها غمام مكهر صبره  
لله بارقات جمة ورعد  
مواخر في طامي العباب كأنه  
لمزملك بأس او لفك جود  
انافت بها اعلامها وسمالها  
بناء على غير العراء مشيد

من الراسيات الشم لولا انتقالها  
فمنها قنان شمخ وريسود  
من الطير الا انهن جوارح  
فليس لها الا النقوس مصييد  
من القادحات النار تضرم للصلى  
فليس لها يوم اللقاء خمود

اذا زفت غبطا ترامت بمارج  
كما شب من نار الجحيم وقد  
فانفاسهن الحاميات مواعق  
وافواههن الزافرات حديد  
لها شعل فوق الغمار كأنها  
دماء تلقتها ملاحف سود  
تعانق موج البحر حتى كأنه  
سلیط لها فيه الذیال عتید

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصالح  
مخاطباً المعز مشيراً إلى ما كان من تغلغل الروم قبل  
ذلك في بلاد الشام :

فلا غرو ان اهتزت دين محمد  
 فانـتـ لـهـ دونـ الانـامـ عـقـيدـ  
 غضـبـتـ لـهـ انـ ثـلـ فيـ الشـامـ عـرـشـهـ  
 وـعـادـكـ منـ ذـكـرـ الـعـوـاصـمـ عـيـدـ  
 وـقـلـتـ اـنـاسـ ذـاـ (ـالـدـمـسـتـقـ)ـ شـكـرهـ  
 اـذـاـ جـاءـهـ بـالـعـفـوـ مـنـكـ بـرـيدـ  
 تـنـاجـيـكـ عـنـهـ الكـتبـ وـهـيـ ضـرـاعـةـ  
 وـيـأـتـيـكـ عـنـهـ القـولـ وـهـوـ سـجـودـ  
 اـذـاـ انـكـرـتـ فـيـهاـ التـرـاجـمـ لـفـظـهـ  
 فـادـعـهـ بـيـنـ السـطـورـ شـهـودـ  
 ليـالـيـ تـقـنـوـ الرـسـلـ رـسـلـ خـواـضـعـ  
 وـيـأـتـيـكـ مـنـ بـعـدـ الـوـفـوـدـ وـفـوـدـ

### انتصارات

ويمضي الاسطول العربي في اداء رسالته ، وتجوب  
 قطعه البحر المتوسط متهدية كل من تحدهه نفسه بالشر ،  
 وتعلن سفنـهـ بـنـفـسـهـ عـنـ نـفـسـهـ ، ثم تلتقي على غير  
 موعد بـسـفـنـ الـاعدـاءـ فـلاـ تـلـبـثـ انـ تـصـطـدـمـ بـهـاـ ، ويـتهاـوىـ  
 الـفـريـقـانـ فـيـ نـارـ الـوـغـىـ وـيـتـجـالـدـونـ اـعـنـفـ جـلـادـ ، تحـفـزـ الـرـومـ  
 ثـارـاتـ مـتـأـصلـةـ وـاـوـتـارـ دـفـيـنـةـ .. وـتـحـفـزـ الـعـربـ اـخـطـارـ منـتـظـرـةـ  
 وـشـرـورـ مـرـتـقبـةـ وـيـتـطـلـعـ الـعـربـ بـقـلـوبـهـمـ إـلـىـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ  
 الـمـعـزـيـزـ وـيـتـخـيلـونـ مـاـذـاـ سـيـحـلـ بـتـلـكـ الـأـرـضـ الـطـيـبـةـ ، اـذـاـ هـمـ  
 تـرـحـزـحـواـ عـنـ مـوـقـفـهـمـ اوـ تـزـلـزـلـواـ فـيـ حـرـبـهـمـ فـيـنـدـفـعـونـ مـكـبـرـيـنـ  
 وـيـنـطـلـقـونـ مـهـلـلـيـنـ فـتـنـجـلـيـ الـمـعـرـكـةـ عـنـ نـصـرـهـمـ الـبـحـرـيـ

الحاسم في معركة المجاز . ويكون الشاعر معهم بكل  
شعوره وكل جوارحه ، متلهفاً لمعرفة الخبر الآخر ولما يبلغ  
اذنيه نبأ النوز ينطلق مزهواً متفانياً بالبطولات :

يوم عريض بالفخار طويسل  
لا تنقضي غرر له وحجول  
مسحت ثفور الشلم ادمعها به  
ولقد تبل التراب وهي همول  
قل الدمستق مورد الجميع الذي  
ما اصدرته له قنا ونبعول  
سل رهط (منويل) وانت غرتنه  
في اي معركة شوى منويسيل  
منع الجنود من التغول رواجعا  
تباله بالمنديات قفول  
وبعثت بالانسطول يحمل عدة  
مائثابنا بالعمدة الانسطول  
ادى اليها ما جمعت موفرها  
ثم انتهى باليهم وهو جفون  
ومضى يخف على الجنائب حمله  
ولقد يرى بالجيش وهو ثقيسل  
لم يتركوا فيها بجماع الردى  
الا النجيع على النجيع يسيسل  
نحرت بها العرب الاعاجم انها  
رميم امق ولهمدم ممقول

ثم ينشي الى مدبر ذلك كله وقائد النصر ومعه  
الا... طول ومهيء الجيش ، الى المعز :  
لا تعدمنك امة افنيتها

وهديتها تجلو العمى وتنيل  
وتتكرر معارك الاسطول العربي وتتكرر انتصاراته  
نيرحص الشاعر على الاشادة بالاسطول :  
وسفن اذا ما خاضت اليم زاخرا

جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب  
تشب لها حمراء قان اوارها  
سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

وتلتقي جيوش الروم واساطيلهم بجيوش الفاطميين  
البرية واساطيلهم اكثر من مرة وتقع المعرك البرية والبحرية  
في اوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمى بانتصاراتهم  
ديار الاسلام والعروبة فيقول ابن هانسي مشيرا الى ان الروم  
كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط ، تجول فيه اساطيلهم  
وتتصول بلا رقيب ولا منافس ، والى ان جيوشهم البرية كانت  
كذلك :

لو كان للروم علم بالذى لقيت  
ما هنئت ام بطريق بمولود  
القى « الدمستق » بالاعلام حين رأى  
ما انزل الله من نصر وتأييد  
نقل له حال من دون الخليج قنا  
سمسر واذرع ابطال مناجيد  
ثم يخاطب المعز :

ذموا فناك وقد ثارت استنها  
فما تركن وريدا غير مورود  
حmittah al-bar wal-bahr al-fusaa' maa  
fma yimr baba' gher m-saddud  
qad kānat ar-rūm m-hidwara k-tābiha  
tadni al-blaad 'alī shāhṭ w-tibyād  
w-shāgibū al-yam al-fī hujja k-malā  
w-hum fawāris qariyātah al-s-sawd  
faliyūm qd tħemist fiye m-salakhem  
m-niñ kallal-hab neħej fal-k Mqaddus  
hiyehat raeħhem fi kll Muntarik  
mlak al-malook w-sandid al-ħanadid

## من الاندلس الى افريقية

ابن هانى اشبيلي المولد اندلسي النشأة فقد ولد سنة ٣٢٦ او ٢٢٦ في قرية سكون من قرى مدينة اشبيلية وكان صديقاً لوالى اشبيلية مقرباً اليه . وكان الحكماء في الاندلس لا يحبون الدولة الجديدة التي أخذت تشعب ويقوى ساعدها في افريقيا فأخذوا يعملون على زعزعتها . ولم يتورعوا عن التحالف مع الاجنبي للقضاء عليها(١) . وكان هوى ابن هانى مع الفاطميين وقلبه متوجهها

١ - يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن عن كتاب الموسالمس والمسايرات المخطوطة : ( ... فاووضع اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صرائعه مع الغاطفين ... )

اليهم ؟ وكان كفирه يرى في شباب دولتهم ما يمكن ان يعيده الشباب الى الوطن العربي . وبيدو انه كان لا يتورع عن الجهر بآرائه والدعوة اليها ، مما لم يكن يخفى على الحكمين ، فدبروا له تهمة الاخذ بالغسلة ، وهي تهمة كانت هناك في ذلك الوقت كافية لاستحلال الدماء . وبيدو ان صديقه الوالى الاشبيلي قد احس بما يدبر للشاعر في الخفاء فنصحه بترك الشبليفة فأخذ الشاعر بالنصيحة واتجه الى التعدوة الافريقية حيث اتصل في المسيلة بجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية والى المسيلة(٢) فلم يجد جعفر هدية يقدمها لخليفته اثنين من هذا الشاعر ، فاوفده اليه . وكان المزع في امس الحاجة لمثل ابن هانى ليكون لسانه الناطق في تطور دولته

وتقدمها ، ولن يكون وسيلته الاعلامية ، واذاعتة القوية ، فاحتفى به وقربه اليه وظل ابن هانى يسجل انتصارات المعز ويعدد وقائمه الى ان خطأ المعز خطوطه الحاسمة فارسل قائد جوهرا لضم مصر الى خلافته ودخل جوهر الاسكندرية متقدما الى العاصمه فاذاع ابن هانى النبأ بهذا الشكل :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟  
 نقل لبني العباس قد قضى الامر  
 وقد جاوز الاسكندرية جوهر  
 تسير به البشرى ويقدمه النصر

### نهاية الشاعر

ويتهيا المعز للذهبى السى مصر وانشاء عاصمته الجديدة (القاهرة) ثم يمضي اليها على ان يلحظه شاعره ليكون هنلاك كما كان هنا المذيع البليغ . وكان حكام الاندلس متابعيين لخطر الشاعر عاليين بما فعله شعره للدولة المقدمة وما يمكن ان يفعله بعد ان تطورت من حال الى حال . ورأوا في قلمه خطرا لا يقل مضاء عن السيف فقرروا حرمان الدولة الحديثة منه فأرسلوا اليه من اغتاله وهو في الطريق الى مصر عند برققة سنة ٣٦٢ وهكذا انتهى هذا الشاعر الفريد نهاية اليهـة غير متجاوز مراحل الشباب . ولا شك انه لو قدر له الوصول الى مصر لترك في احداثها وحياتها وطبيعتها الشيء الكثير الثمين .

## حمزة بن عبد المطلب

### عم النبي ورضي عنه

حمزة بن عبد المطلب من الابطال الذين اعتز الاسلام بهم ، ولو قدرت له الحياة المديدة لكان له من الشان ما يبلغ به ارفع منزلة في الكفاح الاسلامي الطويل ، ولكن شاء الله ان يقضى في مطلع الدعوة الاسلامية بعد ان ابلى في نصرتها ما لم يبل مثله انسان اخر .

### رضي عن النبي

وقد كان قريبا من النبي حبيبا اليه ، كما كان هو متقانيا في الاخلاص لحمد (ص) تفانيا قل مثيله . وقد نشأ هو والنبي معا في سن واحدة و متقاربة و اختلف في تحديد الفارق في السن بينهما ، فقيل انه اسن من النبي (ص) بستين و قيل باربع سنتين و قيل انهم في سن واحدة . على ان الثابت ان ثوبية مولاه ابى لهب ارضعتهما بلبن ابنتها مسروح ، فكانا اخويين من الرضاعة . واستدل بعضهم بذلك على تساويهما في السن ، ولكن اخرين ردوا على هذا بان هذه الاخوة الرضاعية لا تؤدي حتما الى هذا الاستنتاج . فقال احدهم انه يمكن ان يكون اخاه من الرضاعة بلبن مسروح بن ثوبية ويكون مع ذلك

اكبر منه . ولكن حتى الذين قالوا بذلك اختلفوا في تحديد الفارق ، اهو اربع سنين ، ام سنتان . فقال الاخرون لا يصح ان يكون الفارق اربع سنين اذ ما دام ثابتنا ان الرضاعة كانت قبل مسروح فلا بد ان يكون الفارق سنتين ، لانه لا رضاع الا في حوليـن(١) . ولكن المخالفين لذلك ردوا بانه يمكن ان يكون ارضاعها حمزة في اخر سنته في اول ارضاعها لابنها . وارضاعها للنبي (ص) في اول سنته في آخر ارضاعها ابنتها فتكون اكبر من النبي باربع سنين(٢) .  
وكان بينه وبين النبي (ص) قریبـ اخـى ، فـأـمـ حـمـزـةـ هـيـ هـالـةـ بـنـ اـهـيـبـ بـنـ عـبـدـ مـنـافـ بـنـ زـهـرـةـ . وـامـ النـبـيـ (صـ)ـ هـيـ اـمـنـةـ بـنـ وـهـبـ بـنـ عـبـدـ مـنـافـ فـهـمـاـ اـبـنـتـاـ عـمـ .

### اخـوـتـهـ

وكان حمزة واحدا من ثلاثة عشر ولدا لعبد المطلب . على ان بعضهم يقول انهم كانوا عشرة ، وبعض قال احد عشر . وايا كان عددهم ، فقد ادرك الاسلام منهم اربعة شذ واحد منهم عن الطريق السوي فلم يسلم ، بل قاوم الاسلام ما وسعته المقاومة ، ذاك هو ابو لهب . واستقام ثلاثة على الطريق فاسلموا ، وهم : ابو طالب والحمزة والعباس . وكان لكل واحد منهم موقفه في الدفاع عن النبي ونصرته ، فحماء ابو طالب الحامية المنيعة ولم ينزل النبي اذى

- 
- ١ - ابن عبد البر في الاستيعاب .
  - ٢ - اهـيـانـ الشـيـعـةـ .

الا بعد موته ، وناضل دونه الحمزة اي نضال ، وعضده العباس في بيعة العقبة وكان عينه في مكة .

## اسلامه

كان اسلام حمزه في السنة الثانية منبعث(١) وقيل بل كان ذلك بعد دخول النبي (ص) دار الارقم في السنة السادسة . وكان اسلامه فتحا عظيما اذ قوي به المسلمين وتبashروا بذلك اي تبasher لما كان يتمتع به حمزه من يسالة وحمية وادام ورأي واحلاص . ومما وصف به انه كان « اعز فتى في قريش وآشد شكيمة » .

اما السبب المباشر في اسلامه فذلك ان ابا جهل مر بالنبي (ص) عند الصفا فاذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدینه والتضعيف لامرہ ، فلم يكلمه النبي (ص) ثم انصرف ابو جهل الى ناد من قريش عند الكعبة فجلبس معهم . وكانت مولاۃ لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع وتترى ما فعل ابو جهل ، فلم تطق صبرا ، ولم تستطع ان تقف في وجه ابی جهل . فلم يلبث حمزه ان اقبل من قبض له متواشا قوسه . وكان من عادته اذا عاد من القنص ان يقصد الكعبة فيطوف بها ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من اندية قريش الا وقف وسلم وتحدى معهم . فلما مر بالмолاة — وكان النبي قد رجع الى بيته — قالت المولاۃ : يا ابا عمارة لو رأيت ما لقى ابن اخيك محمد

انما من ابى الحكم بن هشام . وجده ها هنا جالسا فاذاء وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .  
**مُفْضِبْ حَمْزَة** ومضى مسرعا يسعى دون ان يتف على احد ، حتى اذا لقي ابا جهل اقبل نحوه حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه فشجه شجة متكرة ، ثم قال : اتشتمه ؟ فأننا على دينه ، اقول ما يقول ، فرد ذلك علي ان استطعت .

فقام رجل من بني مخزوم الى حمزة لينصروه ابا جهل فقال ابو جهل : دعوا ابا عمارة فاني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

هكذا اعلن حمزة اسلامه ، ويقول ابن اسحاق : (فلما اسلم حمزة عرفت قريش ان رسول الله (ص) قد عز وامتنع وان حمزة سيمنعه فكروا عن بعض ما كانوا ينالون منه ) .

### **شعره عند اسلامه**

ان لحمزة بعض الشعر في بعض الاحاديث . ومما رواه صاحب الدرجات الرفيعة ان حمزة قال حين اسلم من ابيات :

حمدت الله حين هدى مؤادي  
 الى الاسلام والدين الحنيف  
 اذا تليت رسائله علينا  
 تحدر دمع ذي اللب الحصيف  
 فلا والله نسلمه لقوم  
 ولا نقض منهم بالسيوف

## اول قائد

ومنذ الساعة التي اسلم فيها حمزة وقف نفسه على خدمة الاسلام والدفاع عن كيانه بكل قوته واصبح حسنا حصينا للمسلمين يلوذون به عند الشدائـد . وحين اذن النبي (ص) بالهجرة هاجر حمزة فيمـن هاجر من المسلمين ، ولما استقر المقام بـمحمد (ص) في المدينة وبـدا النظام الاسلامي يتكامل وتـجتمع قواهـ كان من الطبيعي ان تكون لـحمزة المكانة الرفيعة فـلم تمـض بـضـعة اشهر على النـزول في يـثرب حتـى اـصـبـحـ حـمـزـةـ القـائـدـ الـاـولـ فيـ الاسلامـ ، فـقدـ عـقـدـ لـهـ النـبـيـ لـوـاءـ اـبـيـضـ وـاسـلـمـ اـلـيـهـ اـمـرـ سـرـيـةـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ لـيـتـقـدـمـ بـهـمـ اـلـىـ «ـ سـيفـ »ـ الـبـحـرـ عـلـىـ طـرـيقـ الـقـوـاـفـ الـقـرـشـيـةـ فـكـانـ هـذـاـ اللـوـاءـ اـوـلـ لـوـاءـ عـقـدـ فـيـ اـلـاسـلـامـ وـهـذـهـ سـرـيـةـ اـوـلـ سـرـيـةـ وـهـذـهـ القـائـدـ اـوـلـ قـائـدـ .

## في بدر

وفي بـدرـ حـيـنـ بـرـزـ عـتـبةـ بـنـ رـبـيـعـةـ وـابـنـهـ الـولـيدـ وـاخـوهـ شـيـبةـ وـدـعـواـ إـلـىـ الـبـرـازـ ، خـرـجـ الـيـهـمـ ثـلـاثـةـ فـتـيـانـ مـنـ الـانـصـارـ هـمـ مـعـاذـ وـمـعـوذـ وـعـوـفـ بـنـ الـحـارـثـ ، فـرـفـضـ الـقـرـشـيـونـ مـبـارـزـتـهـمـ وـقـالـوـاـ اـرـجـعـواـ فـمـاـ لـنـاـ بـكـمـ مـنـ حـاجـةـ ، ثـمـ نـادـيـ مـنـادـيـهـمـ : يـاـ مـحـمـدـ اـخـرـجـ الـيـنـاـ اـكـفـاعـنـاـ مـنـ قـوـمـنـاـ . فـقـالـ النـبـيـ (صـ) لـعـبـيـدةـ بـنـ الـحـارـثـ بـنـ الـمـطـلـبـ وـحـمـزـةـ بـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ وـعـلـيـ بـنـ اـبـيـ طـالـبـ : قـومـاـ فـقـاتـلـوـاـ بـحـقـكـمـ اـذـ

جاءوا بياطتهم ، فمشى هؤلاء الثلاثة الى العدو متمثلة بهم عظمة الاسلام ونخوته وبسالته ، فلما صاروا ازاء الترشيين قال عتبة: تكلموا نعرفكم ، فان كتم اكتمان قاتلناكم . فقال حمزة : انا حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله . فقال عتبة كفؤ كريم ، وانا اسد الاحلاف ، ومن هذان معك ؟ قال : علي بن ابي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب . قال: كفوان كريمان .

### **اللحظة التاريخية الحاسمة**

كانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة في تاريخ الاسلام ، فها هي قريش عدوة الاسلام بعدها وعديدها ، وها هو الاسلام بما تجمع لديه من قوة . ها هما يقنان لاول مرة وجها لوجه . وهما اκفاء ثلاثة في قريش الجباره يتقدمن الصفوف متهددين الدعوه الاسلاميه وقوتها العسكريه .. فما هو المصير ؟ انتصر قريش ففتت في عضد المسلمين وتزلزل معنيياتهم فلا يقونون على الصمود ؟ ام ينتصر المؤمنون فيونهون عزائم قريش ويكسرون جبروتها فتولى الدبر ؟

ستة رجال في صفين مختلفين ، عليهم يتوقف مجرى التاريخ ، وتطلع الكون كله الى تلك اللحظة الرائعة ، فاما ضربات ثلاث من ها هنا من هذا الصف المؤمن تحط على هذه الرؤوس الشامخة فتحيلها هباء تعلو بعده كلمة الحق وينتشر نور الهدى . واما ضربات ثلاث من الصف الآخر تحيل الفجر المشرق الى ليل دامس .

## اول نصر في الاسلام

واسرع علي خاردي الوليد وهم اصغر القوم سنا ولعله خمس وعشرون سنة . والقى سيف عبيدة سيف شيبة وهما احسن القوم ولعبيدة سبعون سنة ، فهو شيبان كل على هدفه ، فاصاب سيف عبيدة رأس شيبة ففلق هامته ، واصاب سيف شيبة ساق عبيدة فقطعها وسقطا جميعا . وغالب حمزة عتبة وهم اوسط القوم ، ولحمزة سبع وخمسون سنة ، فصمد عتبة وجالد طويلا ثم سقط . ثم حمل حمزة وعلى عبيدة فوضعاه بين يدي النبي (ص) فقال عبيدة : لو كان ابو طالب حيا لعلم اني اقررت عينه حين قال :

كذبتكم وبيت الله نخلي محمدًا  
ولما انطاعن دونه وتناضل  
وننصره حتى نصرع حوله  
ونذهب عن ابناها والحلائل  
ثم حمل عبيدة فمات في طريق العودة الى المدينة .

### في احد

يصف ابن الاثير خروج النبي الى احد وصفنا  
يرينا ان امر الجيش الاسلامي كان الى حمزة وانه كان  
قليل الفعلى باشراف النبي (ص) ، فقد قال ابن الاثير :  
ان رسول الله (ص) لما خرج الى احد خرج حمزة  
بالجيش بين يديه .

وكانت نار النار تغلي في صدر هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان فاستعظمت مقتل أبيها وعمها وأخيها باليدي الهاشميين مضافاً إلى قتل ولدها حنظلة خلال المعركة بيد علي بن أبي طالب ، فدبرت مع ( وحشى ) ان يقتل اما مهمنا او حمزة او عليا ، وجعلت له على ذلك جعلا ، ويبدو ان اكثر من موتوه واحد قد ساهموا في اغراء وحشى بقتل واحد من هؤلاء الثلاثة .

فاجاب وحشى : اما محمد فقد علمت اني لا اقدر عليه لان اصحابه لن يسلموه ، واما حمزة فهو الله لو وجدته نائما ما ايقنته من هيبته ، واما علي فألتمسه . قال وحشى : « فكنت يوم احد التمسه . فبينما انا في طلبه طلع علي رجل حذر كثير الالتفات ، فقلت ما هذا بصاحبى الذي التمس ، اذ رأيت حمزة يفرى الناس غريما ، فكمنت له الى صخرة . ثم اقبل علي مكينا حيئن رآنسى ، فلما بلغ المسيل ، وطئه على جرف فزلت قدمه . فهززت حربي حتى رضيت منها فاضرب بها في خاصرته حتى خرجمت من مثانته . وكر عليه طائفة من اصحابه فاسمعهم يقولون : ابا عمارة ، قلا يجىب ، فقلت قد والله مات الرجل ، وذكرت هندا وما لقيت على ابيها وأخيها .. وانكشف عنه اصحابه حيئن ايقنوا بموته ولا يرونني » .

واقبل وحشى على هند يخبرها بما فعل فنزعها ثيابها وحل لها فاعطتها وحشى ، ثم قالت له ارنى مصرعه ، فاراها مصرعه فجذعت اففه وقطعت اذنيه ثم جعلت ذلك مسكتين ومغضدين وخدمتين حتى قدمت بذلك مكة ،

وكانت قد اخذت قطعة من كبد حمزة فمخفتها فلم تستطع ان تسبغها وافصلتها .

## رثاء النبي لحمزة

ووجد حمزة بعد المعركة ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به ، فحين رأاه النبي ( النبی ) بكى بكاء شديدا وقال : لسن أصاب بمثلك ، ما وقفت موقفاً قط أغrieve على من هذا الموقف . وكان من رثائه له قوله : يا عم رسول الله واسد الله واسد رسوله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات يا كاشف الكربلات ، يا حمزة يا ذايب يا مانع عن وجه رسول الله .

## في المدينة

ولما رجع النبي ( ص ) والملمون الى المدينة من بدار من نور الانصار فسمع البكاء والنواائح على القتل ، فتذكر النبي انه هو وحمزة وبني هاشم غرباء الدار ، وان الهاشميات بعيدات المنازل هناك في مكة ، قد حيل بينهن وبين رجالهن ، وان قريشا العاتية قد مزقت شمل هذه الاسرة الكريمة ، وان حمزة النازح الغريب لا اهل له هنا في هذا البلد الطيب .

فعاد النبي ( ص ) انسانا بكل ما في الانسان من رقة وحنان وعاطفة ، وثارت شجونه كأكرم ما تصور شجون الرجل الثاني عن دياره المفجوع باحبائه ، فذرفت عيناه بالبكاء ، وقال مضمونا كلته كل ما يمكن ان تتضمنه الكلمات من معانسي الحزن المشوب بالتحسر على

امة تقاتل رجلا جاء يدعوها الى فلاحها وعزتها ، ثم تفجعه باحب الناس اليه واكرمهم عليه . قال : ( اما حمزة علا بوأكى له ) .

وفهم بعض السامعين الكلمة على معناها القريب، ولم يدركوا ما كان يرمي اليه النبي (ص) من هذا القول ، وحسبوا ان محددا (ص) يحب فعلا ان يسمع نوح النائحات على عمه الحبيب ، فرجع سعد بن معاذ الى داربني عبد الاشهل ، فأمر نسائهم ان يذهبن في يكن على حمزة في داره . فلما علم النبي (ص) بذلك امر بردهن ، مقدرا العاطفة التي حملتهن وحملت رجالهن على ان فعلن ذلك . فقال : رضي الله عنكن وعن اولادكن .

### فاطمة تبكي عمها

و اذا كانت الماهميات بمجموعهن بعيدات عن هذا الملمتم النبوى العظيم ، فقد كانت هناك هاشمية واحدة قامت مقامهن وبكت عنهن ما اسعفها الدمع ، تلك هي فاطمة بنت محمد التي قدر لها ان تحمل وحدها منذ طفولتها عباء مشاركة ابيها همومه وأساه ، وان تكون في الشدائى الى جانبها مواسية مقاسمة حتى لقبها النبي (ص) ام ابيها .

ولما بلغها ما حدث خرجت اباها وملء عينيهما الدمع بكاء على عمها العظيم . وروى ابن سعد في الطبقات انها كانت بعد ذلك تأتى قبر حمزة فترمممه وتصلحه .

## مراثيـه

كانت فاجعة الاسلام بحمزة مبعث شعر كثير  
ساهمت فيه شقيقته صفية بنت عبد المطلب فقالت ترثيه  
من قصيدة :

وقال الخبران : حمزة قد ثوى  
وزير رسول الله خير وزير  
فيا ليت شلوي عند ذاك واعظمى  
لدى اضبع تعقادنى ونسور  
اقول وقد اعلى النعي عشر قسي  
جزى الله خيرا من اخ ونصر  
فوالله ما انساك ما هبت الصبسا  
بكاء وحزنا محضري ومسيري  
على اسد الله الذي كان مدرها  
يذود عن الاسلام كل كفسور  
وقال عبد الله بن رواحة من قصيدة مشيرة  
الى شماتة هند :

ابا يعلى لك الاركان هدت  
وأنت الماجد البر الوصول  
عليك سلام ريك في جنان  
مخالطها نعيم لا يزول  
لا يا هاشم الاخيار صبرا  
فكيل فعالكم حسن جميسل  
لا من مبلغ عنني لؤيسا  
فيعد اليوم دائلة تدول

نسيتم ضربنـا بقليلـ بـدرـ  
 غـداة اـتـاكمـ الموـتـ العـجـيلـ  
 وـعـقـبةـ وـابـنـهـ خـراـ جـمـيـعاـ  
 وـشـيـبـةـ عـضـهـ السـيفـ الصـقـيلـ  
  
 وـهـامـ بـنـيـ رـبيـعـةـ سـائـلـوـهـاـ  
 فـقـيـ اـسـيـافـاـ مـنـهـاـ فـلـولـ  
 الاـ يـاـ هـنـدـ لـاـ تـبـدـيـ شـمـاتـاـ  
 بـحـمـزـةـ اـنـ عـزـكـمـ ذـلـيلـ

ورثـاءـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ باـكـثـرـ مـنـ قـصـيـدةـ قـالـ فيـ وـاحـدةـ  
 مـنـهـاـ :

قـرـمـ تـمـكـنـ مـنـ ذـؤـابـةـ هـاشـمـ  
 حـيـثـ النـبـوـةـ وـالـقـدـىـ وـالـسـوـدـ  
 النـعـاقـرـ الـكـوـمـ الـجـلـادـ اـذـ غـدتـ  
 رـيـحـ يـكـادـ المـاءـ فـيـهاـ يـجـمـدـ  
 وـالتـارـكـ الـقـرـنـ الـكـمـيـ مجـداـ  
 يـوـمـ الـكـريـهـ وـالـقـنـاـ يـتـصـدـ  
  
 وـتـرـاهـ يـرـفـلـ فـيـ الـحـدـيدـ كـثـيـرـ  
 فـيـ لـبـدـةـ شـثـثـنـ الـبـرـوـانـ اـرـيدـ  
 عـمـ النـبـيـ مـحـمـدـ وـصـفـيـهـ  
 وـرـدـ الـحـمـلـ مـطـلـبـ ذـاكـ الـسـورـدـ  
 وـلـقـدـ اـخـالـ بـذـاكـ هـنـدـاـ بـشـرـتـ  
 لـتـمـيـتـ دـاخـلـ غـصـةـ لـاـ تـبـرـدـ

## معركة شعرية

تقبل استشهاد حمزة بين القرشيين بسرور يعادل  
ما استقبل به من حزن بين المسلمين ، وآخر السرور  
كان عند هند بنت عتبة ، فكان ان علت فوق صخرة مشرفة  
عندما بلغها قتلها وصرخت باعلى صوتها (١) :

نحن جزيئاً كم بيوم بدر  
والحرب بعد الحرب ذات سعر  
ما كان عن عتبة لي من صبر  
ولا أخي وعمّه وبكري  
شفيت نفسي وقضية نذري  
شيء ( وحشى ) غليل صدري  
فسكر ( وحشى ) علي عمرى  
حتى ترم اعظمي في قبري  
فأثار هذا الشعر شاعرة مسلمة هي هند بنت اثاللة  
فردت عليها قائلة :

خزيت في بدر وغير بدر  
يا بنت غدار عظيم الكفر  
احمك الله غداة الفخر  
بالهاشميين الطوال الزهر  
بكل قطاع حسام يفري  
حمزة ليثى وعلى صدرى

شعر حمزة

لم تشفل الاحداث حمزة عن نظم الشعر ،  
بل يبدو ان الاحداث نفسها كانت هي التي تهزم الى نظم  
الشعر فقد رأينا ما نظمه عند اسلامه ، وهو اعظم حدث  
في حياته . ولما تتابعت الاحداث تتابع شعره فيها ، فمن  
ذلك ما نظمه عندما عقد له النبي (ص) اللواء الاول في  
الاسلام وبعثه الى سيف البحر ، فقد التقى هناك بابي  
جهل فقال من قصيدة :

الا يا لقومي للتحلم والجهل  
وللنقض مـن رـاي الرجال ولـلعقل  
ولـلـمعـجـلـيـنا بـالـمـظـالـمـ لمـ نـطـأ  
لـهـمـ حـرـمـاتـ مـنـ سـوـامـ وـلـاـ اـهـلـ  
كـأـنـاـ بـلـنـاهـمـ وـلـاـ نـبـلـ عـنـدـناـ  
لـهـمـ غـيرـ اـمـرـ بـالـعـفـافـ وـبـالـعـدـالـ

فما برحوا حتى انتدبت لفارأة  
لهم حيث حلوا ابتفى راحة الفضل  
بأمر رسول الله اول خافق  
عليه لواء لم يكن لاح من قبلني  
عشية ساروا حاشدين وكلنا  
مراجله من غيط اصحابه تغلى

نقلنا لهم حبل الاله نصريننا  
 وما لكم الا الضلاله من حبل  
 فثار « ابو جهل » هنالك باغيا  
 فخاب ورد الله كيد ابى جهل  
 فرد عليه ابو جهل بقصيدة جاءه فيها :  
 عجبت لاسباب الحفيظة والجهل  
 وللشاغبينا بالخلاف وبالبطل  
 اتونا بأفك كي يضلوا عقولنا  
 وليس مضلا افکهم عقل ذي عقل  
 فان تبقى ايام ارجع عليهم  
 ببيض رقاق الحد محدثة المصطل

وقد ابقيت ايام ابا جهل كما تمنى ولقيهم باليبيض  
 الرقاق في بدر ، ولكن البيض الرقاق لم تفن عنه شيئا ،  
 ذلك ان بيضهم الرقاق قضت عليه .

جعفر بن أبي طالب

الرواد المسلمين الاولى الذين اقبلوا على الاسلام في ضعفه ، موطنين نفوسهم على البلاء والمحنة ، فكابدوا الشدائـد والاهوال ، وتحملوا التشريد والتروعـ، ثم وقفوا نفوسهم على حمايته ونشره ، ولم يطمعوا بمنفـم ولا فازوا بسلطـان ، بل كان نصيـبـهم الاستشهاد ، او الكفاح من جديد لحماية الاسلام من بعض المسلمين .. هؤلاء السـروـاد الاولـى جـديـرون بالـعـنـاـية والـدرـس ، ليـكونـوا الـقـدوـة والـمـثـل ، لـتـظـل سـيرـهـم اـمامـ العـيـون وـملـء القـلـوب ، تـلـهمـ النـاسـ الـايـمانـ وـالـصـبرـ والـتجـرـدـ وـالتـضـحـيـة ، وـمـغـالـبـةـ الـظلمـ وـمـصارـعةـ الـباطـلـ .

ومن اوائل هؤلاء الرواد ، الشهيد جعفر بن ابي طالب ..

## ابوه وامه واخوته

كان لابي طالب ستة اولاد : اربعة ذكور وابنتان .  
والذكور اكبرهم طالب واصغرهم علي ، وبينهما عقيل  
وجعفر ، وكان كل واحد من هؤلاء يكبر اخاه بعشرين سنتين ،  
والبنتان هما جمانة وام هاني ، امهم جميعا فاطمة بنت  
اسد . وكانت هذه السيدة للنبي (ص) بمنزلة الام ، حين

كفل زوجها ابو طالب ابن اخيه محمدًا بعد وفاة جده عبد المطلب ، فاحتضنت محمدًا (ص) وعنبرت به عنانيتها باولادها. وقد حفظ النبي (ص) لها هذا الجميل فكان يجلها اجلال الولد لامه ، ولما ماتت كففها في قميصه وصلى عليها ونزل في قبرها ، ثم خرج وعيناه تذرفان ، وحثا في قبرها . فقيل له : « رأيناك يا رسول الله فعلت على هذه المرأة شيئاً لم تفعله على احد ». فقال : « ان هذه المرأة كانت بمنزلة امي التي ولدتنی » (١) وكانت قد اسلمت وهاجرت الى المدينة وفيها توفيت .

وطالب الولد الاكبر لابي طالب كان من اكرهتهم قريش من الهاشميين على الخروج الى بدر ، هو وعمه العباس وغيرهما . وبعد بدر اختفى خبره فلم يعلم مصيره . ويبدو ان قريشاً لما قتل زعماؤها الثلاثة : عتبة وشيبة والوليد بابدي الهاشميين ، حاولت الفتوك بمن اخرجتهم معها من الهاشميين فاغتالت طالباً . فلما احس العباس وغيره بما يجري لجأوا الى صفوف المسلمين ، فاعتبرهم المسلمون اسرى واعتبرهم النبي (ص) كذلك ، واجبرهم على دفع الفداء .

## اسلام جعفر

اسلم جعفر بعد اسلام اخيه علي بقليل ، بيوم او

نحوه ، وذلك ان ابا طالب ، وكان معه ولده جعفر ، رأى النبي (ص) وعليها يصليان ، وعلى قائم على يمين النبي (ص) فقال لابنه جعفر : « صل جناح ابن عمك وصل على يساره » (٢) فكانت هذه الجماعة اول جماعة اقيمت في الاسلام (٣) .

ومنذ اسلم جعفر حمل عباء الدعوة مع غيره من الابطال ولما اشتد الاذى بالمسلمين ورأى النبي ان يهاجروا من ديارهم ، اختار جعفرا لقيادة قافلة المهاجرين ، وكانوا خمسة وسبعين رجلا واثنتي عشر امراة ، وذلك في السنة الرابعة او الخامسة من النبوة ، وقد خرج جعفر ومعه امرأته اسماء بنت عميس ، فولدت له هناك اولاده عبدالله وعونا ومحمد (٤) . وكانت هذه الهجرة في حياة ابي طالب ، فنظم ابو طالب ابياتا من الشعر ارسلها الى النجاشي قال فيها :

ليعلم خيار الناس ان محمد  
نظير لموسى وال المسيح بن مریم

وانك ما تأتيك منا عصابة  
بفضلك الا ارجعوا بالتكريم (٥)

- ٢ - اسد الفابة .
- ٢ - امالی محمد بن بابویه .
- ٤ - طبقات ابن سعد .
- ٦ - الحاکم في المستدرک .

## المناقشة امام النجاشي

ورأت قريش في هذه الهجرة حماية للمسلمين فعملت على استرداد المهاجرين ، وارسلت لذلك وفدا مؤلفا من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة ( اخي خالد بن الوليد ) ليفاوضا النجاشي في تسليم جعفر وجماعته . نجرت في مجلس النجاشي مناظرة طريفة بين زعييمي الفريقيين اللذين جمع بينهما النجاشي ليسمح من كل منهما ما يقول قبل ان يقرر امرا بشانهما . وفيما يروي ابن عساكر كما يقول ابن كثير ، ان وفدا قريش كان يتكلم باسم زعييمها ابى سفيان ، وان ابا سفيان ارسل مع الوفد هدية للنجاشي وبطارقته .

وسائل النجاشي عمرا عما يقول ، فاجاب عمرو : انه قد صار اليك نثني من سفلتنا وسفهائنا ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، فادفعهم اليها ..

ويبدو النجاشي في هذا الموقف دقيقا وحكينا ، ويظهر وكأنه حاكم من حكام هذا العصر يدقق في طلب تسليم لاجئ من اللاجئين . فهو لم يرفض راسا ، ولم يوافق راسا . بل درس الطلب ثم استجوب زعييم المطلوبين ، ثم اصدر قراره برد طلب التسليم . فكلون بذلك سباقا لمن وضعوا في عهودنا الحديثة اصول تسليم اللاجئين بين بلدين مختلفين . بل يمكن ان نقول انه اول من ميز بين الجرم العادي الذي يجوز تسليمه ، وبين الجرم السياسي – كما نقول في اصطلاحنا اليوم – الذي لا يجوز تسليمه ،

كما سفرى بعد قليل .

## شرح مبادئ الإسلام

وقد كان عمرو بن العاص بارعا حين اثار امام النجاشي وبطارقته امر اعتناق دين جديد . وادرك جعفر ما رمى اليه عمرو ، فركز جوابه على تفصيل امر الدين الجديد وما يدعوه اليه من خير وما ينهى عنه من شر ، فقال ما خلاصته : ايها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأنسى الفواحش ويأكل القوي مما الضعيف ، حتى بعث الله علينا رسولاً منا نعرف صدقه وامانته وعفافه ، دعانا إلى الله لنوحده ونبعده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والآوثان ، وامرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحaram والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقدف المحسنة وكل ما يعرف من السيئات . وامرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وامرنا بالصلوة والزكاة والصيام والصدقة وكل ما يعرف من الاخلاق الحسنة . فصدقناه وآمنا به واتبعناه . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتونا عن ديننا ليروننا إلى عبادة الاوثان ، وان فسحت لهم ما كانوا يستحل من الخبائث . فلما قهروا علينا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين هبتنا خرجنا إلى بلادك .

وكان هذا الدفاع الذي القاه جعفر عرضاً موجزاً لام مبادئ الإسلام . وقبل ذلك سائل النجاشي عمراً :

اهؤلاء عبيد أكم ؟ فقال عمرو : لا ، فقال النجاشي : فلكلم عليهم دين ؟ قال عمرو : لا .

اذن فاللاجئون ليسوا مجرمين عاديين : فلا هم عبيد آبئون ولا هم مدينون خارون بحقوق الناس ، بل هم ( اللاجئون سياسيون ) ذوى مبادىء معينة اوضحها قائدتهم ، وهي مبادىء لا يستطيع اي منصف ان يجعلها سببا في تسليم اصحابها لمن يناقضونها بوثنيتهم . واذا كانت دينا جديدا فليس فيه ما يؤخذ على اصحابه .

وهكذا صدر قرار النجاشي برد طلب الاسترداد .  
فبرهن بذلك عنى انه على اعلى مستويات الانسانية .

### دعاة جديد

ولم يكن عمرو بن العاص من يهزمون بسهولة ،  
مفتتق ذهنه عن دائحة رأى انها خير ما يرمي به جعفر واصحابه . فعاد يقول للنجاشي : « ان لهؤلاء رأيا في عيسى يخالف ما انت عليه » ، فدعاهم النجاشي من جديد ، فكان وقع هذه الدعوة اليما في نفوسهم ، اذ حسروا انه قد بدا للنجاشي ما غير رأيه فيه . وكان جعفر حين تلقى الدعوة الاولى قد عقد مؤتمرا من اصحابه ذاكرهم فيه بما يجب ان يكون عليه جوابهم للنجاشي . وبعد المداولة اقرروا كلهم رأي جعفر حين قال لهم : « يجب ان نقول ما علمنا وما امرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .. » لذلك رأيناه حين دخل على النجاشي يسلم عليه تسليما بسيطا ويأسى السجود بين يديه على عادة

جميع الداخلين عليه ، مع انه كان من المحتمل ان يثيره هذا التصرف ويغضبه ويسيء لصلحتهم . ولكن جعفرا ابى ان يتصرف الا على اساس اسلامي بحت ، وان لا يتنازل قيد شعرة عن مبادئه التي لا تجيز السجود لغير الله . ولم يمض هذا التصرف بلا مناقشة ، فقد تسائل النجاشى عن تصرفهم الذي خالفوا فيه قواعد الدخول على الملوك . فقال جعفر ما مفهومه ان نبينا حدد لنا قواعد السلام بين الناس دون تمييز بينهم وامروا بذلك فحييناك بالذى يحيى به بعضنا بعضا .. وكذلك رأينا ايضا في جوابه الاول غير مجمجم ولا موارب ، كما كان حين اجاب عن رأى نبيهم في عيسى : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاتها الى مريم البتول العذراء ...

فلم يجد النجاشى في هذا الرأي ما يمكن ان يؤخذ به اللاجئون ، فانهم اذا كانوا لا يرون رأى النجاشى ففي عيسى فانهم لا يقلون عنه احتراما له ولاته ، لذلك ايد قراره الاول بقرار جديد ، ورفض تسلیم اللاجئين .

### مكة العاصمة

ويظهر مما قاله ابن اسحاق فيما حكاه ابن هشام في سيرته ، ان الامر في مكة كان يدل على ان سلطتين تتنازعان امر مكة ، وان اللاجئين كانوا يمثلون سلطنة ، وعمرو بن العاص كان يمثل اخرى ، وان الطلب لم يكن فرديا او شخصيا . فعمرو بن العاص حمل معه هدايا للنجاشى وبطارقته وقدمها باسم ابى سفيان

ممثل السلطة الفعلية . ورأينا ان ابو طالب ارسل للنجاشي شعرا يشرح له وجهة نظر الفريق الآخر في طلب الحماية للاجئين .

وهنا ايضا عندما علم ابو طالب بما كان من امر ارسال الوفد الى النجاشي عاد فارسل اليه شعرا جديدا ضمنه الحنين الى ولده جعفر ، ثم الثناء على النجاشي والاعتماد عليه في حفظ حق اللاجئين في « لجوئهم السياسي » .. ولعل في كل هذا ما يدلنا على طبيعة العلاقات بين مكة وغیرها من العواصم قبل الاسلام وخلال الدعوة الاسلامية ، وعلى ان مكة كان معترفا بها كعاصمة تفاوض وطالب ، وان قريشا كان مسلما لها بالسلطة في مكة ، وان وفدها كان وفدا ( رسميا ) معترفا به .

كما قد يدلنا الشعر الذي ارسله ابو طالب مرتين على انه كان للغة العربية ولشعرها وادبها جذور خارج الجزيرة العربية ، والا فلماذا استعمل ابو طالب الشعر ، وكذلك مان ابن اسحاق وغيره يرون ان النجاشي طلب من جعفر ان يقرأ له شيئا مما جاء به النبي (ص) فقرأ له صدرا من (كمييعص) وان النجاشي ومن في مجلسه تأثروا بما سمعوا من القرآن .

### محاولة انقلاب على النجاشي

ويروي ابن اسحاق عن بعض المسلمين اللاجئين ان محاولة انقلاب جرت بعد هذه الاحداث كانت تستهدف

النجاشي نفسه ، ولا يحدثنا الرواية عن اسباب هذه المحاولة وعما تذرع به الانقلابيون ، بل يكتفي بان يصف شعور اللاجئين حين سمعوا بالاخبار ، فيقول بهذا النص وهو يتحدث عن حسن صنيع النجاشي : « فوالله انا لعلى ذلك اذ نزل به – اي النجاشي . رجل من الحبشة ينزعه في ملكه فوالله ما حزنا قط حزنا كان اشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا من ان يظهر ذلك الرجل على النجاشي » .

وبالرغم من ان هذا الرواية لا يتحدث عن التفاصيل والاسباب ، فان من غير بعيد ان يكون المنازع للنجاشي قد استغل حمایة النجاشي لاصحاب الدين الجديد وجعلها من عوامل ثورته وتحريض الناس عليه . لذلك حزن اللاجئون اولا ثم فرحا ثانيا . ويدل على ذلك ان بعض اعون النجاشي ممن حضر مجلس الماظرة لم يكونوا راضين عن الرعاية التي ظفر بها اللاجئون من النجاشي .

## الرجوع من الحبشة

ثم مضت الحياة سليمة على جعفر واصحابه وكانتوا يتسمون اخبار الحجاز ، فعلموا بهجرة النبي (ص) وصحبه الى المدينة ، ثم تتبعوا انباء الانتصارات الاسلامية فمضت ايام بدر واحد وبني النضير والخندق وبني قريضة واستقر امر الاسلام واصبح قوة تحمي نفسها واصحابها ثم جاء يوم خير ، فاما بجعفر واصحابه يصلون المدينة يوم

النصر ، فيقول النبي : « لا ادري بايهما انا اشد فرحا :  
بفتح خير ، ام بقدوم جعفر » .

## قتل رسول النبي

الخطة التي ارادها النبي (ص) لنشر الاسلام لم تكن خطة الفتح والغزو على عكس ما يعتقد الناس وما جرى عليه الحال بعد النبي (ص) . بل كانت الخطة ارسال الرسل والدعاة مزودين بالاسلام بكل ما في مبادئه من حرية وعدالة اجتماعية واخوة ومحبة . وقد رأينا نجاح هذه الخطة في البحرين واليمن مثلا . وفي يقيني انه لو امتدت الحياة بالنبي (ص) لما سلك غير هذا السبيل ولما لجأ الى القتال الا اذا جاءه اليه كما حدث حين ارسل في السنة الثامنة للهجرة رسوله الحارث ابن عمير الا زدي داعية الى بلاد الشام فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني احد حكام العرب العاملين تحت سلطنة الروم في بلاد الشام . ومن الطبيعي ان لا يسكت النبي لقتل رسوله المسالم .

## غزوة مؤتة

لذلك اعد جيشا عدته ثلاثة الاف، لتأديب المجرميين ، ووجهه الى البلقاء حيث كان قد وقع الاعتداء ، وجعل للجيش ثلاثة قواد يتناوبون القيادة في حال استشهاد احدهم ، هم جعفر ابن ابي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة . فاجتمع لحربيهم جيش مكون من مائتي الف نصفهم

من العرب ونصفهم من الروم ، فابوا ان يرتدوا وفي ذلك يقول  
عَدِيلُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ :

صدی الاستقشاد

وبلغ النبي الخبر فمضى إلى منزل جعفر  
وسأله زوجته أسماء : أين بنو جعفر ، فجاءته بهم — وهم  
أطفال — فضمهم وقبلهم ثم ذرفت عيناه فبكى ، فقالت أسماء :

يا رسول الله لعله بلفك عن جعفر شيء . قال : نعم انه  
قتل . ثم قال على مثل جعفر فلتبك البواكي .

### مراثي

قال كعب بن مالك الانصاري يرثيه من قصيدة :  
سبروا بمئقة للله نفوسهم  
عند الحمام حفيظة ان ينكروا  
ساروا امام المسلمين كأنهم  
طود يقودهم الهزير المشبل  
اذ يهتدون بجعفر ولوائه  
قادم اولهم ونعم الاول  
حتى تقوضت الصفواف وجعفر  
حيث التقى جمع الغواة مجده .  
وقال حسان بن ثابت من قصيدة :  
غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم  
الى الموت ميمون النقيبة ازهر  
اغر كثيرو البدر من آل هاشم  
ابي اذا سيم الظلمة اصعر  
قطاعهن حتى مال غير موسد  
بمعترك فيه القنما متکسر .

## الزنج في معركة الاسلام

كرم محمد بن عبد الله (ص) الانسانية كلها فألغى  
الاضطهاد العنصري الفاع عمليا حين اختار لقدس مهمه  
زنجيا اسود اللون ، وجعل منه مؤذنه الذي ينادي المؤمنين  
للحصولات في اوقاتها الخمس .

هذا الاسود هو بلال الحبشي الذي كان عبدا من  
عبيد قريش فلم تكن تبلغه الدعوة الاسلامية حتى كان  
اول الملبين لها ، وتعلم به قريش ، ويعلم به سيده ( امية  
بن خلف ) فينصحونه بالعدول عن الطريق الذي مشى  
فيه فلا يقبل النصيحة ويستمر مسلما مخلصا فيلخذون في  
تعذيبه العذاب الاليم ، ولكنه لا يزداد الا ايمانا ، ثم يفر  
بنفسه الى المدينة مع من هاجر اليها ، وهناك صار مؤذن  
الرسول . ولقد كانت في صوته لكتة فلا يستطيع ان يلفظ  
الشين لفظا صحيحا ، بل تخرج من فمه وكأنها سين ، فيقول  
الرسول (ص) ان سينه عند الله شين ..

وعلى صوت بلال الحبشي كان يهرع شيوخ المسلمين  
وشبانهم الى المسجد ملبين نداء الله يبعثه هذا الانسان  
الاسود اللون . ولم يكن تكريمه لعنصر بلال اعظم من هذا  
التكرير الذي خصه به رسول الله ، ولذلك فانه لما مات النبي  
انقطع الى اهل البيت مخلصا لهم ، وفيما ذكرى ابيهم الرسول .

## بين الجحود والوفاء

وتدور الايام ويلقى اهل البيت محننا وارزاء ، ويزير  
الاوفىاء ملتفين حول الاسرة النبوية عازمين على الموت  
دونها اخلاصا لحمد ورسالته . ويقف الحسين في كربلاء  
في اقل من مائة من الرجال كانوا يمثلون في تلك الساعات  
انبل ما في الكون من سجايا ، وهل في الكون انبل من ان  
يبذل الانساء دمه طوعية وفاء لرجل وثباتا على مبدأ  
واخلاصا لعقيدة .

وتبارى الرجال في التضحية ومضوا يسقطون واحدا  
بعد الآخر . وكان في الركب الحسيني رجل بسيط ، لا  
يحسب اذا حسبت البطولات ، ولا يذكر اذا ذكرت التضحيات ،  
لا يؤبه نرأيه ولا يعد لهمة من مهمات الامور .  
كان يؤمر فيلبي الامر ، ويستخدم فيخدم مسرعا ، كان  
اقصى ما يعرفه الرفاق عنه انه خادم امين وتابع مخلص .  
وما فوق ذلك فليس مما يرد اسمه على البال .

كان رقيقا من اولئك الارقاء السود الذين امتلأت بهم  
قصور العتاوة وبيوت الطغاة ، وكانت اية حشرة تلقى عناء  
اكثر مما يلقاء اي واحد منهم . وكان نصيبيه ان وصل الى  
يد ابى ذر الغفارى صاحب محمد المخلص ، وسمع ابو  
ذر النبى (ص) يوصى بالارقاء خيرا ويحض الناس على  
تحريرهم، ومن اولى من ابى ذر بتنفيذ وصايا النبى  
فاعتقل ابو ذر العبد (جون) وارسله حرا .

واصابت المحن ابا ذر وطورد واضطهد ومات منفيا في  
الريذة ، وظل جون فقيرا معدما ، فتلقاء اهل البيت بالخنان

والاعطف ، فقد كانت فيه ذكريات من صاحب جدهم راوها  
بنيرة بالوفاء فاحتضنوه والحقوه بشؤونهم يقوم على رعاية  
بيتهم والعناية باطفالهم وقضاء حاجات رجالهم .

## جون في كربلاء

ومشى الحسين الى كربلاء ، وهذه حال جون ،  
لا شأن له اكثراً من هذا الشأن ، ولا من يفكرون بان يكون لجون  
دور فوقي هذا الدور . وكان في حسبان الجميع انه  
سيغتنم اول فرصة للسلامة فينجو بنفسه وينشد الخدمة  
من جديد في بيت جديد .

ولكن جون بقى في ركب الحسين لم يفارقه مع  
المفارقين ، وثبت مع الرجال المائة الذين ثبتوا حتى  
وصلوا الى كربلاء وظن الناس ان ( جون ) سينتظر  
الساعة الحاسمة ، ثم ينطلق بعدها في طريق النجاة ، ولكن  
الايات مضت وجون في مكانه لم ييرحه ، وجاء اليوم  
التاسع من المحرم وجون قائم على خدمة الحسين ، فها هو  
يصلح له سيفه والحسين يردد تلك الابيات الشهيرة التي  
لم تستطع معها اخته زينب الا ان تذرف دموعها .

اما جون فلم يذكر احد انه انفعل او تأثر او بكى ،  
اتراه لم يفهم ما كانت تعنيه تلك الابيات ؟ اتراه صلب العاطفة  
متحجر القلب الى حد لا يهزه صوت الحسين ينبع نفسه ؟  
اتراه في تلك الساعة في شاغل عن كل شيء الا عن نفسه  
يفكر كيف يدب وسيلة الخلاص عصر اليوم او صباح الغد ؟

## معالم الوفاء

الحقيقة كانت فوق كل تصور .. لم يbirth جون ولم ينفع ولم يتأثر ، لأن ما كان فيه كان فوق البكاء والانفعال والتاثر . كان جون وهو يصلح سيف الحسين ، والحسين ينشد أبياته ، كان جون يستعرض في ذهنه كل ذلك الماضي الحالف ، كان يتذكر النبي محمد (ص) وهو يرفع الانسان الاسود الى اعلى مراتب الكراهة حين عهد الى واحد منهم بوظيفة مؤذنه الخاص وكان يتذكر تلك الالوف من السود التي انطلقت حرة تنفيذا لوصايا محمد . كان كل ذلك يجول في ذهن ( جون ) مولى ابي ذر الغفارى .

### مع سيف الحسين

وها هو سيف الحسين الان في يده لآخر مرة يصلحه له ليقف به الحسين غدا على اعلى قمة في التاريخ فيهز الدنيا كلها لتشهد كيف تكون حماية المهدى والحق والخير ، وكيف تكون البطولات التي لا تفتقى الا الاستشهاد ذودا عما تؤمن به وتعتققه ، وكيف يرفض الاباهة الحياة اذا لم تكن كما يريدون حياة الحرية والسعادة للامة ، وحياة الكرامة والحق لهم .

غدا سيلمع هذا السيف الحديدي في كف الحسين ثم ينثم الى الابد ، ولكن سيف الحق الذي جرده الحسين سيلمع الى الابد دون ان ينثم ، وغدا سيعملو صوت الحسين بنداء الحرية ثم يصمت الى الابد ، ولكن صوت الحرية الذي انطلق من فم الحسين سيظل مدويا الى الابد .

## سكون جـون

كان جون يلجاً الى صمت رهيب ، وظل صامتاً حتى  
دنا الليل ، واصغرى بكل جوارحه الى الحوار البطولي  
الخارق الذي جرى بين الحسين وانصاره ، وهو يحرضهم  
على تركه وحده والانطلاق في سواد الليل ، وهم  
يردون عليه واحداً بعد واحد راغبين لـاول مرة في حياتهم  
اوامرها ، ويصررون على ان يلقوا نفس المصير الذي سيلقيه  
هو .

كان جون في تلك الساعه يجلس في زاوية دون ان يأبه  
له احد ، وكان يود من كل قلبه لو كان لصوت الزنوج صوت  
يبيـن هذه الاـصوات ، ولكنه فضل الصمت المطبق .

## جون البطل

وفي الصباح عندما تبارى الابطال المائة متسابقين الى  
الموت ، ومشى كل منهم يستأنـن الحسين ويـودعه ماضيا  
الى مصيره ، تقدم (جون) ، وهو في كل خطوة من خطواته  
لا ينفك مصـفيـا الى صوت زميله بـلالـ الحـبـشـيـ مـتـعـالـياـ  
فـوقـ كلـ اـصـواتـ الـبـيـضـ تـكـرـيـمـاـ منـ مـحـمـدـ وـاعـزاـزاـ . وـربـماـ  
خـطـرـ لـهـ فيـ تـكـلـيـفـاتـ مـنـظـرـ بـلالـ وـهـوـ وـاقـفـ عـلـىـ  
اشـرـفـ مـكـانـ وـاـقـدـسـ بـقـعـةـ ، عـلـىـ ظـهـرـ الـكـعـبـةـ حـيـنـ  
امـرـهـ مـحـمـدـ سـاعـةـ فـتـحـ مـكـةـ انـ يـصـعـدـ فـيـنـادـيـ بـالـاذـانـ .  
الـاسـوـدـ الـذـيـ كـانـ عـبـداـ ذـلـيـلاـ قـبـلـ رسـالـةـ مـحـمـدـ يـصـعـدـ  
عـلـىـ الـكـعـبـةـ ، وـهـوـ فيـ نـظـرـ النـاسـ اـعـزـ اـنـسـانـ .  
دـنـتـ سـاعـةـ الـوـفـاءـ لـمـحـمـدـ ، دـنـتـ السـاعـةـ التـيـ يـرـدـ

فيها هذا الزنجي (جون) بعض الجميل لحمد ، وهل اعظم في الوفاء لحمد من ان يموت ذودا عن ابنائه ونسانه وتعاليمه ، وتقدم جون من الحسين وقد انقلب بطلا مغوارا ، وقد تجمعت فيه كل فضائل بنبي جنسه ، تقدم يستأذن الحسين في ان يكون كفирه من رفاق الحسين .

### الكريم الحسب

والتفت الحسين اليه وقد اخذته الرقة له والحنان عليه ، ولم يشأ ان يورطه فيما لا شأن له به ، فقال له : انت انما تبعتنا للعافية فلا تقتل بطريقتنا .

ولكن جون البطل اجاب الحسين : انا في الرخاء على قصاعكم وفي الشدة اخذلكم ؟! ثم اردد هذا الجواب بكلمات لم يقصد بها الحسين ، بل اراد ان يوجهها للاجيال الماضية والاجيال الحاضرة والاجيال الاتية ، تلك الاجيال التي لم تر للزنجوں الكرامة التي لهم ، فقال : ان رحبي لنتن ، وان حسبي للثيم ، وان لوني لاسود ، افتنفس علي بالجنة فيطيب رحبي ويشرف حسبي ويبيض وجهي ؟ لا والله لا افارقكم حتى يختلط هذا الدم الاسود بدمائكم .

لقد كان جون يعلم انه اكرم على الحسين من الوف البيض ، وان الحسين اكرم من ان يراه لئيم الحسب نتن الريح . لم يكن جون في الواقع يخاطب الحسين سبط محمد مكرم الزنوج ، بل كان يقف على ذروة من ذروات التاريخ ليقول للادعاء المفاخرین بالوانهم واطيابهم ، اليکم

هذا الذي ترونـه في نظركم لئيم الحسب نتنـ الريح ، اليـكم به  
اليـوم يطاولـكم شـرفا وحـميـة وشـجـاعة ووـفـاء فـلا تـصلـونـ  
الـى اـخـمـصـ قـدـمـيـهـ .ـ منـكـمـ يـزـيدـ الـابـيـضـ اللـوـنـ ،ـ المـتـحدـرـ مـنـ  
عـبـدـ مـنـافـ ،ـ الـمـضـمـخـ بـالـاطـيـابـ ،ـ وـمـنـكـمـ عـبـدـ اللهـ بنـ زـيـادـ  
وـمـنـكـمـ شـمـرـ ابنـ ذـيـ الجـوشـنـ وـحـجـارـ بنـ اـبـجـرـ وـقـيـسـ  
ابـنـ اـشـعـثـ وـعـمـرـوـ بنـ الحـجـاجـ ،ـ مـنـكـمـ قـبـلـ هـؤـلـاءـ  
وـبـعـدـ هـؤـلـاءـ كـثـيرـوـنـ ،ـ وـكـلـهـمـ يـشـعـ بـيـاضـاـ وـيـعـبـقـ طـيـباـ ،ـ وـكـلـهـمـ  
يـجـرـ وـرـاءـ حـلـقـاتـ آـبـاءـ وـاجـدادـ .ـ

اـولـئـكـ غـدـرـواـ بـمـحـمـدـ الـذـيـ اـخـرـجـهـمـ مـنـ الـظـلـمـاتـ ،ـ  
فـدـاسـواـ تـعـالـيـمـهـ وـحـشـدـواـ الـحـشـودـ عـلـىـ بـنـيهـ ،ـ اـولـئـكـ يـتـهـيـئـونـ  
اـلـانـ لـيـرـفـعـواـ رـؤـوسـ اـبـنـاءـ مـحـمـدـ عـلـىـ رـمـاـحـهـمـ .ـ وـهـذـاـ  
الـزـنـجـيـ وـفـىـ لـمـحـدـ الـذـيـ حـرـرـهـ وـاـكـرـمـ جـنـسـهـ ،ـ فـتـقـدـمـ  
لـيـذـوـدـكـمـ عـنـ بـنـيهـ وـبـنـاتـهـ وـتـعـالـيـمـهـ ،ـ وـهـوـ يـتـهـيـأـ اـلـانـ لـيـسـفـكـ  
دـمـهـ دـوـنـ ذـلـكـ ،ـ فـأـيـكـمـ الـلـئـيمـ الـحـسـبـ ،ـ النـتـنـ الـرـيحـ ،ـ الـاـسـوـدـ  
الـوـجـهـ ؟ـ اـلـنـتـمـ اـمـ هـوـ ؟ـ

## جـونـ يـحـقـ اـمـهـ

وـحـقـ الـحـسـيـنـ رـجـاءـ جـونـ مـاذـنـ لـهـ ،ـ وـمـشـىـ(ـجـونـ)  
مـزـهـواـ بـبـطـوـلـتـهـ مـعـتـزـاـ بـوـفـائـهـ يـوـدـ لـوـ انـ عـيـنـيـ بـلـالـ الـجـبـشـيـ  
تـرـاهـ فـيـ خـطـوـاتـهـ هـذـهـ ،ـ وـاـنـ زـنـوجـ الدـنـيـاـ يـطـلـونـ عـلـيـهـ لـيـرـواـ  
كـيـفـ مـثـلـهـمـ فـيـ موـكـبـ الـبـطـوـلـاتـ وـتـكـلـمـ باـسـمـهـمـ عـلـىـ مـنـبـرـ  
التـضـحـيـاتـ ،ـ وـكـيـفـ شـرـفـهـمـ سـاعـةـ لـاـ شـرـفـ الاـ لـلـنـفـوـسـ  
الـعـظـيـمـةـ .ـ

لـقـدـ ضـارـبـ جـونـ الـحـرـ اوـلـئـكـ العـبـيـدـ باـعـمـالـهـ ،ـ الـسـوـدـ

بقلوبهم ، وكان له ما اراد . فامتزج دمه الاسود مع اشرف  
 دم : مع دم الحسين سبط محمد ومع دماء اهل بيته .  
 ووفى الزوج لحمد الذي رفع من شأنهم واعلى  
 امرهم ، وتحقق ما اراده جون . فلم ينفس عليه الحسين  
 بالجنة ، ولم يدخل عليه بان يثبت بأنه كريم الحسب طيب  
 الرياح .

## زين العابدين علي بن الحسين

للحسين بن علي ولدان كل منهما يسمى عليا :  
 هما علي الاكبر وعلي الاصغر . والمشهور ان شهيد  
 كربلاء هو علي الاكبر . ولكن هذه الشهرة موضع مناقشة  
 فقد قيل ان الاكبر هو علي زين العابدين ، ويبدو ان هذا القول  
 هو الصواب ، لأن من الثابت ان الامام محمد الباقر ابن الامام  
 زين العابدين ادرك جده الحسين وانه عاش معه ثلاث  
 سنيين او اربع سنيين . في حين لم يرد ان شهيد كربلاء  
 كان عند استشهاده متزوجا . ومن غير المتعارف ان يتزوج  
 الولد الاصغر قبل الاكبر .

ولكن الشهرة طاغية ، فما من احد يذكر الشهيد  
 في الخطابة او الكتابة الا ويقرن اسمه بلفظ ( الاكبر ) .  
 وقد علل الشيخ المفيد في كتابه ( الارشاد ) هذه الشهرة  
 بأنه كان للحسين ولد ثالث هو اصغر الاخوة الثلاثة وان  
 الشهيد هو الاوسط ولكنه اكبر بالنسبة الى الاصغر .

### مولده ووفاته

ولد في المدينة ، وفي يوم ولادته وشهرها وستتها بعض  
 الاختلاف ، فمن قائل انه ولد لتسع او خمس او سبع  
 خلون من شعبان . ومن قائل انه ولد في منتصف جمادى الآخرة .

وكذاك قيل انه ولد سنة ٢٨ او ٣٧ او ٣٦ من الهجرة .  
وتوفي في المدينة في المحرم سنة ٩٤ او ٩٥ .

### نشاته

عاش مع جده علي بن ابي طالب سنتين او اكثر ،  
ومع عمه الحسن اثنتي عشرة سنة او عشر سنين ومع  
ابيه الحسين ٢٣ او ٢٤ سنة ، وعاش بعد ابيه الحسين  
٣٤ او ٣٣ او ٣٥ سنة .

### في كربلاء

لم يسلم احد من اهل البيت في كربلاء فقتل حتى الاطفال ،  
فان الحسين حين طلب من اخته زينب ان تريه طفله  
الصغير عبدالله ليودعه ، واخذه في يديه واومأ اليه ليقبله  
رماه حرملة بن كاھل الاسدي بسمهم فوقع في نحره فذبحه .  
وكذلك لما رأى عبدالله بن الحسن وحدة عمه الحسين  
لم يستطع — وهو غلام لم يراهاق — ان يصبر فانسل من  
خيمة النساء وانطلق الى عمه فلحقته زينب بنت علي  
لترده . فقال لها الحسين : احبسيه . فامتنع الغلام  
امتناعا شديدا وجاء يشتد الى عمه الحسين حتى  
وقف الى جنبه وقال : لا افارق عمي .

كان هذا المشهد الانساني الرائع تتدفق احداثه متتابعة  
بكل ما فيها من رهبة وعاطفة وجلال : زينب تحاول رد  
الغلام ، والحسين يحاول اقناعه بالرجوع ، زينب بكل  
ما فيها من رقة نسوية انسانية وبكل ما اشتملت عليه

جوانحها من حنان القربي تجر الطفل الى الخيمة ، والحسين بكل ما احتواه قلبه الكبير من اشفاق ورحمة يبعد الغلام عنه ، والغلام بكل ما غذى به في بيت النبوة من سمو ورجلة وشم ، وبكل ما ورثه عن علي وفاطمة من بر ووفاء ونخوة وشجاعة يتملص منها ويرد عليهما مسارحا : لا افارق عمي . ثم يقف الى جنب عمه يحاول لسو يستطيع حمل سيف او نقل رمح يدافع بهما عن هذا العم العظيم . ولكنه لا يملك الا قلبه العطوف وجسمه الغض فيتقدم ليشارك بهما عمه الحسين بمصيره .

هذا المشهد الانساني الرائع لم يكن له في قلب ااجر بن كعب من اثر الا اثاره همجيته واستفزاز وحشيته فاهوى بسيفه الى الحسين فصاح الغلام ويلك اقتل عمي ؟ فغزدادت وحشية اجر وتعاظمت همجيته فترك الحسين واندفع بالسيف الى الغلام سبط محمد بن عبد الله (ص)، فاقتى الغلام السييف بيده فأطئتها السييف الى الجلد فاذ هي معلقة خنادى الغلام : يا عماه ، فاخذه الحسين اليه فرماه حرملة بن كاهل بسمهم اجهز عليه وهو في حجر عمه . هكذا كان مصير كل من شهد كربلاء من اهل البيت لم يشفع بأحد منهم سين ولا ضيف .

ولكن زين العابدين سلم ، لاته كان مريضا لا يستطيع وقوفا ولا يطيق حركة ولا يتحمل خطوة ، ومع ذلك فان الذين قتلوا اباه واعمامه واحوتة كانوا يقتلونه ، ولكن حميد بن مسلم ظل يقنعهم ويداورهم حتى انصرفوا عنه وتركوه لما به ، وهكذا سلم علي بن الحسين زين العابدين فكان منه وحده نسل الحسين ..

## بعد كربلاء

على انه تعرض بعد كربلاء لوقف كاد فيه ان يقتل، وذلك انه بعد ان سيق نساء البيت النبوى مع زين العابدين الى عبيد الله بن زياد الى الكوفة ، وادخل الجميع عليه ، تعجب ابن زياد ان يرى بين من ادخلن شابا سليما . فقال له من انت ؟ قال : انا على بن الحسين فقال ابن زياد : اليه قد قتل الله على بن الحسين ؟ فقال له علي : قد كان لي اخ يسمى عليا قتله الناس . فقال ابن زياد : بل الله قد قتله . فقال علي : الله يتوفى الانفس حين موتها .

فغضب ابن زياد وقال : وبك جرأة لجوابي وفيك بقية للرد على ، اذهروا به خاضروا عنقه .  
فتعلقت به عمه زينب . وقالت يا ابن زياد حسبك من دمائنا ، واعتنقته وقالت والله لا افارقكه فان قتلته فاقتلتني معه .

وقال له علي : ابالقتل تهددى يا ابن زياد ؟ اما علمت ان القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة ؟

## في دمشق

ساق ابن زياد نساء البيت النبوى ورؤوس رجاله الى دمشق ، وساق معهم زين العابدين ، فاعرض علي عمن رافقوهم من الرجال فلم يكلم احدا منهم بكلمة حتى بلغوا دمشق .

وفي دمشق اصر زين العابدين على يزيد بان يعاد

اليهم ما سلب منهم . وكان عجيبا منه ان يهتم بما سلب منهم بعد الاذى الذي جرى عليهم . ولكن زين العابدين قال : اني اطالب بما اخذ منا لان فيه مغزل فاطمة بنت محمد . ومقنعتها ، وقلادتها ، وقميصها .

## الاسلام والرق

الذين يأخذون على الاسلام انه لم يلغ الرق الغاء كاملا يتجاهلون ان الحياة الاقتصادية كانت تقوم في تلك العصور على الرق ، وانه لا يكفي ان يعلن الاسلام الغاء الرق وتحريمه ، بل لا بد في ذلك من التدرج تدريجا لا تضطرب منه الاوضاع الاقتصادية اضطرابا يخربها . والاسلام في كل احكامه كان عمليا واقعيا ، لذلك عمل اول ما عمل على الغاء المفاسد الاساسية للرق بحيث يتقلص ت漸يا طبيعيا مع الزمن . ثم حضر على تحرير العبيد واعلن ان ذلك اكبر مكسب للمثوبات الكبرى ، واعظم ما يتقرب به الانسان الى خالقه . ولست الان بسبيل التوسيع في هذا الموضوع . ولكن كان لا بد من هذه الاشارة لنرى كيف طبق الرجال الذين تمسكوا بالاسس الاسلامية تعاليم الاسلام وكيف مشوا في تحرير العبيد الخطوات السليمة .

## محرر العبيد

ومن اولى من الامم زين العابدين بالاخذ بحقيقة الاسلام وجوهره اخذها كاملا ، وقد عمل بهذا النهج في كل شؤون حياته لا سيما بشأن الرق بحيث يحق لنا ان نطلق

عليه لقب محرر العبيد .

ففي الوقت الذي كانت تمثله فيه قصور الحكام بالارقاء نساء ورجالا وكانت الدولة تسيء تطبيق تعاليم الاسلام، كان علي بن الحسين يقود حملة تحرير الرقيق ويجعل من نفسه في ذلك قدوة للشعب . وكانت خطته كما يلي :

اولا : كان عندما يصل الارقاء الى يده يعاملهم معاملة الانداد ، فاذا اخطأوا لم يعاقبهم ، بل يسجل اخطاءهم في دفتر عنده وينتظر حتى يأتي عيد الفطر فيجمعهم ويعرض عليهم اخطاءهم ملطفا لهم فيعرفوا بتلك الاخطاء فيقول لهم : عفوت عنكم فهل عفوت عنني ما كان مني اليكم؟ فيقولون : قد عفونا عنك وما اسألت ، فيقول : قولوا اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا . ثم يحررهم ويعطيهم بعض المال ليبدؤوا حياتهم الجديدة .

ثانيا : لم يكن يبقى عنده عبدا سنة كاملة ، بل كان يشتريهم في الشهور التي تسبق رمضان ليسرع في تحريرهم وقت العيد .

ثالثا : وكذلك كان يفعل في عيد الاضحى ، فهو يشتري العبيد وليس له حاجة بهم ، فاذا جاء وقت الحج خرج بهم الى عرفات ، فاذا انتهى الحج حررهم وزودهم بالمال . ولم يكن ينقص عدد الحرريين في كل عيد عن العشرين انسانا .

والذي يزيد في تقديرنا لهذا العمل العظيم هو ان علي بن الحسين لم يكن ذا ثروة تساعدة على التوسع في هذه الخطة ، بل كانت موارد رزقه محدودة ، فكان ينفق كل ما

يصل الى يديه في هذا السبيل وفي مساعدة ذوي الحاجات  
كما سنذكر .

### **مساعدته للفقراء**

كان يخرج في الليل حاملا معه ما استطاع جمعه من المال ، وربما حمل الطعام او الحطب ايضا حتى يأتي ابواب الفقراء ، فيقرعها بابا بابا ، ثم ينالو من يخرج اليه ، ويكون مغطيا وجهه لثلا يعرفه احد . ثلما توفي انقطع عن الفقراء ما كان يأتيهم فعرفوا انه هو الفاعل .

### **انسانيته**

كان هشام بن اسماعيل(١) امير المدينة يسئ الى علي بن الحسين ويؤذيه اذى شديدا ، فلما عزل امر به الوليد ان يوقف للناس .. فقال هشام ما أخاف الا من علي بن الحسين فكان الناس يمرون به فيشتمنوه . فمر به زين العابدين وسلم عليه وامر خاصته ان لا يعرض له احد .

ولما طرد اهل المدينة بنى امية قبل وقعة الحرة ، اراد مروان بن الحكم ان يستودع اهله ، فلم يقبل احد ان يكونوا عنده ، الا علي بن الحسين ، فوضعهم مع عياله

١ - هو هشام بن اسماعيل بن هشام المخزومي . وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب حين دعاه الى الديبة للوليد عبد الملك لما عقد له ابوه بالخلافة ظلي سعيد ، وقال انتظر ما يصنع الناس ، فصربه وطاف به وحبسه . وهكذا انطبق عليه القول المأثور ( من اهان ظالما سلطه الله عليه ) .

واحسن اليهم مع عداوة مروان المعروفة له ولبيته . وعال في وقعة الحرة اربعمائة امرأة من بنى عبد مناف الى ان تفرق جيش مسلم بن عقبة .

وكان يقول لمن يشته : ان كنت كما قلت فاسأل الله ان يغفر لي ، وان لم اكن كما قلت فاسأل الله ان يغفر لك . وكان لا يسأله الا مع رفقة لا يعرفونه ويشرط عليهم ان يكون من خدم الرفقه فيما يحتاجونه ، ويقول اكره ان آخذ برسول الله مالا اعطي مثله .

وكان يابى ان يؤاكل امه ، فقيل له يا ابن رسول الله انت ابر الناس واوصلهم للرحم فكيف لا تؤاكل امك ؟ فقال اني اكره ان تسقى يدي الى ما سبقت اليه عينها . وكان يعجبه ان يحضر طعامه اليتامي والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم ، وكان يناولهم بيده . ومن كان منهم له عيال حمل الى عياله من طعامه .

### كانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية

وقد اتخذ من المسجد ومن بيته مكانا يلتف فيه حوله طلاب العلم الوافدون من كل مكان ، وكانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية ، فمنذ سنة ٩٦١ هـ الى سنة ٩٥ ، اي طيلة خمس وثلاثين سنة كان منزله وكان المسجد مدرستين يزدحم فيها الطالب عليه ، فبينما كانت الدولة مشغولة باستبدادها واستنزاف دماء الشعب وسلب امواله واضطهاد احراره ، كان علي بن الحسين مشغولا بنشر العلم وبث الثقافة وانارة الافكار وتهذيب

الأخلاق . نذكر تلاميذه والاخذون عنه في انواع العلم . واصبح  
لنك التلاميذ وتلاميذهم مسلفو بناء الحضارة الاسلامية  
رئيبة رجال الفكر الاسلامي والتشريع والادب .  
ولقد اخذ عنه علماء للحجاج ومن يأتي من البلاد  
البعيدة والقريبة في مواسم الحج ودونوا ما اخذوه عنه  
ورواه عنهم الناس .

فممن روى عنه او روى عنمن روى عنه : الزهرى،  
وسفيان بن عيينة ، ونافع ، والاوzaعى ، ومقاتل ،  
والواقدى ، ومحمد بن اسحاق ، والطبرى ، وابن البيع ،  
واحمد بن حنبل ، وابن بطة ، وابو داود ، وصاحب  
الخلية ، وصاحب الاغانى ، وصاحب قوت القلوب ،  
وصاحب شرف المصطفى ، وصاحب اسباب النزول ، وصاحب  
الفائق ، وصاحب الترغيب والترهيب وغيرهم .

ومن رجاله من الصحابة جابر بن عبد الله الانصاري،  
وعامر بن وائلة الكنائى ..

وممن التابعين سعيد بن المسيب ، وابو  
محمد سعيد بن جبير ، ومحمد بن جبير بن مطعم ،  
وابو خالد الكابلي ، والقاسم بن عوف ، واسماعيل  
ابن عبدالله بن جعفر ، وابراهيم والحسن ابا محمد  
بن الحنفية ، وحبيب بن ابى تابت ، وابو بحبي  
الاسدي، وابو حازم الاعرج ، وسلمة بن دينار . ومن اصحابه  
ابو حمزة الشمالي، وفرات بن احنف ، وعلى بن رافع، وابو محمد  
القرشى السدى الكوفي ، وجابر بن محمد بن ابى بكر  
وایوب بن الحسن ، والضحاك بن مزاحم الفراسى ،

وطاوس بن كيسان ، وحميد بن موسى الكوفي ،  
وابان بن تغلب ، والفرزدق الشاعر وغيرهم .

### **مؤلفاته**

من آثاره المدونة والتي تعتبر من اوائل التأليف في  
صدر الاسلام :

١ - الصحيفة الكاملة . وقد استنسخ الناس منها قبل  
عهد الطباعة نسخا لا تعد ولا تحصى بالخطوط الجميلة  
النادرة المثيل والمزينة بجداول الذهب . اما في عصور  
الطباعة فقد طبعت طبعات كثيرة .

وشرحها العلماء شروحًا عديدة منها شرح بهاء الدين  
العاملي المسمى حدائق المقربين . واحسن شروحها  
شرح السيد علي خان الشيرازي .

وهذه الصحيفة كانت منها نسخة عند ولده زيد الشهيد  
ثم انتقلت الى اولاده والى اولاد عبدالله بن الحسن .  
مضافا الى ما كان عند الامام محمد الباقر .

وتعتبر من اعلى درجات البيان العربي بأسلوبها  
ومعانيها ، وهي حرية بدراسات واسعة .

٢ - رسالة الحقوق ، وهي من الاعمال الفكرية  
السامية في الاسلام تحتوي على توجيهات ودراسات  
وتعليمات وقواعد في السلوك العام والخاص من ادق ما  
يعرفه الفكر الانساني .

### **الزعيم الشعبي**

ان المزايا التي كان يتمتع بها هذا الامام جعلت منه

زعيمًا شعبيًا محبوبًا إلى أقصى حدود الحب ، مهابا  
إلى أعلى درجات المهابة . والحادثة الآتية وحدها دليل  
على ما كان يكتنله الشعب من حب واحترام وتقدير .  
فقد حج هشام بن عبد الملك ، وهو الرجل الثاني  
في الدولة ، فطاف بالبيت ، وجهد أن يصل إلى الحجر  
الأسود فيستلمه فلم يستطع لشدة الزحام ، فنصب له منبر  
وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه حواشيه واتباعه ،  
اذ اقبل علي بن الحسين فطاف بالبيت ، ولم يكدر  
يطل بطلعته على الجماهير المحتشدة حتى تلمعت  
بابصاراتها إليه ترمقه بنظرات الحب والتقدير والاعجاب  
ثم افرجت له بين صفوفها محدقة به احداث الاجلال  
والاكبار . فقال رجل من حاشية هشام من هذا الذي قد هابه  
الناس هذه الهيئة ؟ فقال هشام متباهلا : لا اعرفه . وكان  
الشاعر الفرزدق حاضرا ، فاوحى له هذا المشهد وهذا  
التساؤل بقصيدة من احسن شعره قال فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقى الطاهر العلام

سهل الخلقة لا تخىء بوادره

يزينه اثنان حسن الخلق والكرم

حمل اثقال اقوام اذا مدوا

رحب الفناء اريب حين يعتزم

يكاد يمسكه عرفان راحتـه

ركن الحظيم اذا ما جاء يستظم

وليس قمولاك من هذا بضائره  
العرب تعرف من انكرت والجم

وقد جرت هذه القصيدة بلاء على الفرزدق اذ  
امر هشام يحبسه في عسفان بين مكة والمدينة .  
وارسل اليه زين العابدين بمبلغ من المال فرده  
وقال انسما قلت ما قلته غضبا لله ورسوله فاما  
آخذ عليه اجرا . فقال الامام نحن اهل بيت لا  
يعود علينا ما اعطيتنا . فقبله الفرزدق .

## جعفر الصادق

قال الحسين بن علي الوشاء وهو يتحدث عن جعفر الصادق : « ادركت في هذا المسجد — يعني مسجد الكوفة — تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد ». ويقول المؤرخ الهندي السيد امير علي : « ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاليه فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي ترجم تلك الحركة هو حفيض علي بن ابي طالب المسمى ( جعفر ) واللقب ( بالصادق ) وهو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل ، ملم كل الالام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من اسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية اولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الاتحاء القاسية » .

هذا قولان لورخيين واحد قديم وواحد حديث تقع بينهما اقوال لا تحصى لورخيين مروا تباعا من هاتيك العهود البعيدة الى هذا العهد القريب ، وكلها تطبق على ما كان عليه جعفر الصادق من تميز في العلم والفكر والتوجيه السليم والقيادة الحكيمية .

وكي يقول المؤرخ القديم انه ادرك تسعمائة شيخ في  
مسجد الكوفة يلقون الى طلابهم ما القاه اليهم جعفر  
الصادق من علم ، فان ذلك يعني ان تسعمائة مدرسة كانت  
تتعقد حلقاتها في المسجد الجامع مشتملة على طلاب من  
اقطار شتى ، وافدين الى الجامعة الكبرى للتزود بالعلم  
الغزير والمعرفة الواسعة . ويوم نعلم ان رجلا هو مصدر  
التحقيق لتسعمائة مدرسة عالية فأنا ندرك ما كان عليه  
هذا الرجل من الاحاطة والشمول والحنكة .

### عصر الامام الصادق

ولد جعفر الصادق في المدينة العام الثمانين او الثالث  
والثمانين للهجرة وتوفي فيها سنة ١٤٨ وعمره ٦٥ او ٦٨  
سنة عاش فيها مع جده الامام علي بن الحسين ١٢ سنة  
واياما او ١٥ واياما ومع ابيه الامام محمد الباقر بعد جده  
١٩ سنة وبعد ابيه ٣٤ سنة .

وهي بقية ملك هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد  
ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الامويين .  
والسفاح العباسى وتوفي بعد انقضاء عشر سنين من  
ملك المنصور العباسى .

### امرقه

هو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي  
ابن ابي طالب وامه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابى  
بكر وامها اسماء بنت عبد الرحمن بن ابى بكر . ولذلك كان

يقول الصادق : لقد ولدني ابو بكر مرتين .

### **ثقافته**

لعل اول ما يتبارى الى الذهن عند ذكر الامام الصادق ان ثقافته لا تتجاوز المجال الديني ، ولا تتعدى التفسير والحديث والفقه وما الى ذلك مما لا بد منه لامام في مثل منزلة جعفر الصادق ، يفترض فيه ان يكون عارفا بكل ما له ارتباط باحكام الشريعة ومشاكلها ..

ولكن الامر كان عند الصادق اوسع من هذا ، فقد احاط احاطة كاملة بعلوم شتى تتجاوز الفقه وما اليه وتشتمل على جوانب متعددة من علوم مختلفة كانت في عهده قمة الثقافات العالمية . ثم اخذ في تأسيس المدارس المستندة على هذه العلوم فرأينا بين خريجي معاهده : الفقيه والمحدث والمفسر والفيلسوف والرياضي والكيماوي والطبيب والشاعر والكاتب والمثقف ثقافة عامة .

وهذا ما جعل ابن حجر يقول في كتابه ( الصواعق ) : نقل الناس عن جعفر بن محمد من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان .

وجعل الدكتور يحيى الهاشمي يقول : ان اسم جابر ابن حيان الكوفي ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة ارسسطو في تاريخ المنطق ولم يكن لجابر استاذ غير الامام الصادق . والعالم الغريسي هوليارد يقول : ان جابرا هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه وقد وجد في امامه الفذ سندا ومعينا ووجهها لا يستفني عنه وقد سعى جابر لان يحرر

الكيمياء بارشاد استاذه من اساطير الاولين التي علقت بها من الاسكندرية فنجح في هذا السبيل الى حد بعيد . العوامل التي جعلت للصادق كل هذا الاثر حتى ادت الى ان مذهب اسلاميا كبيرا ينسب اليه فيقال عنه المذهب الجعفري ، في حين ان جعفر الصادق هو واحد من عدة ائمة لهم من المنزلة مثل ما لجعفر الصادق ولاقوالهم من التقدير نفس ما لاقوله .

العوامل التي ميزته هو فجعلت لاسمه هذا الذى وع واجبته هذه النسبة اليه هي انه عاش في فترة كان فيها اثر السلطة ضعيفا فهى لا تقوى على الاستمرار في اضطهاد الاراء وتكميل العلماء ، فكان له حرية نسبية ادت به الى الانطلاق العلمي الواسع الذي شهدنا اثره .

فقد عاش كما رأينا في اواخر الدولة الاموية في بقية ملك هشام بن عبد الملك ومن تلاه من الامويين ، وفي هذه الفترة كانت الدولة قد اخذت بالانحلال وكان بعضها قد اخذ يأكل ببعض فانشغلت بنفسها عن غيرها فتنفس الناس بعض التنفس ، واطل بعض النور متسللا من بعض المنافذ ، فشهادنا بروز العديد من العلماء الذين كانوا ياضطهاد من قبل يأخذ عليهم كل سبيل . فرأينا في التفسير والنسب امثال محمد بن السائب الحلبي والسدّي الكبير اسماعيل بن عبد الرحمن وابي حمزه الشمالي . وفي الفقه والحديث امثال الامام ابى حنيفة وتلميذه ابى يوسف والامام مالك بن انس ومحمد بن عبد الرحمن بن ابى ليلى وفي علوم اللغة امثال معاذ بن مسلم الهراء الكوفي واضع علم الصرف،

وفي الفلك نوبخت وبنيه . وهذا يشمل كذلك اوائل الدولة العباسية ايام السفاح واوائل عهد المنصور حيث كانت الدولة متفرغة لتركيز قواعدها وتنبيه امورها . ولها في هذا ما يصرفها عن اضطهاد الفكر والمفكرين ، كما وقع بعد ذلك لابني حنيفة وغيره من الائمة والعلماء .

هذه الحرية النسبية مكنت الصادق من ان ينطلق في ميدان رحب ويعكف على نشر العلم ويدلي باراء اهل البيت النبوي في التشريع والتوجيه فكانت مدرسته الكبرى التي خرج منها الاساتذة التسعة الذين تولوا انشاء جامعة الكوفة والتدريس فيها ، ثم كانت تلك النهضة العلمية العظيمة التي شملت العالم الاسلامي كله .  
يقول الشيخ الازهري الاستاذ ابو زهرة :

« ما اجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر ، كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه ، فائمة السنّة الذين عاصروه تلقوا عنه واخذوا ، اخذ عنـه مالـك واخذ عنـه طبقة مالـك كـسـفيـان بن عـيـينـه وـسـفـيـان الثـورـي وـغـيرـهـمـ كـثـيرـ ، واخذ عنـه ابو حـنـيفـةـ معـ تـقـارـيـبـهـماـ بالـسـنـ وـأـعـتـبـرـهـ اـعـلـمـ النـاسـ لـانـهـ اـعـلـمـ النـاسـ باـخـلـافـ النـاسـ »

### **مدرسة الصادق**

كانت المدينة هي مقر مدرسة الصادق واتخذ من المسجد النبوى مكانا للتدريس فلقيت الوفود إليها من كل مكان ، ويذكر الرواية ان عدد المترميين إليها بلغ الاربعة الالاف من اهل العراق والجaz وخراسان والشام وفيهم من كبار

العلماء والفقهاء والمحثين الذين أصبحوا أئمة ومؤسسین لذاهب اسلامیة ، كما فيهم الشعراء والادباء .

وعک طلاب الصادق علی التأليف وتدوین العلوم، فالف ابیان بن تغلب ( معانی القرآن ) والف المفضل بن عمر كتاب ( التوحید ) والف جابر بن حیان كتابه في الكیمیاء . كما انصرف غیر هؤلاء الى التأليف امثال زرارة بن اعین وابی بصیر ومحمد بن مسلم واسماعیل بن ابی خالد وامثالهم حتى بلغ عدد المؤلفات اربعمائہ کتاب لاربعمائہ مؤلف من تلامیذ الامام الصادق .

وكان يحضر طلابه علی التأليف ويحرضهم على التدوین اذ لم يكن التأليف متصلاً في البيئات الاسلامیة ، بل لا يکاد يكون معروفاً ، وكان نادر العدوث . فكان من منهج الصادق الحث عليه لترسخ قواعده ويفدو مبدأ عاماً ، فكان يقول مثلاً لاصحابه : اكتبوا فانکم لا تحفظون حتى تكتبوا وقال للمفضل بن عمر : اكتب وبيث علمک في اخوانک ، فان مت فوراً ثکبک بنیک . وقال لاصحابه : احتفظوا بكتبکم فانکم سوف تحتاجون اليها . فانکم سوف تحتاجون اليها . وهکذا يمكن القول انه هو واسع اساس في التأليف في الاسهام .

کما كان يعني بتخريج الكتاب والشعراء فمن اشتهر من الشعراء في عصره وبعضهم كان من مادحیه : السيد الحمیری وابن الحمیری والکمیت وابنه المستهل واخوه الورد وابو هریره البار وابو هریرة العجلی وجعفر بن عفان والعبدي وسلیمان بن قته العدوى وسدیف وابراهیم بن

## هرمة ومنصور النمري .

ويرى بعض الباحثين ان اسباب نجاح مدرسة الامام الصادق هذا النجاح العظيم يعود الى ثلاثة عوامل :

- ١ - شخصية جعفر الصادق .
- ٢ - المحتوى الفكري للمدرسة .
- ٣ - جذور المدرسة الفكرية .

فمن ناحية المحتوى الفكري فان محتواها يمتاز بالتماسك الفكري الوثيق والترابط فيما بين افكارها واتجاهاتها ومثل هذا التماسك يشد اتجاهات المدرسة بعضها الى بعض و يؤدي الى الالتزام باي جزء منه الى الالتزام بالجزء الاخر فالمدرسة الجعفريه مثلاً فتحت باب الاجتهاد و تركته مفتوحاً ، وقد كان لهذا العامل تأثير كبير على نمو المدرسة بعد عصر الصادق .

اما جذور المدرسة الفكرية فليس الصادق في الحقيقة هو المنشئ الاول للمدرسة ، بل ان الائمة من آبائه هم المؤسسين الاول ، ولكن المدرسة انطلقت في عهده انتلاقها اناوسع .

منذ عهد الامام زين العابدين علي بن الحسين كانت المدرسة قد تركزت وامتدت اثارها الى جميع انحاء العالم الاسلامي - كما رأينا في مقال سابق - ثم جاء الامام محمد الباقر بن علي بن الحسين ، فمضت المدرسة في طريقها الصاعد مؤلبة حولها رواد العلم من كل مكان ، بالقدر الذي سمح لها به الجو الارهابي المسيطر ، ولما تولى الزمام جعفر الصادق ، وكانت ظروف الدولة

لا تسمح لها بالتضييق الشديد استطاع الصادق ان يفعل ما فعل .

### **المبادئ الكبرى التي اعتمدتها الصادق**

١ - كل ما فيه خير للمجتمع فهو حلال ، وكل من اضطر الى شيء فهو له مباح ، فالجائع الذي تضيق به سبل العيش لا يعاقب على السرقة ، والمدين الذي يعجز عن الوفاء لا يحبس ولا يحجز له ما لا بد له منه من مسكن وملبس .

٢ - لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للالتزام واللتزام بما له وما عليه . والشرط الرئيسي لصحة الالتزام واللتزام ان يكون العمل حقا للملزم وسائلها في نفسه لا يستدعي ضررا على من الزم او التزم ولا على غيرهما . فكل معايدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين او تضر بهما او باحدهما او بغيرهما او تكون مجحولة الحقيقة فهي تضليل يجب القاؤها . وكل تجارة او زراعة او صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة . وكل من نذر او اقسم او عاهد الله ان يفعل ما يصربه ، وبغيره فنذره وقسمه وعهده لغو .

٣ - في الفقه : شدد في الطلاق واشترط فيه حضور شاهدين عدلين ، وان يجري عند مرجع صالح بصيغة معينة ، وضيق دائرة الى اقصى الحدود بفرضه القيد وصارمة على المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق وشهوده . ولم يجز وقوع الطلاق ثلاثة بلفظ واحد .

وفي القضايا الاخرى لم يأخذ بالقياس واجاز الوصية لوارث واعتمد في الارث قاعدة الاقرب فالاقرب فجعل

الاولاد والاباء اولى بالارث من الاخوة والاجداد ، والاخوة اولى من الاعمام والاخوال . فالذين عنده تحجب عنهم كما يحجبه الابن من غير فرق . وكذلك اعتمد نفس القاعدة في النقوص(١) .

٤ - الثقة بالانسان ، فقد جاء في اقواله : « بنى الانسان على خصال فمهما بنى عليه فانه لا يبني على الخيانة والكذب » .

وكل من يدين بدينه يرتب على اعماله اثار الصحة ما دامت موافقة لما يعتقد ، وان خالفت الاسلام .

### الصادق رائدا اجتماعيا

اذا كان الصادق قد عني بالتعليم فهو لم يهمل التربية بل قد عني بها اشد عناية ، وكانت تربيته من نوع التربية الاجتماعية التي تحاول ان تخلق مجتمعا كريما اصيل الاخلاق متماسك الجوانب ، ويمكن تلخيص منهجه بهذه الجملة التي قالها لاصحابه فيما كان يقول لهم من مناهجه التربوية : (كونوا زينا اذا ولا تكونوا شيئا علينا ليقول الناس رحم الله جعفر بن محمد ، لنعم ما ادب اصحابه ) .

وقال لهم : اوصيكم بتقوى الله واداء الامانة لمن اثمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وان تكونوا لنا دعاة صامتين . فقالوا : وكيف ندعوا ونحن صامتون ؟ قال : تعملون

بما امرنامكم به من العمل بطاعة الله وتعاملون الناس بالصدق والعدل وتؤدون الامانة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، ولا يطلع الناس منكم الا على خير ، فماؤذا رأوا ما انتم عليه علموا فضل ما عندنا فتقازعوا اليه .

وله في النهي عن التعصب والعصبية قول هو خير ما يقال في هذا الموضوع ، بل لو انه اتخذ مبدأ انسانيا ونفذ على حذافيره على نطاق عالمي واسع سواء بين الافراد او الجماعات والدول لنجدة الانسانية من كثير من الشرور التي لا يبعثها الا التعصب الاعمى .

قال : ( ليس من العصبية ان تحب اخاك ولكن العصبية ان ترى شرار قومك خيرا من خيار غيرهم )

وقد بدأت في عصره تطفى الروح الانهزامية في المجتمع بدعوى الزهد والايغال في التصوف والاستفرار به استغراقا يخرجه عن حقيقته الخيرة . لذلك كان يبحث على الجدية في الحياة ، والكافح من اجل العيش الكريم . فكان من اقواله في ذلك : ( ان الله يحب الجمال والتحمل ويبغض البؤس والتباويس ، فان الله اذا انعم على عبده بنعمة احب ان يرى عليه اثرها ) ، قيل له كيف ذلك ؟

قال : ينظف ثوبه ويطيب ريحه ، ويحصل داره ويكتس افنيته .

وقد كان كثيرا ما يحلّي وعظه بالنكتة والطرفة كما قال حين مر به رجل وهو يتغدى فلم يسلم ، فدعاه الى الطعام ، فقيل له : السنة ان يسلم ثم يدعى ، وقد ترك السلام على عمدة فقال : هذا فقه فيه بخل .

وكانت انسانيته تبلغ اسمى الحدود . فقد دخل عليه مرة سفيان الثوري فرأه متغير اللون فسألة عن ذلك ، فقال : كنت نهيت ان يصعدوا فوق البيت ، فدخلت فإذا جارية من جواري ممن تربى بعض ولدي قد صعدت في سلم والصبي معها ، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيرت وسقط الصبي في الارض فمات . فما تغير لوني لموت الصبي وانما تغير لوني لما ادخلت عليها من الرعب . وكان قد قال لها مرتبين : انت حرقة وجه الله لا بأس عليك .

### الصادق والشمر

لقد مدح جعفر الصادق بشعر كثير ومن اشهر مدائحه السيد الحميري ومما قيل فيه ما قاله عبدالله بن المبارك :

انت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء  
انما الاشراف ارض ولهם انت سماء  
جاز حد المدح من قد ولدته الانبياء  
على انه هو نفسه كان يقول الشعر احيانا فمن ذلك  
قوله :

لا يسر يطرونا يوما فيطرننا  
ولا لازمة دهر نظهر الجزعا  
ان سرنا الدهر لم نبهج لصحته  
او ساعنا الدهر لم نظهر له الهمعا  
مثل النجوم على مضمار اولنا  
اذا تفيف بنجم آخر طلما

وفي البيت التالي دلالة على الحياة العلمية  
التي كان يحياها مع تلاميذه بين الاملاء والتدوين  
والتأليف مما لا بد فيه يومذاك من وصول المداد الى  
الانامل والايدي والملابس :

لا تجزعن من المداد فأنه

عطر الرجال وحلية الاداب

ولما مات وحمل الى البقيع انشد ابو هريرة العجلی:  
أقول وقد راحوا به يحملونه

على كاهل من حامليه وعاتق

اتدرؤن ماذا تحملون الى الثرى

ثبرا ثوى من رأس علياء شاهق

غداة حثا الحاثون غوق ضريحه

ابا واولى كان فسوق المفارق

## الخليل بن احمد الفراهيدي

### مدون اللغة العربية

المبدعون في كل امة قلة يوجد بهم الزمن بين الحين والحين . وفي تاريخنا بعض من هؤلاء من عاشوا لمبدأ ولرأي ول فكرة ، زاهدين ببهارج الحياة وزيف العيش ، مما يغري غيرهم .

وفي الذروة منهم الخليل بن احمد الفراهيدي(١) الذي اسبغ على اللغة العربية من الفضل ما جعله من اخالد الخالدين في تاريخنا العلمي .

### الفقر والحرمان ثم الرحيل

ولد الخليل في البصرة سنة ١٠٠ هجرية وتوفى سنة ١٦٠ . وفي قول انه عاش اربعين وسبعين سنة . ومضت حياته الاولى في مسقط راسه كفاحا في سبيل العلم وانكبابا على البحث والدرس ، مع فقر طاغ يهد العزم ويقصم الظهر ، فرأى ان يترك البصرة الى بلد آخر يستطيع ان يجمع فيه بين ما هو في سبيله من انصراف الى المعرفة وبين ما يكفل له العيش الكريم ، وامضى في ذلك عزمه ودنا

١ - الفراهيدي : نسبة الى فراهيد بطن من ازد عمان .

يوم نزوحه عن البصرة ، وعلم البصريون بذلك فخرج لتشيعه ثلاثة الاف رجل ما فيهم الا محدث او لغوي او اخباري ، فلما صار في المربد ، قال يا اهل البصرة : يعز علىي مراقتكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلاء(٢) ما فارقتك ..  
ويعلق على ذلك مؤرخ بقوله : فلم يكن فيهم من يتکفل له بذلك .

فانت ترى ان الذين اهمهم رحيله و ساعتهم هجرته لم يكونوا الا من صنفه علماء يعيشون للعلم والفكر ، فليس فيهم صاحب سلطان ولا كانز اموال ، ولعل هؤلاء الشيعة لو استطاعوا الرحيل مثله لرحلوا هم ايضا كما رحل . ولذلك لا مجال للعتب عليهم بان لم يوجد بينهم من يتکفل له كل يوم بكيلجة باقلاء ، واذا شئنا التعبير باصطلاحنا الحديث قلنا : من يتکفل له ( بطبق من الفول ) .

هكذا كانت تمضي حياة المفكرين والعلماء في ظل الحكم الفردي الاستبدادي الغاشم الذي انتهى اليه العالم الاسلامي منذ العام «٤١» الهجري وهكذا كان رجل مثل الخليل بن احمد لا يستطيع ان يجد في يومه كيلجة باقلاء ، ولا يستطيع واحد من ثلاثة آلاف عالم ان يضمن له ذلك .  
واننا لنطاطيء ابدا لرأي اجلالا لأولئك العلماء في تلك العصور الذين استطاعوا ان يصدوا للطفيان ويصبروا على الحرمان هيكونوا هم وحدهم مظهر حضارتنا وحقيقة تاريخنا . واذا كان لنا ما نفاخر به في ماضينا فهو تراثهم الذي خلفوه وكفاحهم الذي واصلوه اما المتسلطون منهم سببنا

التي منها نبرا .

### في خراسان

مضى الخليل عن البصرة مفذا السير حتى انماخ في  
خراسان ، ويقول مؤرخ : « فأنفاد فيها اموالا » . وهنامتساعل  
عن حقيقة هذه الاموال وعن مصدرها ؟  
اكبر الظن انها انما تعد اموالا بالنسبة لما كان  
فيه بالبصرة ، لا بالنسبة الى ما يمكن ان تكون عليه الاموال  
واما سببها فهو قطعا سبب كريم .

ودليلنا على ذلك ان سليمان بن علي والي الاهواز  
ارسل الى الخليل طالبا اليه ان يؤدب له ولده ، فاخبر  
الخليل لرسول سليمان خبرا يابسا وقال ما دمت اجدك فلا  
حاجة لي الى سليمان فقال الرسول بما ابلغه عنك ؟  
 فقال :

ابلغ سليمان اني عنه في سمعة  
وفي غنى غير اني لست ذا مال  
شحا ببنيتي ، اني لا ارى احدا  
يموت هزا ولا يبقى على حال  
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه  
ولا يزيد ك فيه حول محتمل  
والفقر في النفس لا في المال تعرفه  
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال (١)

لقد رفض الخليل دعوة والي الاهواز وما فيها من الرفاه والنعيم لانها ستنبعد نفسه وتقيد فكره وتجمله واحدا من حاشية المسيطرین ، وهو قد اعد نفسه لما هو اسمى من ذلك ۰۰۰

ويزيد مؤرخ آخر على ما مر ناسبا القصة لا الى سليمان بن علي بل الى سليمان بن حبيب الاذدي والي فارس والاهواز ، ويقول انه كان قد عين للخليل راتبا ، ثم كتب اليه يستدعيه مكتب الخليل جوابه الابيات المتقدمة فقطع عنه سليمان الراتب(٤) فانشد الخليل هذين البيتين :

ان الذي شق فمي كافل  
للرزق حتى يتوفاني  
حرمنتني مالا قليلا فما  
زادك في مالك حرمانني  
فبلغ البيتان سليمان مكتب اليه يعتذر واضعف له  
الراتب فقال الخليل :  
وزلة يكثر الشيطان ان ذكرت  
منها التعجب جاءت من سليمانا  
لا تعجبن لغير زل عن يده  
فالكوكب النحس يسقي الارض احيانا  
وهكذا نرى ان الوالي عين راتبا للخليل  
اما باي يغريه باي يصبح من الاتباع المشيدين به فارسل  
يستدعيه فرفض الخليل الدعوة لانه يعلم مرماها ، ولما

ذهبت الغاية من دفع المال قطعة الوالي ، ولما سمع  
الشعر خاف مغبة الهجاء فعاد يضاعف المال اتقاء للهجو  
لا تقديرًا للعلم

ومن العجب ان هذا الفقير القانع كان بعلمه سبب  
الفنى للناس وهو في نقره وخصاصته . قال النضر بن  
شميل : اكلت الدنيا بعلم الخليل بن احمد وكتبه وهو فسي  
خص لا يشعر به . وقال ايضا : اقام في خص بالبصرة لا  
يقدر على فلس ، وعمره قد انتشر وكسب به اصحابه  
الاموال .

ويصفه النضر قائلا : كان الخليل اشعث الرأس شاحب  
اللون شعث الهيئة منخرق الثياب منقطع التدمير مغمورا  
في الناس لا يعرف .

وانها لأسأة العلم في تلك العصور ان يكون مثل هذا  
العالم العظيم على هذه الصورة الشوهاء من شحوب  
وتشعث وانحراق وتقطيع ، وان يزويه الفقر والحرمان فيجهل  
مكانه ولا تعرف مكانته .

## الشكل

لم يكن الخط في صدر الاسلام معجما ولا مشكولا . ولما  
فشا اللحن وفسدت السلاطق كان لا بد من معالجة ذلك  
بوسيلة ما فابتكر ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ  
طريقة توضع صحة الكلمة فجعل علامات للحركات الثلاث ،  
 يجعل علامه الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته ،  
 والضمة نقطة بين يديه وجعل التنوين نقطتين .

ولجعل الحركات بارزة للقارئ فضل ان يكتبها بمداد يخالف المداد المكتوبة به الكلمات . ولا يزال مثال لهذا التشكيل موجودا في قرآن منسوب الى خط علي بن ابي طالب عليه السلام تحفظ به المكتبة الرضوية في مدينة مشهد بإيران ۰۰

وحتى هذا الوقت لم يكن في الكلمات من اعجم غلم يلتبس الامر على القارئ ، ولكن لما وضع بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر نقط الاعجام اشتبه الحال لعدم امكان التمييز بين نقط الاعجام ونقط الشكل ، فكان لا بد من حل ، فكان الخليل بن احمد صاحب الحل حيث وضع الشكل بصورة المعروفة حتى اليوم واضاف اليه اشاره المد واثارة الشدة ، كما وضع اشاره خاصة للهمزة ولالف الوصل . فكان مجموع ما ابتكره ثمانى علامات ، كلها حروف صغيرة او بعض حروف بينها وبين ما دلت عليه اجلی مناسبة بخلاف علامات ابي الاسود فانها مجرد اصطلاح لم يكن على مناسبة بين الدال والمدلول ..

وقد الف الخليل كتابا مفصلا في هذا الموضوع ، ولا تزال قاعدته هي المعمول بها لم يزد عليها احد شيئا .

## العروض

علم العروض مما ابتكره الخليل ولم يسبقه اليه سابق ، وقد ملا بوضع قواعده هذا العلم فراغا في اللغة العربية كان من الواجب ملؤه ، فقد كان الشعر بدون قواعد تربط اوزانه وتحدد اركانه ، فحصر الخليل اقسامه في خمس

دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا .

ومن اروع ما في هذا الموضوع انه جاء دقيقا كاملا لم يستطع احد بعده ان يستدرك عليه شيئا او يزيد امرا ، اذا استثنينا من ذلك البحر الذي زاده تلميذه الاخفش وسماء (الخبب) على ان لهذا البحر اصلا عند الخليل .

ومن الطرائف التي وقعت له وهو يعاني تركيز بحور الشعر ان ولدا له دخل عليه وهو يقطع بيته من الشعر فذعر مما سمع وخرج الى الناس يقول ان اباه قد جن . وقرأ رجل عليه العروض فلم يفهم فقال له الخليل : قطع هذا البيت :

اذا لم تستطع امرا فدعا

وجاؤه الى ما تستطيع

قال الخليل : فشرع الرجل في تقطيعه على مبلغ علمه ثم قام فلم يرجع الى . فعجبت من فطنته لما قصته في البيت مع بعد فهمه .

## المسيقى

هذا الفقير المعدم المنصرف الى البحث والكشف لم ينس الموسيقى فجعلها بعض همه مالف فيها كتابا جمع فيه اصناف النغم وحصر انواع اللحون وحدد ذلك كله ولخصه وذكر مبالغ اقسامه ونهايات اعداده ، فصار كتابه المرجع العربي الاول لكل طارق لهذا الموضوع . وقال بعض الباحثين ان مهارة الخليل في علم الالحان هي التي اعانته على علم العروض .

## كتاب العين

كما انه لم يكن في اللغة العربية حتى عصر الخليل قواعد للشكل والعرض ولم يكن فيها مؤلفات في الموسيقى ، كذلك لم يكن فيها معاجم لمعرفة صحة الكلمات ومعانيها . بل الاصح ان نقول ان اللغة العربية لم تكن مدونة قبل الخليل ، فهو المدون الاول لها وواضع اول معجم فيها . ومن بعد الخليل جاء الاذهري ، فألف كتاب التهذيب ، وابن سيده فألف كتاب الحكم ، ثم الجوهرى فألف كتاب الصحاح ، واذا كان المؤلفون لم يزيدوا شيئا على ما وضع الخليل في الشكل والعرض فان كتب اللغة اخذت بعد الخليل بالتطور والتحسين حتى كان كتاب الصحاح المتقدم ذكره مكان اسهل ترتيبا لانه راعى ترتيب الحروف الهجائية في اول الكلمة وآخرها وتبعه المؤلفون على ذلك . واستغنى الناس بهذا عن كتاب العين ، ولكن بقى فضل الابتكار للخليل .

### خطه في كتاب العين

كان السبب في تسمية الكتاب بالعين ان الخليل احتار باي حرف يبدأ كتابه ، اذ كان عليه ان يبدأ بحرف الالف ثم ما يليه من الحروف ، ولكنه رأى ان حرف الالف حرف معتل فلم يجز الابتداء به ، ولما فاته حرف الالف وهو اول الحروف كره ان يجعل الثاني او لا وهو الباء الا لسبب ، وبعد استقصاء وجد ان مخرج الكلام كله من الحلق فجعل اولاها بالابتداء به ادخلها في الحلق ، وقد وجد ان العين اقصاها في الحلق ،

فجعل حرف العين الحرف الاول ، ثم ما قرب مخرجه منها  
بعد العين .

ويبدو ان الكتاب سمي كتاب ( العين ) لأن اول حرف  
كان فيه هو حرف العين ، ولكن من غير المعلوم ما اذا كان  
هو نفسه سماه هذا الاسم ام ان بعض من جاء بعده  
هو الذي سماه .

### ضجة حول كتاب العين

لم يسلم هذا الكتاب من تنازع فيه ، فقد وجد من يقول  
انه ليس للخليل اصلا ، ومن يقول انه ابتدأ به واكمله غيره  
وان كل ما له فيه هو ما جاء عن حرف العين وان الليث بن  
نصر بن سيار هو الذي اكمله .

والذين قالوا هذا القول ررووه بحكايات مختلفة ، ومما  
قيل في ذلك : ان الخليل كان منقطعًا الى الليث بن رافع  
بن نصر بن سيار ، وكان هذا اديبا بارعا يكتب للبرامكة ،  
فاهداه الخليل كتاب العين ، فعكف عليه مطالعة وتنقيبا ،  
واشتري يوما جارية جميلة اغارت زوجته فارادت هذه  
اغاظته فلم تجد اجدى من ان تتلف الكتاب الذي كان لا  
يفارقه فاحرقته ، وان الليث اعاد كتابة نصف الكتاب — وكان  
الخليل قد مات — من حفظه ، واجتمع مع فريق من الادباء  
على اكمال الباقي على نسق النصف الاول (٥) وقتلت  
اقوال كثيرة غير هذا .

على ان هذه الاقوال لا تكاد تثبت امام النظر الثابت المنشق . وقد اجتهد فريق من العلماء في الاستدراك على الكتاب ، كما فعل ابو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب الذي كتب ( فائت العين ) وابو غالب ابن التبانى الذي كتب ( فتح العين ) وغيرهما . كما ان هناك من الف مدخل له وهو النضر بن شمبل ، ومن اختصره وهو محمد بن الحسن الزبيدي وابو الحسن علي بن القاسم الخوافى .

### مؤلفات اخرى للخليل

للخليل العديد من المؤلفات ومعظمها يدخل ضمن المواضيع التي استنبطها . من ذلك : ١— كتاب زيدة العروض توجد منه نسخة خطية في المكتبة الفاسللة بايران ٢— كتاب في الامامة ٣— كتاب الایقاع ٤— كتاب النغم ٥— الجمل ، اي جمل الاعراب في النحو ٦— الشواهد ٧— النقط والشكل ٨— كتاب في معانى اسماء حروف الهجاء ، ومنه نسخة في مكتبة لندن ونسخة في مكتبة برلين . وهذا الكتاب طريف ، اذ انه اشار فيه الى ان لكل حرف من حروف الهجاء معنى خاصاً فمعنى التاء مثلاً : البقرة تحلب يقول الشاعر :

انا فارس الهيجاء في كل حومة  
وانت ابن تاء تحلب التاء دائمًا  
ومعنى الراء : القراد . ومعنى الزاي الرجل  
الاكول . قال الشاعر :

اذا اختلف السراة يكون راء  
 وعنده الاكل زاي جنطري  
 ومعنى الصاد : الديك المترغ بالتراب قال الشاعر :  
 وانني اذا ما غبت عني ميتم  
 كأنني صاد في الثرى يتململ  
 ومعنى الذال : عرف الديك ، قال الشاعر :  
 به وهن يلسوح ب حاجبيه  
 كذلك الديك يأتلوق ائتلاقا

وهكذا حتى اتى على جميع حروف الهجاء فيحدد  
 معنى كل حرف . وربما كان هذا الكتاب مستلا من كتاب  
 العين .

### شعر الخليل

كان الخليل شاعرا ويصفه صاحب شذرات الذهب  
 بأنه شاعر مطبوع مفلق ، ويقول آخر انه كان ينظم البيتین  
 والابیات . ومن شعره قوله :

وما هي الا ليلة بمدلية  
 ويوم الى يوم وشهر الى شهر  
 مراحل يدنين الجديد الى البلى  
 ويدنين اشلاء الكرام الى القبر

## الادريسي وخريطة وكتابه

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المتنى بن الحسن بن علي بن ابى طالب من مجزرة فخ الرهيبة لم يكن احد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذى صار لها ..

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنًا تاريخياً كبيراً امتدت اثاره عدة قرن وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير .

وليس القصد من هذه الكلمة تدوين ما قام به ادريس ثم اعتابه من نضال مستميت في سبيل نشر الاسلام في افريقيا وتوطيد قدم المروبة فيها ، فذلك له مكان آخر غير هذا المكان .

ولعل افضل ما قيل عن الدولة الادريسيّة هو ما قاله الدكتور حسين مؤنس : « ما زالت الدولة الادريسيّة تنتظر من يكتب تاريخها ويحدد دورها في بناء المغرب العربي . ولا زال اصحاب كتب التاريخ الاسلامي العام ينظمونها في سلك الدوليات التي تقاسم نواحي المغرب الاسلامي ابتداء من منتصف القرن الهجري الثاني جاعلين ايها صنوا لدولة بنى الاغلب او دولة بنى رسم التاھرتين او حتى دولة بنى مدرار اصحاب

سجلاسة . ويفوتهم في اثناء هذا العرض السريع المتواضع ان يتبيّنوا مكانها كحجر الزاوية في بناء اسلام المغرب وعروبتـه وما قامت به من دور عظيم في مد رقعة الاسلام في شمال المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط – الى ان يقول – : وما بذله امراؤها من جهد في ارساء اسس الاسلام الصحيح وتثبيت دعائم العروبة ولفتـها وثقافتـها في بلد اصبح بفضل الادارسة الدرع الواقـي للجناح الغربي من مملكة الاسلام » ٠

هذا القول الموجز يتضمن حقيقة كبرى من حقائق التاريخ ، ويشير اشارـة بـلـيفـة الى جوهر الامر في واقع الادارـة وحكمـهم في شمال افريقيـا ، ويدعـو دعـوة جهـرة الى العـنـايـة بـتـاريـخ تلك الحـقبـة من حـيـاة الاسلام والعروبة ..

لقد كان من ثمار نجـاهـة ادـريـس ووصـولـه سـالـما الى افـريـقيـا ان نـبغـ من اعـقـابـه انسـانـ فـرـيدـ ، سـادـلاـ بالـسـلـاطـةـ وـالـحـكـمـ ، وـخـلـدـ لـاـ بالـفـتـحـ وـالـقـهـرـ . انسـانـ هوـ فـي تـارـيخـناـ الثقـافـيـ ومـيرـاثـناـ الحـضـارـيـ منـ القـمـ الشـوـامـخـ . ذـاكـ : ابو عبدـالـلهـ مـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ الـادـريـسـيـ ، الـذـيـ اـشـهـرـ باـسـمـ الشـرـيفـ الـادـريـسـيـ ، وـقـدـ يـعـرـفـ بـالـشـرـيفـ الصـقلـيـ الـمـولـودـ سـنـةـ ٤٩٣ـ هـ ( ١١٠٠ـ - ١٠٩٩ـ )ـ وـالـمـجهـولـ سـنـةـ الـوـفـاةـ ، عـلـىـ عـكـسـ مـنـ نـظـائـهـ النـابـفيـنـ الـذـينـ تـجـهـلـ عـلـىـ الـاـغـلـبـ سـنـةـ وـلـادـتـهـ ، وـتـعـلـمـ سـنـةـ وـفـاتـهـ . عـلـىـ اـنـهـ وـجـدـ مـنـ يـنـلـقـشـ فـيـ سـنـةـ الـوـلـادـةـ نـفـسـهـ ، اـذـ اـنـ تـعـيـنـ هـذـاـ التـارـيخـ مـنـسـوبـ لـلـرـاهـبـ الـمـارـونـيـ مـيـخـائـيلـ الـفـزـيرـيـ الـذـيـ

نظم فهرساً لاتينياً لمخطوطات الاسكورياً . وقد ذكر سنة ولادة الادريسي دون أن يحدد المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك ومن هنا وجد من لا يستطيع الجزم بهذا التاريخ . على اننا لا نحسب الغزيري يمكن ان يكون قد تساهل في وثاقة مصادره . بل يمكن ان نعتمد على قوله ، وان كانا نأخذ عليه تهاونه في تعين المصدر .

### **بنو حمود اجداد الادريسي**

هم من احفاد ادريس ينتهيون الى جدهم حمود المتمي نسبه الى مؤسس الدولة الادريسيه واذا كانت الدولة الادريسيه قد قامت في الشمال الافريقي وانتهت فيه ، فانه قام لفرع من فروعها ، فرعبني حمود دولة اخرى لا في افريقيا بل في الاندلس عاشت ردها من الزمن ثم انتهت الى الزوال .

ذلك انه حين كانت الدولة الاموية في الاندلس تمثلي الى نهايتها ، كان في الاندلس اثنان من آل ادريس قدما اليها مع من قدم من البرير ، فاشتهرا فيها وعرفا بما كانوا يبديانه من شجاعة واقدام في مختلف الاحداث ، مما مهد لهما وراثة الدولة الاموية الزائلة .

وكان الادارسة قد تمكن حبهم في قلوب البرير وغدت لهم عليهم رئاسات وزعامات ، كان منها رئاسة الاخويين ، علي والقاسم ابني حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس ، حيث كان ينقاد لهما البرير في بلاد غماره من الريف . ولما وقعت

الفتنة بين اموي الاندلس وثار سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدى محمد بن هشام في جنود البرير وزناته ، كان علي بن حمود واخوه القاسم في جملتهم ، وجرت خطوب واحادث دخل بعدها المستعين وجماعته مدينة قرطبة عنوة سنة ٤٠٣ هـ ثم تغلب البرير على الامر فدعا علي بن حمود واخوه القاسم الى نفيهما فغضدهما الكثي من البرير وتعصبو لهما فاقاما خلافة جديدة في الاندلس خلفت الخلافة الزائلة ، وتولى امرها علي بن حمود سنة ٤٠٨ وظلت هذه الخلافة قائمة حتى بويع آخر خليفة فيها سنة ٤٥٩ . وبعد هذا الخليفة تقاسمت ملوك الطوائف الاندلس الى ان تغلب عليهم المرابطون .

### تشتت الادارسة

وبعد هذا تفرق الحموذيون الادريسيون في احياء المغرب ووصل بعضهم الى جزيرة صقلية على انه كان في تونس ادرسيون عرفوا بالصقلي اختصوا بصناعة الطرب وتوارثوها خلفا عن سلف ، ويرى الشيخ محمد رضا الشبيبي انهم من ذريعة صاحبنا الشريف الادريسي . واما كان هؤلاء المتأخرون عرفوا بالصقلي — وهم يقيمون في تونس — فان في ذلك اشارة الى نسبة اجدادهم من قبلهم ، اولئك الذين نزلوا صقلية وكان لهم فيها شأن بارز ، ولكنه محاط بالغموض ، مجهول التفاصيل . ولعل الدكتور حسين مؤنس هو اول من حاول ازالة هذا الغموض والتغلغل الى قلب

الحقيقة فوفقا الى الكثير من ذلك توفيقا يسجل له ويشاد به .

### **الشريف الادريسي**

والمعروف ان الشريف الادريسي هو من اهل سبتة ثم انتقل بعد ذلك الى صقلية حيث اتم فيها عمله الجغرافي الكبير . وما دام قد وجد في تونس بيت ادريسي يعرف بالصقلبي وينسب الى الشريف الادريسي ، وما دام الشريف الادريسي نفسه كان يطلق عليه فيما يطلق من الالقاب لقب الصقلبي فهل ان هذه النسبة وهذا اللقب قد لحقاه بعد وصوله الى صقلية ، ام ان الامر كما يرى الدكتور حسين مؤنس من ان آل الشريف الادريسي كانوا ممن استقروا اولا في صقلية ثم نزح من نزح منهم الى سبتة حيث كان هذا البلد منبئا للشريف الادريسي منه انطلق في سياحاته الى المشرق والمغرب ثم استقر من جديد في صقلية ؟

ان المقطع السليم يؤيد ما رجحه الدكتور حسين مؤنس ، فلم يكن لقب ( الصقلبي ) ليقرن الى اسمه مجرد اقامته الاخيرة في صقلية ، بل ان هذا اللقب كان يلحق باسمه التي ينتمي اليها والتي استمد منها لقبه . وهذا اللقب انما الحق بالاسرة ليميزها عن غيرها من الادارسة الذين قدر لهم ان يتفرقوا في اكثر من مكان واحد .

### **الرحلة**

كتب على الشريف الادريسي ان يفارق وطنه سبتة

فيرحل طورا الى الشرق وطورا الى الغرب ، ولا شك  
هذا الترحال قد افاده بعد ذلك في عمله الجغرافي  
الكبير ، وكان له منه معاون في استجلاء الكثير من الحقائق  
التي اثبتها سواء في كتابه او خريطة .

وقد عبر عن غربته الطويلة وتنقله بين البلاد ، وحياة  
الفلق التي كان يحياها بين حل وترحال بهذه الآبيات  
الجميلة :

ليت شعري اين قبري ؟  
ضاع في الفربة عمرى  
لم ادع للعيون ما تشتق  
في بر وبحر  
وخبرت الناس والار  
ض لدى خير وشر  
لم اجد جارا ولا دا  
راكما في طي صدري  
فكأني لم اسر  
 الا بيت او بفتر .

واخيرا ينزل صقلية موطن ابائه ويعود الى الارض  
التي نزح عنها اسلافه ، حيث كان لا يزال من الحمويين  
جماعية في صقلية نزحوا اليها بعد زوال سلطانهم  
في الاندلس وتفرقهم في البلاد . واذا كان الاذرسي ينزل  
صقلية هذه المرة ليقيم فيها ، فقد كان قد طرقها من قبل في  
طريق عودته من المشرق ونزل على اقربائه الحمويين فيها .  
اما هذه المرة فقد جاءها مجيئا دعوة حاكمها رجار الثاني

كبير النورمان ليقوم بعمله العلمي الضخم ، متفرغا له تفرغا كاملا ، محاطا برعاية رجار وتشجيعه ، ومعرفته ..

### رجار والادريسي

كان رجار الثاني معنيا بالجغرافيا محاولا الوصول الى ادق المعلومات فيها . ولم تكن وسائل الوصول الى هذه المعلومات ميسورة في ذلك الحين ، فكان يستدعي اليه العلماء الباحثين مستعينا بما يعلمهونه ، مدونا ما يصل اليه من الحقائق . وكان الى جانبه في كل ذلك الشريف الادريسي يحاور ويسأجل ، حتى انقضت خمس عشرة سنة تجمع في خلالها الكثير من المعلومات ، واصبح لدى الادريسي من المادة ما يستطيع معه ان يباشر العمل في خريطة العتيدة .

ولم يقتصر عمله في بلاط رجار على الخريطة وحدها، بل كان انتاجه في تلك الفترة خصبا منوعا لا يزال حتى اليوم وسيظل الى ما بعد اليوم مثار الاعجاب . ومن المؤسف انه قد ضاع في غمار الزمن جزء مهم مما حققه الادريسي من الاعمال ، ذلك اننا عرفنا بما ذكره ابو الفداء انه كان له كتاب المالك والمسالك ، كما عرفنا من غيره ان هذا الكتاب الف لرجار نفسه بل لولده ( ولهم ) الذي حكم من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٦١ .

وفيما عدا الجغرافيا فقد الف كتابا ممتدا في علم النبات سماء ( جامع اشتباب النبات ) يصفه الشيخ محمد رضا الشبيبي بأنه يورد فيه اسماء النباتات في لغات

عدة قد يوصلها الى اكثر من عشر لغات شرقية وغربية .  
ويقول الشبيسي : ومن هذا الكتاب يستنتج ان  
الادريسي حاذق في علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعة  
والطب اكثر من حذقه في ناحية الجغرافيا والبلدانيات .  
والكتاب يدل على علم واسع وتحقيق بالغ ، وهو من  
المخطوطات النادرة .

اما قمة تأليفاته الجغرافية فهو كتاب « نزهة  
المشتاق في اختراق الآفاق الذي كان شرحاً الخريطة وتعليقها  
عليها . ويقع الكتاب في جزئين كبيرين . ويقول محمد  
عبدالله ماضي : انه اختصر فيما بعد تحت الاسم عينه ،  
وانه اطلع على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد  
الشرقي بهامبورغ مطبوعة في روما سنة ١٥٩٢ .

### خريطة الادريسي اول خريطة

سبق خريطة الادريسي العالمية خريطة تعود الى  
عهود قياصرة الروم ، لها من العمر ضعف ما لخريطة  
الادريسي اذ وضعت في العام ٣٦٥ وعرفت باسم خريطة  
(بوتینجر ) ، ولكنها خريطة محدودة الفائدة لم يقصد بها الا  
بيان طرق المواصلات ، وقد زالت المدن التي ورد ذكرها  
فيها ولا يعرف لها اليوم من اثر . وهناك خريطة لبطليموس  
تسبق خريطة الادريسي بالف عام ولكن ليس لها شمول  
خريطة الادريسي ، اذ ان غاية ما يستفاد منها هو ان تعطي  
 فكرة عامة عما كان عليه العالم القديم .

## تصور الادريسي للارض

الارض هي تصور الادريسي تختلف عما شاع عنها في اواخر القرون الوسطى من انها مسطحة تقوم على سطح الماء ، فالادريسي يتصورها كره بيضاوية الشكل محاطة بالماء من كل جانب حيث يغمر الماء نصفها وينحصر عن النصف الآخر ، وينقسم هذا النصف الى قسمين : شمالي هو وحده المعهور ، وجنوبي غير معهور ويفصل بينهما خط الاستواء .

وبناء على هذا التصور وضع الادريسي خريطة فشملت القسم المعهور وحده . ومن البدهي أن نقول انه لم يقسم الارض حسب التقسيم الذي نعرفه في هذا العصر ، اي الى القارات الخمس المعروفة ، لأن بعض هذه القرارات لم يكن معروفا يوم ذلك كأمريكا واستراليا ، وكذلك فإن هذا الاصطلاح لم يكن معروفا وانما اخذ به بعد ذلك ، ولكن الادريسي اخذ بتقسيم الارض الى اقاليم سبعة ، على ما كان مصطلحا عليه يومذاك .

يقول محمد عبدالله ماضي : « ومما يذكر للادريسي بالاعجاب والفخر انه حاول بتقسيمه الارض الى اقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدتها ، وانه املح في محاولته هذه الى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الرأس له اعجاشا وتقديرها » .

## البعار

لم يكن اصطلاح ( المحيطات ) معروفا في تلك العصور

وباستثناء المحيط الاطلسي ، فان تلك المحيطات لم تكن تذكر على اساس كونها بحراً محيطة ، وذلك لأن بعضها مثلاً لم يكن معروفاً اصلاً كالمحيط الهادئ ، وبعضها الآخر كان ينظر اليه على انه بحر مثله مثل كل البحار كالمحيط **المفدي** .

اما المحيط الاطلسي فقد كان وحده الذي ينظر نظرة فيها الكثير من الرهبة والتوجس ، والتطلع الى المجهول المخيف . ومن هنا اطلقوا عليه اسم ( بحر الظلمات ) وحسبك بهذه التسمية دليلاً على شدة هذا البحر وتوغله في الشمال والاحاطة . ولا احسب ان المقصود بالظلمات هنا : الظلمات المادية وحدها التي كان يقرن بها هذا البحر يومذاك ، بل ربما كان المقصود ايضاً الظلمات المعنوية التي تعني جهل حقيقة ما وراءه ، وما يخفيه من عوالم ليس من المستطاع معرفة كنهها ، فهي ظلمات في ظلمات . ظلمات تخيف وترهب وظلمات تحير وتشير .

واذكر انتي عبرت هذا البحر منذ اكثر من عشرين سنة ، عبرته سباحاً في الفضاء وتدفقاً في السماء ، في قلب طيارة تنداح فوقه موغلة اي ايفال . فكتبت عنه فيما كتبت اقول : « ... لم اكبر رواد البحار كما اكبرتهم وانا فوق البحار ، ولم اعلم عظمة ماجلان وكولومبس كما علمتها وانا في الطائرة فوق الاطلانطيك ، فما اصلب اولئك الرجال الذين فألبوا هذه الامواج وغلبوها باضعف سلاح واقل عتاد ، و ما امضى عزائهم وهم يجوبون هذه المنهات لا الى بلد يعلمونه ولا الى مرفاً يقصدونه »

بل الى المجهول يستطلعونه .. ان المحيط لم يخف في اقوى البوادر وامضى الدوارة ، وانه لعنيه ، في افحى الطائرات واعظم الجاريات ، وانه لبعض مملوك حتى وهو طريقك الى بونس ايرس ونيويورك واندن ، فما بالك اذا كان المركب فيه الخشب الرقيق والحبال الدقيق والشارع الصفيق ، واذا كنت تسير فيه لاعلى طريق ولا الى طريق ، بل تخرج من ضيق لتدخل في ضيق يشاحنك فيه حتى الصديق ويخاصمك حتى الرفيق .

هذا هو بحر الظلمات اليوم فكيف قبل اليوم ؟  
لذلك افرد هذا البحر وحده واطلق عليه هذا الاسم ولم يدخل في تقسيمات البحار الاخرى التي اعتمدها الاذريسي ، اذ قسم البحار الى سبعة : ثلاثة منها متفرعة من بحر الظلمات او مما تفرع عنه ، وهي : بحر الشام او بحر الروم (المتوسط) وخليج البنديقة (الاذرياتيك) وخليج النطاس، (الاسود) . ثم بحر الهند (المحيط الهندي) او البحر الفارسي ، وبحر السويس او بحر القلزم (الاحمر) المتفرعان من بحر الهند .  
والبحر السابع بحر لا يتفرع من غيره ولا يتصل بأي بحر هو بحر قزوين (الخزر) . اذن فهذه بحار سبعة على عدد الاقاليم السبعة ، وهي التي اعتمدها الاذريسي في خريطة .

على انه لا بد لنا من القول ان الاذريسي لم يقتصر في تقسيمه للاقاليم على عدتها سبعة ، بل انه قسم كل واحد من هذه السبعة الى عشرة اقسام متساوية وبذلك أصبحت الاقاليم سبعين اقلية .

## نَزْهَةُ الْمُشْتَاقِ

ولاجل شرح كل ذلك وجعله واضحا كل الوضوح ، ولاجل الوصول الى الفانية التي وضعت من اجلها الخريطة وهي تعميم المنفعة والوصول الى الحقيقة ، والازدياد في المعرفة ، لاجل ذلك وضع الادربيسي كتابه العظيم ( نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ) ليكون دليلا للخريطة ومرشدا للمستطلع فيها . لهذا رأينا الادربيسي في كتابه يتحدث عن الاقاليم السبعين حديثا مطينا ويصف مواقعها وصفا دقيقا ، ويحدد اماكن الجزر والبلاد ويدل عليها ، ويشير الى الجبال والانهار فضلا عن المدن . وعدا هذا فهو يتكلم عن الدول في كل اقليم وعن السكان واجناسهم ، ولا يهمل تقاليدهم وعاداتهم . كما لا يهمل ذكر ما عرف به المكان من نبات وحيوان ، وما في ذلك من منافع طبية او خصائص طبيعية . واذا كان الادربيسي – كما قال عنه الشبيبي – حاذقا في علم النبات والمواليد والطبيعة والطب – فان هذا الحذق لم يتجل في كتابه ( جامع اشتات النبات ) وحده ، بل لقد تجلى كذلك في ( نزهة المشتاق ) تجليا بينما واصحا .

وعلى ما وصف به ( نزهة المشتاق ) فان من العسير تلخيصه ، واظهار واقعه في سطور محدودة ، وهو « كتاب ضخم يقع في جزئين كبيري الحجم » كما قيل عنه .

## الخريطة الفضية

اراد رجאר ان يكون عمل الادربيسي عملا ثابتا دائمًا ،

فتفتق ذهنه عن طريقة يحفظ بها الخريطة حفظاً مستمراً ، فلا يذهب بها كر الايام وتعاقب السنين ، فاشار بان تحفر الخريطة على لوح من الفضة وعهد الى الادريسي بانجاز ذلك بعد ان وضع بتصرفه مقدار اربعين سائبة الف درهم فضية — كما يروي خليل الصندي — وامده بامهو الصناع . ولكن الادريسي لم يحتاج من الفضة الا اقل من ثلث المبلغ حتى خرجت الخريطة الفضية في شكل مائدة مستطيلة قدر طولها بثلاثة امتار ونصف المتر وارتفاعها بما يقرب من المتر ونصف المتر ، — على ما يروي محمد علي ماضي عن « ميلر » وانتهى العمل بها كله في العام ١١٥٤ م . وبعد ستة اسابيع من انجاز ما اراد رجار الثاني انجازه سواء في الخريطة او الكتاب او المائدة الفضية مات رجار . واذا كان هذا قد اراد حفظ الخريطة فاشار بصنع المائدة الفضية ، فلن الامر كما قال الشاعر : ( وتقدرون فتضحك القدر ) . ذلك انه في عهد ولهم ابن « رجار الثاني » وبعد وفاة رجار بست سنوات ( ١١٦٠ ) هاجم الثوار القصر الملكي فكان نهب الناهبيين ، وكان فيما نهب : المائدة الفضية التي كسرها الناهبيون واقتسموها فيما بينهم مفينا مادياً تافهاً ، وقضوا بفعلتهم على ذلك المجهود العلمي الفني الرائع . وبذلك لم تسلم الا خريطة الحائط والا خريطة الكتاب الموزعة في السبعين القطعة حسب السبعين الاقليم . ثم فقدت خريطة الحائط فلم تعرف بعد وظللت خريطة الكتاب . وهي الخريطة التي نظم اجزاءها وجمع قطعها المستشرق الالماني « كونراد ميلر » ثم طبعها لأول مرة سنة ١٩٢٨ طبعة ملونة فاخرة .

لقد ظلت خريطة الادريسي المرجع الوحيد لكل المؤلفين في الجغرافيا فعليها اعتمدوا ومنها استمدوا . وظلت نبراسا لكل العاملين في هذا المجال . وما اجدر الادريسي هذا العالم العامل بالاشادة به والاشارة اليه كواحد من اعظم من انجب العرب في كل العصور . وما احرى علماءنا الجغرافيين في هذا العصر بان يدعوا للتعریف به والاحتفال بذكراه ووضع الدراسات المفصلة عن عمله العلمي الكبير .

ولا اعرف احدا عني بذلك عناية الاستاذ محمد علي ماضي في بحث ممتع له في مجلة الرسالة القاهرية عهد ازدهارها وتتوسع انتشارها . كما ان المستشرق الابانسي كونراد ميلر كان صاحب الفضل الاول في كشف الغبار عن خريطة الادريسي وبعثها من مرقدتها ونشرها في كل مكان .

## جعفران الموسوس

لم يعن مؤرخون الاولون بتدوين الحياة الشعبية تدوينا يصور لنا ملامحها الصحيحة ويرينا كيف كانت تنضي امور الملاليين من الناس الذين هم من غير طبقة الحكم واضرائهم .

وابو الفرج وحده تعدد في السرد امور الخلفاء والملوك والوزراء ، وتغفل في الحياة الشعبية فجاء ( مقاتل الطالبيين ) و ( الاغاني ) في الكثير مما فيهما صورا مجلوة لكتير من الافراد من طبقات لم تظفر من غير قلمه بالقصصي ، فعرفنا منه سير كثير من الاحرار والمناضلين والعلماء ، ومن الشعراء غير شعراء الملوك ، ومن آثروا الحياة البسيطة الوادعة . وعرفنا منه الكثير عن الوسائل الاجتماعية والروابط بين الناس ومحيطهم ، وعرفنا الكثير من العادات والتقاليد والامزجة .

وممن عرفناهم اكثر ما عرفناهم من مطالعاتنا في الاغاني شاعر مسكين اضطهدته عصره وخذله محطيه فعاش فقيرا يائسا ، ومضى محروما ملاحتا ، الى ان ادى الامر لان يرمى بالجنون ويوصف بالموسوس حتى أصبحت هذه الصفة ملازمة لاسمه لصيقته ب حياته . ذلك هو جعفر بن علي ، الذي اشتهر باسم ( جعفران الموسوس ) .

## بلده وموته

هو بغدادي ولد في بغداد ونشأ بها ، وليس من يعنى لا بتاريخ ولادته ولا بتاريخ موته ، فقد كان اهون على اهل زمانه من ان يفكر منهم واحد بالسؤال عن اليوم الذي ولد فيه هذا الموسوس او ان يسجل احد اليوم الذي مات فيه . ولكننا نعلم انه ادرك عصر الامامين موسى الكاظم وعلى الرضا . والاول ولد سنة ١٢٨ وتوفي سنة ١٨٣ والثاني ولد سنة ١٥٣ وتوفي سنة ٢٠٣ . ولنا بعد ذلك ان نقدر متى ولد ومتى مات ..

هو كما قلنا بغدادي المولد والنشأة . ولكن ييدو ان بغداد نبت به ففارقها الى سامراء وسكنها ، وهذا ما نص عليه ابو الفرج في الاغانى ، ولكن لم يقل لنا ان كان قد ظل في سامراء حتى توفي ام لا .

### هل هو مجنون حقا؟

ابو الفرج يؤيد اختلاط عقله ووسوسته ، ولكن لا يقول بجنونه المطبق ، بل بجنون يعاوده بين الحين والحين .

ومما وصف به : « كان اديبا شاعرا مطبوعا ، وغلبت عليه المرة السوداء فاختلط وبطل في اكثر اوقاته ومعظم احواله . ثم كان اذا افاق ثاب اليه عقله وطبعه فقال الشاعر الجيد » . اما هو نفسه فيرى ان ما يوصف به من الجنون انما هو محننة من المحن نزلت به فهو ينكر على الناس هذا الوصف فيقول :

قالوا علي كذبا وبطلا

اني مجنون ففقدت العقل بلا

وذلك ان صديق الله روى عنه فقال : جاءني جعفران  
قال : « استوجب العالم مني القتلا » فقلت ولم يا ابا  
للفضل ؟ فنظر الي نظرة منكرة خفت منها وقال : ( لما شعرت  
فراوني فحلا ) ثم سكت هنيهة وقال :

قالوا علي كذبا وجه لا  
اني مجنون فقدت العقل  
قالوا المحت كذبا وجه لا  
اقبح بهذا الفعل منهم فعلا

ثم ذهب لينصرف ، فخفت ان يؤذيه الصبيان ، فقلت  
اصبر فديتك حتى اقوم معك فأنك مغضب ، واكره ان  
تخرج على هذه الحال ، فقال : سبحان الله اترانى  
انسبهم الى الكذب والجهل واستيقع فعلهم ، وتتخوف من  
مكافاتهم ، ثم ولى وهو يقول :

لست براض من جهول جهلا  
ولا مجازيه بفعل فعلا  
لكن ارى الصفع لنفسي فضلا  
من يرد الخير يجده سهلا

### قصة جنونه

عزوا ذلك الى قصة نسبوا فيها اليه عملا غير  
اخلاقي ادى الى ان يوصي ابوه بحرمانه من ارثه ،  
فلما مات الاب سمع الوصي فاستنصر حكما من  
القاضي بهذا الحberman . قالوا : « فوسوس جعفران  
واختلط منذ يومئذ » .

## حبيته عن مأساته

وان صحت هذه القصة فهو نفسه يكرر الحديث عن مأساته ، ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه ، تفصيلا مروعا يربينا الحقيقة عارية صريحة . فحرمانه من المراث سبب له الفقر ، والفقير سبب له الهوان ، والهوان اغلى به الناس ، حتى لقد شاع جنونه فبلغ الصبيان . واية فرصة للصبيان انمن من متهم بالجنون يعبثون به ويصيرون وراءه ويتضاحكون عليه .

واي رجل يستطيع ان يصمد لجموع الصبيان المنطلقة في الاذقة عاطلة لاهية ، تفتش عما قتل به ولقتها وترفع به فراغها .

اي رجل يستطيع ان يحتفظ بالعقل اذا مر في الطريق فتناولته سخريات اللولدان وهزؤهم وتداولته ايديهم بالصفق ، واناملهم بالرشق ، وشفاهم ببذئ النطق .

ولا تنسى ان للصبيان من يغريهم ولهم من يدلهم اذا تاهوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، لأن لهم مصلحة في ان يضيع عقل الشاعر ويضطرب فكره .

تحدث جعفران عن مأساته بلسان فصيح وعقل صحيح :

رأيت الناس تدعوني  
بمجسون على حالي  
وما بي اليوم من جن  
ولا وسوس بشيال

ولكن قولهم هذا  
 لا فلاسي واقلالي  
 ولو كنت اخا وفر  
 رخيما ناعم البال  
 راوني حسن العقل  
 اهل المنزل العالى  
 وما ذاك على خير  
 ولكن هيبة المال

وهل ابلغ في البيان من هذا البيان ، على انه في  
 ابيات اخرى ، كان اكثر انطلاقا بل كان على شيء كثير من  
 الفلسفة التي شاء ان يأخذ بها نفسه فلا يبالي بما  
 يقولون ، وان كانت مظاهر عدم مبالغاته هي في بواطنها مبالغة  
 اي مبالغة .

وهل اكثر في انشغال بالك من ان تشغل بالك بان لا  
 ينشغل ؟

رأيت الناس ترمي —  
 نسي احيانا بوسواس  
 ومن يضبط يا صاح  
 مقال الناس في الناس  
 فدع ما قاله الناس  
 ونمازع صفوة الكاس  
 فتى حرا صحيح الود  
 ذا بشر وainas  
 فنان الخلق مغورو  
 بامثالى واجناسى

ومن هذه الآيات نستدل على أن الناس لم يكونوا كلهم قساة عليه ، فقد كان فيهم من يدرك حقيقة أمره ويؤمن بعقله فان كلمة ( احيانا ) التي اوردها في البيت الاول ترشد الى ذلك ، كمان مخاطبته لنفسه بان يدع ( ما قاله الناس ) وان ( ينمازع صفوة الناس ) :

ذا بیر وائنس

يدل على أنه لم يكن يعدم بين الفينة والفينية مثل هذا الفتى الحر .

ثم هذا البيت الحكيم :

## ومن يضبط يا صاح كلام الناس في الناس

ولكن بعض من كانوا يجالسونه ، إنما كانوا ينشدون متعة المجلس وفكاهة الحديث ، ويستطيعون بان يعبثوا به ويتضاحكوا منه ، انهم لم يكونوا يجالسونه على انه شاعر قرین لهم في المجلس ، بل على انه مسلاة .

حضر يوما مجلسا ثم قام لحاجة له فقال بعض من حضر : اي شيء معنى عشرتنا هذا الجنون ، والله ما نأمهنـه وهو صاح . وفطـن جعـيران للمعنى فـاقـبل عـلـيـهـم مـشـدا :

وندامى اكلونى  
 اذ تغىيت قليلا  
 زعموا انسي مجنون  
 ارى للعرى جميلا  
 كيف لا اعزرى وما اب  
 صر في الناس مثيلا  
 ان يكن قد ساعكم قر  
 بي فخلوا السبيل  
 واتمروا يومكم  
 سرىكم الله طويلا

وهكذا بلغت القسوة ببعض جلاسه ان يستندوا  
 اطاريده حتى اذا غاب بهته واستغابوه ، وقد كان اذكى  
 من ان يفوته معنى نظراتهم ومرامي همساتهم . ثم  
 اننا نرى من هذه الابيات انه كان يعيش بالى الاشواط في  
 شبه عري . وقد اراد ان يسخر من الناس كما سخروا منه ،  
 فلم ينسب عريه الى الفقر ولا الى الجنون ، بل الى  
 انه فوق هؤلاء البشر ، فلا يجد مثيلا له يستحق ان يستتر  
 منه ويتكلف له اللباسين .

### مع ابي دلف

.. ولقبل يوما على ابي دلف العجالي .. ومدحه ..  
 .. بشعر جميل ، يامر له بكتيبة وبالفرد لهم .. فلما جيء  
 بالدرارهم اخذ منها عشرة وقال : تأمر القهorman ان يعطيوني  
 الباقي مفرقا كلما جئت لثلا يضيع مني . فقال للقهorman

اعطه المال ، وكلما جاءك فاعطهـ ما شاء حتى يفرق الموت  
بيننا هبکى جعيفران وقل :  
يموت هذا الذي ارادـ

وكـلـ نـسـهـ لـهـ نـفـادـ  
لو غـيـرـ ذـيـ العـرـشـ دـامـ شـيءـ  
لـدـامـ ذـاـ المـفـضـلـ الجـوـادـ  
وـظـلـ أـبـوـ دـلـفـ عـلـىـ اـحـسـانـهـ إـلـيـهـ وـصـيـاقـهـ لـهـ حـقـيـ  
افتـرقـاـ بـالـمـوـتـ .ـ فـكـانـ مـاـ اـنـشـدـهـ لـبـيـ دـلـفـ :ـ  
يـاـ مـعـدـيـ الـجـوـودـ عـلـىـ الـأـمـوـالـ  
وـيـاـ كـرـيـمـ التـفـسـ فيـ الـفـمـالـ  
قد صـنـتـنـيـ عـنـ ذـلـةـ السـؤـالـ  
بـجـوـيدـ الـمـوـفيـ عـلـىـ الـأـمـالـ  
صـانـكـ ذـوـ الـعـزـةـ وـالـجـلـالـ  
مـنـ غـيرـ الـإـيـامـ وـالـقـيـاسـيـ  
وهـكـذـاـ نـرـىـ انـ ذـاكـ الجـافـ المـتوـحـشـ الذـيـ يـرـىـ انـ  
الـنـاسـ لـاـ يـسـتـحقـونـ انـ يـوـارـيـ سـوـاتـهـ عـنـهـمـ،ـ يـمـوـدـ هـنـاـ اـنـسانـاـ  
رـقـيقـ الـحـاشـيـةـ سـهـلـ الجـانـبـ،ـ اـنـ الـخـاجـةـ قـدـ اوـقـفـتـهـ عـلـىـ  
الـابـوابـ بـعـقـلـهـ وـكـرـامـتـهـ فـثـارـ لـهـمـاـ،ـ حـقـيـ اـفـاـ وـجـدـ مـنـ  
صـانـهـمـاـ لـهـ شـكـرـ ذـلـكـ شـكـرـاـ عـدـيـمـ الـفـظـيرـ .ـ  
وـلـاـ نـدـريـ مـنـ سـبـقـ صـاحـبـهـ إـلـىـ الـمـوـتـ .ـ اـمـاتـ  
جـعـيفـرـانـ قـبـلـ اـبـيـ دـلـفـ ،ـ اـمـ مـاتـ اـبـوـ دـلـفـ قـبـلـهـ فـابـتـلـهـ  
الـسـؤـالـ مـنـ جـديـدـ ؟ـ

### صاحب نكتة بارعة

وهـذـاـ الشـاعـرـ الـبـائـسـ الـحـزـينـ الشـرـيدـ كـانـ اـرـادـ

النكتة بلغ نبأها الغاية ، فقد تقدم من أبي يوسف القاضي بدعوى في شيء كان في يده من وقف ، وكان القاضي اعور ، فقضى القاضي عليه ودفعه عن الوقف . فقال له : أرانسي الله أيها القاضي عينيك سواء . فأخذته القاضي إلى داره واطعمه واعطاه دراهم . ثم سأله : ماذا أردت بدعائك ؟ أردت أن يرد الله على ما ذهب من بصيري ؟

فقال : والله لئن كنت وهبت لي هذه الدراما لاسخر منك لانت الجنون لا أنا . أخبرني كم من اعور رأيته عمي ؟ قال : كثير ، قال مهل رأيت اعور صحي قط ، قال : لا ، قال : مكيف توهمت علمي الغلط . فضحك وصرفه .

### خاتمة المأساة

وصورة موته تختتم مأساة حياته خاتمة من جنسها ، فهي تربينا هذا الشاعر عليلاً وحيداً في علته ، لا عائد له ولا طبيب ، ولا زائر ولا قريب ، تطحنه الاوجاع طحناً فلا يقر له قرار ، ويأخذ يدور في الدار ، ويظل يدور فيها حيران موجعاً حتى يهوي ميتاً .

وهو في كل ذلك لا يرى غير الشعر متنفساً لكربه ، فينشده وصفاً لحياته وتعبيرًا عن الامه وغربيته وسهراته ووحشته .

حدث عثمان بن محمد عن أبيه قال : كنت اشرف مرة من سطح لسي على جعيفران وهو في داره وحده ، وقد اعتلى وتحركت عليه السوداء فهو يدور في الدار طول ليلته ويقول :

طاف به طيف من الوسواس  
 نفر عنه لذة النعس  
 فما يرى يأنس بالاناسى  
 ولا يلذ مشرة الجلاس  
 فهو غريب بين هذى الناس  
 حتى اصبح الصباح وهو يرددنا ، ثم سقط كأنه بقلة  
 ذابلة .

ومن العجيب ان هذا المحدث لم تتحرك شفقته ولم يثر  
 حنانه ، فينزل الى هذا المريض فيسأله عما يشكو او يواسيه  
 بكلمة طيبة او لمسة حانية ، بل ظل طول الليل ينظر اليه  
 ويستمع له حتى هو امام عينيه .

« فهو غريب بين هذى الناس »  
 هكذا صرخ جعيفران في آخر ساعة من حياته ، وما كان  
 اصدقه صارخا .

ولكن ترى ، ا كانت غريته هذه غرية العاقل بين  
 المجنين ، ام غرية المجنون بين العقلاء ؟

## الأيوان بين نماذجين

- ١ -

وقف البحتري على ايوان كسرى وقفه طويلة  
جالت فيها عيناه في جوانب الايوان وتطلعت الى نقشاته  
وصوره وترامت في جوانبه واركانه فادهشته فخامة البنيان  
وروعة الفن وجلالة الصنعة ، فاستوحى خياله واستنطق  
شاعريته فجاءنا بقصيدة التسنيمة الخالدة التي اشتهرت  
كل الاشتئمار .

وكما وقف البحتري على الايوان كذلك وقف  
عليه بعد البحتري شاعر عربي شهير فارسل بطرفه  
الى سوامقه الشاهقة وتلتفت الى بقایاها المائة مهاجرت  
شاعريته وفاضت قريحته فارفأ الدب العربي بقصيدة  
لم يكتب لها من الشهرة ما كتب لقصيدة البحتري  
فظلت في ديوان الشاعر مغمورة بين قصائد الكثيرة قل ان  
يذكرها ذاكر او يشير اليها مشير ، وهكذا تواتي الحظوظ  
شعراء في حق في الاجواء وينتشر في الافق . وتعاكش شعرا  
فيزوي بين طيات الاوراق لا يرفع رأسا ولا يسمع همسا  
فيضيع اي ضياع ! ويا لله وللحظوظ في الحياة كم رفعت  
وكم وضعت وكم دفنت وكم نشرت ! ..  
هذا الشاعر الذي عننته هو الشريف الرضي فقد

تقاذفه الشوئ حتى حطت به على ايوان كسرى فنظم  
قصيدة من اجمل مصادن الشعر العربي ولكنها - ويا للأسف -  
ظللت مهملا اهلا شائعا فلم تجد بين كتاب العربية  
ونقادها من اولاهما عنایة او اشار اليها اشارة مع ما فيها  
من الاحساس العميق والشعور السامي الذي يرفع  
صاحبها الى اسمى المراتب بين شعراء الامجاد العربية.  
وقف الشاعران على الايوان وتطلع كل منهما اليه  
بعينين تختلفان عن عيني الاخر ونظر اليه كل  
منهما بفكر بياني فكر الاخر ، واثار الايوان في  
نفس احد الشاعرين غير ما اثار في نفس الشاعر الاخر  
مجاعمت قصيدهما متبباينتي الروح والعاطفة والغاية.  
فالباحثري كان وقوفه على الايوان شاعرا فحسب لم  
يهج فيه الايوان الا عاطفة الشاعر فوصف ما شاهد وصف  
الشاعر المجيد الفيان غابدي في الوصف ما شاء الابداع  
واوحى له خلو الايوان من بنائه . وانقراض جمياته  
عاطفة الاسبي العميق فقلان :

اتسلی عن الحظیوظ و آبی  
لحل من آل ساسان درس  
ذكرتنيهم الخطوب التوالی  
ولقد تذكر الخطوب وتنسى  
وهم خافضون في ظلل عمال  
شرف يحسر العيون ويخصي  
مغلق بابه على جبل القـ  
بق الى دارتی خلاط ومکس

فهو في هذه الأبيات متذكر معتبر يتأسى عن الجحود العاشرة بالطلول الدائرة فيذكر آل ساسان وحياتهم المهيبة في ظل الإيوان وعيشتهم الرغيدة في ابهائه وما كان لهم من سلطان اي سلطان . ثم هو يقارن بين هذه الأطلال الساسانية الضخمة وبين الأطلال البدوية التي شففت شعراء الجاهلية فوقوا عليها وبكونها وفاض شعرهم بالتفنّي بها وترديد ذكرها فكانما يريد ان يقول ان مثل هذه الأطلال هي التي يجب ان تشغل الشاعر فيموج عليها ويستنطقها اخبار الظاعنين لا اطلال القفار البسابس التي لم يكن لها ان تشغل الشعراء ذاك الاشغال :

حل لسم تكن كاطلال سعدى  
في قبارمن البسابس ملس  
ثم يندفع الشاعر بوصف خلو الدار واقفارها حتى  
كأنها ارماس او ماتم بعد اعراس .  
ثم يشير الى ما تدل عليه هذه الاثار من عجائب  
مشيديتها وابداع موجديها ثم يسهب بوصف ما فيها من النقوش  
والصور المائة مجیدا في ذلك كل الاجادة :

وهو ينبيك عن عجائب قوم  
لا يشبب البيان فيهم بلبس  
فاذما رأيت صورة انطا  
كية ارتعت بين روم وفرس  
والمنايا موائل وانو شر  
وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اص  
 فر يختال في صبيحة ورس  
 وعراء الرجال بين يديه  
 في خفوت منهم واغماس جرس  
 من مشيح يهوي بعامل رمح  
 ولريح من السنان بترس  
 وفي هذه الابيات تستدل على ما كان عليه  
 الايوان من فن رائع كانت تتجلى فيه صور المعارك  
 الحربية بين الروم والفرس وصور المدن التي وقعت  
 فيها المعارك وصور ملوك الفرس بالبساطهم الزاهية يقودون  
 جيوشهم المنتصرة وصور المقاتلين هذا يهوي برمحه  
 وذاك يتقي بترسه الى غير ذلك من المشاهد المتنوعة .  
 ويبلغ اعجاب البحتري بهذه الصور والنقوش اقصى  
 الحدود حتى ليحسبها اشخاصا حية وحتى انه ليمعن في  
 هذا الحساب فيفغالط نفسه فيتقدم اليها ويلمسها ليتأكد من  
 خمود الحياة فيها :

تصف العين انهم جد احیا  
 ء لهم بينهم اشارة خرس  
 يقتلني فيهم ارتياحي حتى  
 تتراهم يداي بلمس

ثم يمضي البحتري على هذا النسق في الوصف  
 والشعور والتوجع في تسعه ابيات ينتقل بعدها الى ما  
 اصاب الايوان من كوارث وارزاء ثم لا ينسى ان يعزمه  
 عما نزل به مشيرا الى ان ذلك لا يعيي عظمته الخالدة  
 ما دام لا يزال مشمخرا علي الشرفات .

عكست حظه اللياليسي وبسماتـ الله  
مشتري فيـهـ وهو كوكب نـحـسـ  
ـفـهـوـ يـبـيـدـيـ تـجـلـيـداـ وـعـلـمـهـ  
ـكـلـلـكـلـ منـ كـسـلاـكـمـنـ الـدـهـرـ مـرـسـ  
ـلـمـ يـعـبـهـ انـ بـزـ منـ بـسـطـ الدـبـيـ  
ـبـاجـ وـاسـتـلـ منـ سـتـورـ الدـمـقـسـ  
ـمـشـمـخـراـ تـغـلـبـوـ لـهـ شـرـفـاتـ  
ـرـفـعـتـ فيـ رـؤـوسـ رـضـوىـ وـقـدـسـ  
ـلـابـسـلـتـ منـ الـبـيـاضـ فـمـاـ تـبـ  
ـصـرـ مـنـهـاـ الـأـغـلـاثـ بـرـسـ

وبعد ذلك يظهر البحترى دهشته فيسائل نفسه  
ايستطيع الانسان ان يبدع هذا الابداع ام هي بدائع  
الجسن للانسان :

لیس یدری امنیع انس لجن  
سکوه ام منع جن لافس

ومهما يكن من أمر فهو يؤمن أن الباقي لم يكن  
ملكًا خالقًا ولا إنساناً حقيرًا بل هو، باع كانت تغص نوادييه  
بالواديين وتعج مقاصيره بالقيلين والمعنىين وهو من هؤلاء  
الملوك الذين سادوا الزمن فعفّا لهم وانقلد إليهم فعاشوا  
حياة كلها رغد وهناء ورفاه وصفاء :

فكانى ارى المراتب والقوم  
اذا ما بلفت اخر حسبي  
وكان الوفود ضاحين حسرى  
من وقوف خلف الرخام وجلس

وكان القىان وسط المقا

صبر برجين بين حروق عيس

وكان اللقىي اول من ام

س ووشك الفراق اول امس

وبعد كل هذا يبرز البحتوري شاعرا فحسب لا يهمه  
من كل ما رأى الا انه مظهر حسي يهز النفوس الشاعرة  
الحساسة فتبكي العز الزائل والملك المهاوي وتشيد  
بذكر الامجاد ايها كلنوا :

عمرت للسرور دهرا فصارت

للتعمزي رباعهم والتأسي

فلها ان اعينه سادم دموع

موقنات على الصباية حبس

ذاك عندي وليس السدار داري

باتقارب منها ولا الجنس جنس

ثم يعقب على ذلك بيته الخاتمي الذي يظهر فيه

مذهبه الشعري الانساني :

وارانسي من بعد اكلف بالاش

مراند طرا من كل سفح ولأس

- ٢ -

يستهل نالثرييف للرضي قصيده لستهلا فرسيا

جميلا تتجلى فيه روحه الوثابة وتبرز سجاياه الشماء

بل تبدو احساساته المكبوة وعولطه المقوورة .. فالرضي

فتسى ملء برديه الرجولة التواقة الى العلياء الطماحة

الى المجد وقد اجتمع له من كريم نسبه ونبيل خلاله

وسمو مكانته ما جعله يأنف حياة الدعة والخمل وعيش

الصفار والهوان . وتحكم في عصره بالناس من هم دونه  
كفاءة وشهامة وحسبا ونسبا فحاول ان يشق طريقه فاقعده  
الزمن وردهه ظروفه فظل مهضوما مغيظا يفرج كرباته  
بالشعر :

قريوهن ليعدن المغارا  
ويبدلن بدار الهون دارا  
واصطفوهن لينتجن العلى  
باليعالى لا لينتجن المهارا

انه يتربى بالخيل ويهاق باسمها ويصرخ ببرهته  
ليقربوها اليه ! .... وماذا في الخيل ؟ ... ان فيها  
مظاهر القوة والمعظمة ، مظاهر النضال والكافح مظاهر  
الفروسية الباسلة . والشريف يرى نفسه رجل الخيل  
المغيرات وقد حيل بينه وبين اعنتها فهو يزفر من اعمق  
صدره هذه الزفرا الحماسية جامعا فيها ما يتلأل نفسـه  
من الحرمان المريض ومضمـنا لها ما يجول في خاطره من التوثـب  
الى معالـي الامور فهو وقد وقف على ايـوان كسرـى لا  
يتغـزـل بالحسـان السـاحـرات ولا يستـبـكي للـلاـطـلـال الدـاشـرات  
بل يفتح قصـيـدـته بـدـعـوـةـ الخـيلـ لاـ لـتـسـلـيـ باـعـنـتهاـ ولاـ لـلـتـلـمـيـ  
بـصـهوـاتـهاـ بلـ لـلـغـارـاتـ الـبـعـيـدةـ ولـتـبـدـلـ لهـ بـدارـ الهـونـ  
الـتـيـ تـأـوـيـهـ دـارـ العـزـ التـيـ يـطـمـحـ لـهـ فـهـوـ يـرـىـ اـنـهـ  
اـنـمـاـ يـحـيـىـ فـيـ دـارـ الذـلـ وـمـنـزـلـ الضـيـمـ بـالـرـغـمـ مـاـ كـانـ  
يـحـاطـ بـهـ مـنـ تـكـرـيـمـ وـاعـظـامـ . وـمـاـذـاـ يـفـنـيـهـ هـذـاـ التـكـرـيـمـ  
وـالـاعـظـلـمـ اـذـاـ كـانـ لـاـ يـزالـ بـعـيـداـ عـنـ مـطـامـحـهـ الـعـلـيـاـ . وـاـذـاـ  
كـانـ غـيرـهـ يـسـمـوـهـ مـرـتـبـةـ وـسـلـطـانـاـ ..  
وتـرـاهـ فـيـ الـبـيـتـ الثـانـيـ يـعـلنـ زـهـدـهـ بـالـمـادـةـ فـهـوـ لـاـ يـرـيدـ

الخيل لتنتج المهار بل لتنتج له العلي .

وبعد ان يمضي الرضي في واحد وعشرين بيته  
يضمها نوازعه وخواطره يصل بنا الى ذكر الايوان .  
فيخبرنا انه نزل فيه دارا لم تكن دار ذل وان بناته كانوا  
ذوي مجد رفيع استقلوا فيه عن الناس وشغلوه  
عن ان يغار لغيرهم :

قد نزلنا دار كسرى بعده  
اربعاً ما كن للذل ظواهراً  
اسفرت اعطانها عن عشر  
شغلو المجد بهم عن ان يعاراً  
تصف الدار لنا قطاناً  
المعالي والمساعي والنجاراً

و هنا يتجلّى انصافه واعتراضه بالحق فهو بالرغم من  
نزعته القومية المتحمسة لا يخس الناس اشياءهم ولا  
يغض من ذوي المواهب بل يتكلم عن الناس بما كانوا عليه  
فقد وصفت له الدارقطانها نهي باذخة البناء رحيبة الفنان  
وهي محكمة الصنعة متقدة العمل وهي في كل ذلك ناطقة  
بوصف من ابدعواها وحلوها تخبر عنهم بلسان فصيح  
ولفحة واضحة .

ثم نراه يلم بما اصاب هؤلاء القطط من نزول عن  
مجدهم واصح حلال لامرهم فهو يرى ان الدهر استرد منهم  
ما اعارهم ليغيره الى غيرهم فكان ما نعم الحياة عاريات  
يجدون بها الدهر على ناس ثم يبدو لهم فيستردونها ليجود بها  
على آخرين وهكذا تداول الامم المجد فيما بينها .

آل ساسان حدا الخطب بسم  
 واستورد الدهر منهم ما اهلا  
 بعدمها شادوا البنى ترفعها  
 عمد المجد قبابا ومنارا  
 كل ملوم القرى صعب الذرى  
 يزلق العقبان عنہ والنسارا  
 ثم ينتقل الى وصف الايوان كما رأه في عهده ولكنه  
 لا يصف لنا صوره ونقوشه ولا يتحدث عن عجائب صنعه  
 وبدائع فنه بل ان ذلك لا يشفل ذهنه ولا يثير اهتمامه فلا  
 يسترسل كالباحثري في وصف دقائقه بل يعطينا صورة اجمالية  
 عنه تمنلاً النفس رهبة ووحشة :  
 حمل الدهر الى ان رده  
 ضاغط العبء ضلوعا وفقارا  
 مطرقا اطراق مأمون الشذا  
 غمر السنادي حلما ووقارا  
 او مليك وقع الدهر به  
 فاماط الطوق منه والسوارا  
 او هلت منه لليلبي نقرة  
 لا يلاقي وهنهااليوم جبارا  
 اذن فلم يكن بهم الرضي ان يستوفى وصف  
 الايوان فنحن لا نستطيع ان نتعرف من قصيده الى  
 حال الايوان يومذاك ولا الى ما كان لا يزال مائلا من  
 زخافته، مكان الرضي لا يعنيه ان يسهب في ذلك بل هو  
 يريد ان يستخرج العبرة من موقفه هذا فيحدث عن  
 حملة الدعرين على الايوان حتى تركه « ضاغط العبء

صلواعاً وفتراً » .

ثم يصوره - تصويراً غنّياً رائعاً - يتخيّله مطرباً برأسه لاطرافق الذي كان له صولة فزالت وآمن الناس نفعه سرّه فهو مطاطئ الهمامة اسفاً على ملضيه وتفكراً بحاضره ، ولكن هذا الاطرافق المحزن لا يذهب بوقاره . وخلمه فهو على شجاه - يملأ النادي حلماً ووقاراً . وهو على ما نزل به لا يزال محتفظاً بجلاله و هيئته . ثم يشبهه بملك وقوع الدهر به وحلت كوارثه في ساحته فسلبته ملكته وأماتته عنه تاجه وذهبت بطوقه وسواره فهو لا يزال كما كان رجلاً كامل الهيبة ولكنه عاطل من حلّ الملك وحليه وكذلك الايوان فهو لا يزال قسراً شامخاً ولكنه خال من كل ما كان له من شأن .

وهذه الابيات هي كل ما يظفر به الايوان من الشرف الرضي من الوصف ثم ينتقل بعدها الى ما يريده — من اغراض قومية فيسائل ايـنـ معالي الايوان الجمة واـيـنـ حـمـاءـ الـافـيـحـ وـايـنـ رـجـالـهـ الـذـيـنـ غـلـبـواـ النـاسـ :

ايـنـ لاـ ايـنـ المعـالـيـ جـمـةـ  
والـجمـىـ اـفيـحـ وـالـبرـايـ مـغـارـاـ  
ورـجـالـ شـدـخـتـ اوـضـاحـهـ  
غلـبـواـ الـاعـنـاقـ منـاـ وـاسـارـاـ  
تفـيـجـيـبـ دـنـ تـذـلـكـ بـجـوـابـ تـقـجـلـيـ فـيـهـ نـرـعـتـهـ التـوـمـيـةـ :  
وـبـمـدـاـ الـاسـلـامـيـةـ وـاضـحـةـ جـلـيـةـ :  
عـمـرـوـ الـمـيـقـامـواـ انـ طـنـاـ  
سـجـائـزـ الـامـرـ عـلـيـهـ سـمـ وـالـامـارـاـ

ثم هو يشير الى ما كانت عليه الامم المجاورة للعرب من النظر اليهم بنظر الاستهانة وقلة الاكتراث غير عالمه بما وراء هذا الهمود من الاندفاع العجيب ولا حاسبه بان تلك الامة الممزقة الرأي المقطعة الاوصال ستهب هبة تدهش الدنيا :

قدروا جد نزار واقفا  
ومشى الجد فما عزوا نزارا

ثم يصف الوثبة العربية العظيمة وما رافقها من بطولات وتضحيات وكيف اذهلت الناس فعنوا لها مستسلمين .

لاؤنوا لما رأوا من دونهم  
واديا يلقى به السبيل غمارا  
عابينوا الضرب دراكا في الطلى  
يعجل الناس والطعن بدارا

ثم يشبه العرب بالاسد يهب مصرا بعد طول الحذر :

اصحر الليث العفرنی فائتنى  
يطلب اليربوع في الارض وجارا

وبعد هذا الاعتزاز بقومه والتلاحر بامته يتحدث عما انفست اليه نهضة العرب وعن رسالتهم الاسلامية التي حملوها الى الافق تجلو دياجير الشرك وتمحو معالم الوثنية وتنشر التوحيد حيث حلت :

قهروا الشرك على اعقابه  
 بعدما استقدم غيا وضرارا  
 وأشاروا الدين من مريضه  
 وأطسروا عن مجاليه الخمارا  
 داينوا المجد باطراف القنا  
 ففدا عينا وقد كان ضمارا

## المراة في حياة المتنبي وشعره

هل كان للمرأة في حياة المتنبي اثر من بعيد او قريب  
وهل كان لها في شعره توجيه خاص ، وهل بدت على هذا  
الشعر صبغة لها مساس او بعض مساس بها ؟  
لا بد لنا قبل التوغل في الجواب من ان نفرق في موضوعنا  
بين المرأة اما وبينها زوجة او حبيبة ، اذ لكل اثره الخاص  
وناحيته التي لا تشبه ناحية الآخر . فماذا كان تأثير الام  
على المتنبي ؟ كل ما عرفناه عن ام المتنبي انها كانت  
همدانية صحيحة النسب من صلحاء النساء الكوفيات(١)  
ومهما اراد الدكتور طه حسين ان يحيط بمولد المتنبي  
من الشذوذ(٢) ومهما اردنا ان ندفع هذا الشذوذ فلا ريب  
انه لم يكن لام المتنبي اي اثر لا في حياته ولا في شعره ،  
بل ان المتنبي الذي تغنى بجده لم يشر الى امه اشاره  
ولم يولها ذكرا . والدكتور طه حسين محق حين يقف طويلا  
امام هذه الظاهرة فيتسائل عن السر فيها . ولكن لا يمكن  
ان نذهب معه الى النتيجة التي وصل اليها من ان ذلك  
انما كان لأن مولد المتنبي كان شاذًا ! ولماذا كان شذوذ  
مولد المتنبي هو السر في ذلك ، ولا يكون السر فيه هو ان

- 
- ١ - انساب السمعاني وتاريخ بغداد .
  - ٢ - مع المتنبي .

المتنبي لم ينعم ب تلك الام ففقدها قبل ان يعرف المجتمع  
ويينفس في الحياة ؟ اكبر الظن ان ام المتنبي قد فارقت  
الدنيا قبل ان يصر لابنها التعرف عليها والقائم بعلمه  
وحناهلا مثوكته لامها ، فكانت امه له اما ، وكلفتها اعطيته  
البنة ملتهبة فيه لجده ، لانه لم يعرفه غير هذه امه ، وباذل لم  
يكن الامر كذلك فلما ذكر المؤرخون شنوق جده اليه ولا  
يذكرون شوق امه ، ولما يعنى برثلا جدته ولا يعنى  
برثاء امه ؟

ومهما كان مولد المتنبي شادا — على رأي الدكتور  
طه حسين — فان هذا الشذوذ لمن يحول دون شوق الوالدة  
الى ولدها ولن يحول بين رثاء المتنبي لامه لو كانت هذه  
الام حية عندما كان ابنها شاعر العرب ومهما يكن من  
امر فالذى لا ريب فيه هو ان ام المتنبي بعيدة عن كل اثر  
في حياته وشعره ، وقد حل محلها في هذا الاشر امها مكان  
من تأثيرها في شعره تلك القصيدة الرثائية الخالدة التي  
تيل عنها : ( انه ورد عليه كتاب من جده تشكو شوقيها  
اليه وطول غيابه عنها فتوجه نحو العراقة ولم يمكنه  
وصول الكوفة فانحرف الى بغداد ، وكانت جدته قد بثت  
منه مكتب اليها كتابا يسألها المسئ عليه مقتبل كتابه وحيث  
لوقتها سرورا به وغلب الفرج على قلبها فقتلها )) )  
ونحن لا نتهمها بالعلة التي مالت بها الجدة ولا نرق  
لدينا اذا كانت هذه العلة هي الفرج او الحزن او اية  
علة اخرى ما دامت قد ماتت قبل ان يرواها لين ايفها وبعد

ان اوشك ان يراها ، وقد كان المتنبي وهو الشاعر الحساس  
المتهب الشعور المتاجج القلب كان حريبا به ان يخلد هذا  
الموقف الرائع بمثل ما خلده به من الشعر الذي لا نزال نحس  
فيه احزان المتنبي وآلامه والذي لا يزال على تطاول  
العهد به مضرب المثل في الاسى العميق والشجن  
الدامسي ، ومن ذا الذي لا يهزه هذا القول :

احن الى الكأس التي شربت بها  
واهوى لثواها التراب وما ضما

واما كان المتنبي ينادي بأنه يحن الى الكأس التي  
شربت بها جديته فما كان ذلك لأن الجدة قد ماتت وملكه عليها  
الحزن محسب ، بل كان ذلك لأن نفس المتنبي كانت في ذلك  
الحين قد امتلأت هموما ، ولأن الزمن كان قد  
جرعه امر الفحص ، ولأنه كان قد رأى بعينيه انهيار آماله  
في الحياة واهل الحياة ، ولأنه كان قد وصل الى حال اصبح  
يحن معها الى ورودكأس المنية ، ثم فوجيء بموت  
القلب الذي كان يرى انه وحده يخلف بحبه ، وانه وحده الذي  
يستروح اليه ويعتمد عليه فصالح من اعمق قلبه  
في ساعة يائسة ( احن الى الكأس التي شربت بها ) وها  
هو نفسه يزيد هذه الفكرة وضوها وجلاء وينقول :

عرفت الليلاني قبل ما صنعت بنا

فلمـا دهنتـي لمـ تردنـي بها عـلـما

فهو قد قاسمى من صروف الليلاني ما جعله سيء  
الظن بها وما جعله لا يتربى منها الا الشر ، فلما انتهت هذه  
الداهية لم ينالها بها ولم تزده علما بما يحمله له الزمن  
من خبايا المصائب والمحن . ثم هوذا يمعن في الايضاح والجلاء

في سور خيبة امانيه وتلاشي احلامه ، فلا ولاية ولا سلطان  
ولا حشم ولا اتباع بل حظ عاشر ويأس قاتل :  
طلبت لها حظا ففات وفاته

وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

وهكذا بعد ان طوف في البلاد وراء ( الحظ ) ،  
ناته هذا الحظ وفاته كذلك هذه الجدة الرؤوم ونحن نلمس في  
عجز البيت حسا من الندم الخفي على تلك المغامرات  
والضرب في الغلوات وراء الحظ المنشود ونلمس روحًا من  
الاسف المكبوت على ان لا يكون قد قنع فلم يجاذف ورضي  
علم يندفع ، وعلى ان لا يكون قد عاش الى جانب تلك  
الجدة خلي البال من المطامح بدلا من ان يعيش الى  
جانب اولئك الذين لم يعرفوا حقه ولم يجيبوا سؤله ، ولا  
ادل على هذا الندم والاسف من البيت الذي يليه :

فاصبحت استسقى الفمام لقرها

وقد كنت استسقى الوغى والقنا الصما

ولا نريد ان نسترسل في النظر بهذه القصيدة ، وانما  
نكتفى بالقول انها صورة حية لما كانت عليه نفس المتبني  
من الحزن والكمد ، وانها مظهر واضح لما كان فيه من التبرم  
بالناس والحياة وان وفاة جدته كانت مجرأ العاطفته ، فارسل  
نفسه على سجيتها فبكى فيها بكاء مرا :

حرام على قلبي السرور فاتني

اعد الذي ماتت به بعدها امما

وما انسدت الدنيا على لضيقها

ولكن طرقا لا اراك به اعمى

فوا اسفيا ان لا اكتب مقسلا  
 لرائبك والصدر الحدي ملئا حزما  
 وتحدى الناس تحديا صارخا  
 لئن لذ يوم الشامتين بيوم مهينا  
 فقد ولدت مني لانفهم رغمها  
 تغرب لا مستعظاما غير نفسه  
 ولا قابلا الا لخالقه حكمها  
 يقولون لسي ما انت كل كل بلدة  
 وما ابتغى ، ما ابتغي جل ان يسمى  
 كأن بنيه عالمون بانتني  
 جلوب اليهم من معادن ابياتهم  
 واستهتر بالدنيا وما فيها  
 كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبني  
 ويا نفس زيدي في كرانيها قدما

هذا هو اثر المرأة الام ، او على الاصح المرأة الجدة،  
 في شعر المتنبي ، فها هو اثر الزوجة والمرأة الحبيبة في  
 حياته وشعره

اذا كان قد وجد بين المؤرخين من يذكر ام المتنبي  
 فيقول انها همدانية من صلحاء نساء الكوفة ، فانه كذلك  
 يوجد بينهم من يذكر زوجته او يتحدث عنها بشيء ، فنحن  
 لا نستطيع ان نعرف في اي زمن تزوج المتنبي ، ولا في  
 اي طور من اطوار حياته ، ولا في اي بلد من البلاد التي  
 نزلها ، بل ان الفموض ليكتنف هذه النقطة من تاريخه كل  
 الاكتاف ، وليس لدينا شيء واضح عنها ، غير انه كان  
 له ولد سماه (محسا ) اما من هي ام محسد ، وكيف

اتصل بهذه المذنبـيـ، واين اتصلـ، وكيف كانت حياته معها؟ فانا لا نستطيع الاجابة به على شيء من هذاـ. فهل عاشت معه في بـلـاط سيف الدولة؟ وهـل انتقلت مـعـهـ الى مصر؟ وهـل ذـهـبـتـ الىـ اـرـجـانـ وـشـيرـازـ؟ وهـل اـمـتدـتـ بهاـ الحـيـاـةـ بـعـدـ اـمـاتـ قـبـلـهـ؟ كلـ ذـكـ لـاـ يـجـبـنـ عـنـهـ القـارـيـخـ بشـيـءـ ، ولـكـنـ اـمـراـ وـاحـدـاـ يـسـتـوـقـفـ النـظـرـ ، هوـ انـ الـذـينـ ذـكـرـواـ مـقـتـلـ المـتـبـيـ ذـكـرـواـ انـ مـحـسـداـ كانـ يـصـبـ اـبـاهـ فيـ عـودـهـ منـ فـارـسـ الىـ العـرـاقـ ، ولـكـنـاـ لاـ نـعـرـفـ السـنـ التـيـ كانـ فـيـهاـ مـحـسـدـ ، كـمـاـ اـنـاـ لاـ نـعـرـفـ اـيـنـ كـانـتـ اـمـ مـحـسـدـ فـيـ ذـكـ الحـيـنـ . عـلـىـ اـنـاـ نـسـتـطـيـعـ التـأـكـدـ مـنـ انـهاـ لـمـ تـكـنـ تـصـبـهـ فـيـ تـلـكـ الرـحـلـةـ القـانـيـةـ ، لـانـهاـ لـوـ كـانـتـ تـصـبـهـ وـقـتـلـ زـوـجـهاـ وـوـلـدـهاـ لـسـمـعـنـاـ عـنـهاـ خـبـراـ ، وـلـرـوـىـ اـبـوـ نـصـرـ الجـبـلـيـ لـلـخـالـدـيـنـ عـنـهاـ شـيـئـاـ ، فـيـاـ لـيـتـ شـعـرـيـ هلـ كـانـتـ لـاـ تـرـازـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاـةـ تـنـتـرـ اـوـبـةـ زـوـجـهاـ وـوـلـدـهاـ وـتـسـتـعـدـ لـاـسـتـقـبـالـهـماـ بـعـدـ الـفـيـابـ الطـوـيلـ؟ هلـ كـانـتـ اـمـ مـحـسـدـ فـيـ الـكـوـفـةـ تـتـرـقـبـ عـوـدـةـ اـبـيـ مـحـسـدـ وـمـحـسـدـ فـتـبـثـهـماـ لـوـاعـجـ الـوـجـدـ وـالـشـوـقـ وـتـفـضـيـ اليـهـماـ بـمـاـ فـيـ الصـدرـ مـنـ هـوـيـ وـحـنـينـ؟ اـمـ كـانـتـ فـيـ مـكـانـ آخـرـ تـسـتـطـلـعـ اـخـبـارـ الـفـائـيـنـ العـزـيزـيـنـ مـتـوقـعـةـ ماـ يـحـمـلـانـهـ لـهـاـ مـنـ مـجـدـ وـرـفـاهـ وـمـالـ؟ اـجـلـ هـلـ كـانـتـ حـيـةـ تـنـتـرـهـماـ اـمـ كـانـتـ مـيـتـةـ مـنـ عـهـدـ بـعـيـدـ اوـ قـرـيبـ فـلـمـ يـفـجـعـهـاـ مـوـتـهـماـ الدـامـيـ؟

كلـ ذـكـ سـرـ فـيـ ضـمـيرـ التـارـيـخـ لـمـ يـكـشـفـ عـنـهـ لـاحـدـ . ولـكـنـاـ نـتـسـاعـلـ : هلـ يـمـكـنـ اـنـ تـمـوتـ فـيـ حـيـاـةـ زـوـجـهاـ ، ثـمـ لـاـ يـرـثـيـهاـ بـكـلـمـةـ وـلـاـ يـبـكـيـهاـ بـقـصـيـدةـ بـعـدـ اـنـ رـأـيـناـ شـدـةـ تـفـجـعـهـ عـلـىـ جـدـتـهـ وـطـولـ حـرـقـتـهـ لـمـوـتهاـ ، وـنـحـنـ يـعـنـيـنـاـ فـيـ مـقـالـنـاـ هـذـاـ اـنـ

نعرف مدى تأثيرها في حياة المتibi وفي شعره ، وبعد كل  
الذى مر ندرك اننا لا يمكن ان نجد لها اي اثر في حياته ولا  
في شعره .

اما ما كان من تأثير الحبيبة في المتibi فذلك ما سنجيب  
عليه في مقال تل .

## الحب عند المتنبي

هل احب المتنبي و هل احس بلواعج الوجد و تباريـح  
الغرام ؟ هل استطاعت امراة ان تخـلـب لـبـه و تـقـنـقـلـبـهـ،ـفـيـشـيدـ  
بـهـاـ وـيـتـغـنـىـ بـجـمـالـهـ وـمـحـاسـنـهـ ؟

اـذـاـ اـرـدـنـاـ اـنـ تـخـذـ شـعـرـ المـتـنـبـيـ دـلـيـلاـ عـلـىـ تـرـجـيـحـ  
الـسـلـبـ اوـ الـايـجابـ ،ـ وـاـذـاـ اـرـدـنـاـ اـنـ نـرـجـعـ الـىـ دـيـوـانـهـ لـنـدـلـيـ  
بـالـجـوابـ ،ـ فـاـنـنـاـ نـسـتـطـيـعـ اـنـ نـقـولـ بـدـوـنـ تـرـدـدـ اـنـ المـتـنـبـيـ  
لـمـ يـعـرـفـ الحـبـ وـلـمـ يـعـانـهـ ،ـ فـالـذـيـ يـقـولـ :ـ  
وـمـاـ العـشـقـ الاـ غـرـةـ وـطـمـاعـةـ

يـعـرـضـ قـلـبـ نـسـنـهـ فـيـصـابـ

وـغـيرـ مـؤـادـيـ لـلـغـرـامـ رـمـيـةـ

وـغـيرـ بـنـانـيـ لـلـزـاجـ رـكـابـ

اـنـ الـذـيـ يـقـولـ هـذـاـ القـوـلـ لـمـ يـمـكـنـ اـنـ يـكـونـ مـنـ اـهـلـ الحـبـ

بلـ هوـ مـنـ الـهـاـزـئـينـ بـالـحـبـ وـاـهـلـهـ الشـنـعـيـنـ عـلـيـهـمـ الرـاـمـيـنـ  
لـهـمـ بـالـضـعـفـ ،ـ خـالـحـبـ عـنـدـهـ غـرـةـ وـطـمـاعـةـ ،ـ وـلـيـسـ مـنـ  
رـأـيـهـ اـنـ القـلـبـ يـرـمـىـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـحـسـبـ ،ـ بـلـ مـنـ رـأـيـهـ اـنـ  
الـقـلـبـ هـوـ الـذـيـ يـعـرـضـ نـسـنـهـ لـهـذـهـ الغـرـةـ وـالـطـمـاعـةـ فـيـصـابـ .ـ  
وـلـوـ شـاءـ هـذـاـ القـلـبـ الاـ يـصـابـ لـمـ اـصـيـبـ وـهـذـاـ قـلـبـهـ نـاتـهـ لـمـ  
يـشـأـ اـنـ يـصـابـ فـلـمـ يـصـبـ .ـ وـلـمـ يـسـكـتـ المـتـنـبـيـ عـنـدـ هـذـاـ  
الـقـوـلـ ،ـ بـلـ رـدـدـهـ فـيـ مـوـاـضـعـ شـتـىـ مـقـالـ :

ما اضر باهل العشق انهم  
هروا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسنهم حسناً  
في اثر كل قبيح وجهه حسن

فالذى يراه المحبون حسناً فتفنى عيونهم به وتذوب  
نفوسهم ليس الا الوجوه فقط ، واما النقوس فانها قبيحة  
لا خير فيها ، ولو انهم اطلعوا على ما وراء هذا الحسن  
الخادع لما اضربهم عشقهم ، ولكنهم احبوا وعشقاً ، دون  
ان يمعنوا في التأمل بحقائق الدنيا ، فلم يعرفوا دخائل من  
احبوا ، ولم يفطنوا الى ما ينطوي عليه من غدر ومخاتلة وخداع .  
وี้ذا الرأي القائم متأت ولا شك عن نظره المتتبلي للناس  
عامة ذكوراً واناثاً ، فلا تحسب المرأة ان المتتبلي من اعدائها  
وحدها ، فهو ثائر على الكون ناقم على البشر جمِيعاً ،  
لانه يرى نفسه مهتمماً مغيبطاً لا ييل له اوام ولا يجاب نداء ،  
وี้ذا الرأي هو صدى لرأيه القائل :

ومن عرف الايام معرفتي بها

وبالناس روى رمحه غير راحم

ويبعد ان يعلن المتتبلي رأيه في العشق باهل العشق  
يلفت الى الفاسدات المغريةاته فيجدهم من باعنف القول واموا  
الكلام ويخاطبهم بقصوة وتحكم بصيرخاً بهم :  
تجملوا حملتكم كل نلجمية

وكل بين عليّ اليوم مؤمن

فلا التهديد بالرحيل ولا الوعيد بال مجر ، استطاع  
ان يلين قلبه ويميل به الى الهوى بل اعلن بان البين لن يضيره ،  
وان الناي لن يزعجه . ولماذا يهتم ببعدهن ويشغل نفسه

بهنـ، ولماـ يحزن لفراـقـهنـ، ويأسـى عـلـى رـحـيلـهـ مـاـ  
دـامـتـ مـهـجـتهـ وـحدـهـ الـتـي سـعـتـحـمـلـ حـبـهـ ذـلـكـ كـلـهـ ، وـماـ  
دـامـ لـنـ يـجـدـ لـهـذـهـ الـمـهـجـةـ إـذـاـ ذـابـتـ شـوـقـاـ وـتـلـاثـتـ حـنـيـتـاـ —  
لـنـ يـجـدـ عـوـضـاـ عـنـهـاـ فـيـ الـظـعـائـنـ وـثـئـنـاـ لـهـاـ فـيـ الـهـوـادـجـ  
ماـ فـيـ هـوـادـجـكـ عـنـ مـهـجـتـيـ عـوـضـ  
انـ مـتـ شـوـقـاـ وـلـاـ فـيـهـاـ لـهـاـ ثـيـنـ  
وـانـ الـذـيـ يـقـولـ :

وـكـلـ ماـ قـدـ خـلـقـ اللـهـ وـمـاـ لـمـ يـخـلـقـ  
مـحـتـقـرـيـ هـمـتـيـ كـشـعـرـةـ فـيـ مـفـرـقـيـ  
وـالـذـيـ يـقـولـ عـنـ نـفـسـهـ وـعـنـ النـاسـ :ـ  
وـدـهـرـ نـاسـهـ نـاسـ صـفـارـ  
وـانـ كـاتـتـ لـهـمـ جـثـثـ ضـخـامـ  
وـمـاـ اـنـهـمـ بـالـعـيـشـ فـيـهـمـ

وـلـكـ مـعـدـنـ الـذـهـبـ الرـغـامـ  
اـنـ الـذـيـ يـقـولـ هـذـاـ القـوـلـ لـاـ يـكـونـ عـلـيـهـ غـرـيبـاـ اـنـ يـرـىـ  
مـهـجـتـهـ اـسـمـىـ مـنـ اـنـ يـذـيـبـهاـ شـوـقـ لـخـلـوقـ ، وـنـفـسـهـ اـعـظـمـ  
مـنـ اـنـ يـقـتـلـهـ حـبـ لـاـنـسـانـ .ـ  
وـاـذـاـ كـانـاـ آـنـفـاـ اـنـ التـبـيـ نـاقـمـ عـلـىـ النـاسـ جـمـيـعـاـ  
وـانـ ثـورـتـهـ لـيـسـ عـلـىـ المـرـأـةـ وـحدـهـ ، هـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ اـنـ  
لـيـسـ لـهـ فـيـهـ نـظـرـةـ خـلـصـةـ مـقـولـهـ :

اـذـاـ غـدـرـتـ حـسـنـاءـ وـفـتـ بـعـهـدـهـاـ  
ـهـمـنـ بـعـهـدـهـاـ اـنـ لـاـ يـدـومـ لـهـ اـعـهـدـ

ـوـقـولـهـ :

ـوـمـنـ خـبـرـ الـغـوـانـيـ فـالـغـوـانـيـ  
ـضـيـاعـيـ بـوـاطـنـ بـهـظـلـامـ

ان هذا القول صراحة في تخصيصه ايها بالشطر الوافي  
من حملاته على بنى الانسان ومراحة برأيه السيء  
بها ، بل ان هذا القول يضعه في صف خصومها الالداء  
واعدائها الاشداء . على انه ربما كان احسن وصفها  
كل الاحسان وانصفها كل الانصاف حين قال :  
وان عشقت كانت اشد صباية

وان فركت فاذهب مما في فركها قصد  
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى

وان رضيئت لم يبق في قلبها حقد

ولكن المتنبي صاحب هذه الاراء القاسية في المرأة  
والغرام لم يستطع ان يجرد شعره من الغزل فقد افتقـح  
كثيرا من قصائده بالغزل وتحدث عن الحبـو النساء وظهورـه  
بالهوى وشكوى النوى ، وشارك العاشقين في بـث الـوجـد  
ونـكـرـ الـوـصـلـ وـالـصـدـ ، حتـىـ انه اـغـرـقـ فيـ ذـلـكـ اـحـيـاـ  
اغـرـاقـاـ حـاـوـلـ فـيـهـ انـ يـتـسـمـيـ بالـعاـشـقـ كـلـ الـعاـشـقـ :  
ومـاـ اـنـاـ الاـ عـاـشـقـ كـلـ عـاـشـقـ

اعـقـ خـلـيلـهـ الصـفـيـنـ لـأـئـمـهـ

وان يجعل عشقه فوق كل عشق :

وطرف ان سقى العـاشـقـ كـاسـاـ

بـهـاـ نـقـصـ سـقـانـيـهاـ دـهـاـقاـ

وان يكون شاعرا غزوا :

احـيـاـ وـاـيـسـرـ مـاـ عـانـيـتـ مـاـ قـتـلاـ

وـالـبـيـنـ جـارـ عـلـىـ ضـعـفـيـ وـماـ عـدـلاـ

فهو يتحدث عن حب قاتل يعجب معه كيف يبقى  
حيـاـ ، ويـتـحدـثـ عـنـ بـيـنـ جـارـ عـلـيـهـ فـلـمـ يـنـصـفـ ضـعـفـهـ . ولاـ

يقتصر على هذا الحديث الاجمالي عن الحب بل يعود  
فيخاطب حبيبة بعينها فيتضرع لها تضرع الولهان :  
بما بجفنيك من سحر ملئى دننا

يهوى الحياة واما ان صدقت فلا

ثم يسهب بوصف عواطفه الغامضة في عدة أبيات  
يمثل بعدها الى ما اراده من مدح احد الناس وينتهي  
الامر . وهكذا يبدو غزله بوجه عام ، فهو اما ان يرتفع  
قليلًا او كثيرا ، ومهما ارتفع او انحط فهو غزل لا طائل تحته ،  
ولا عاطفة تذكير ولا شعور بوريه ويسف احيانا كل  
الاسلاف فـ يقول :

اوه بديل من قولتني واما  
لمن نلت والبديل ذكرهاها

اوه لمن لا ارى محاسنها

وابل واهما واهما مرآهها

والمتبعي نفسه يعلن رأيه في هذا الغزل الفاشي  
في بعض قصائده ولا يحجم عن ان يقول انه سير على سنن  
غيره من الشعراء ، وان طريقة الشعر قد اقتضت هذا ، وان  
افتتاح القصائد بالغزل ليس دليلا على الحب والغرام :  
اذا كان مدح فالنسب المقدم

اكل نصيبح قال شعرا متيم

وكان المتبعي صاحب الدعوة ضد الحب والمرأة قد  
خشى ان يؤخذ عليه غزله وان يعتبر تناقضا مع ارائه  
الصريرة فاعتذر عن هذا الغزل واعلن حقيقته ، وانه ليس  
في الواقع الغزل الذي عرفه الناس ونظمه الشعراء ، بل  
هو غزل رمزي يخفى تحته شعورا غير شعور الغرام ،

وَحِبَا لِفِرِّ الْمَرْأَةِ، وَشَغَفَا بِغَيْرِ ثَنَيَا هَا الْفَرِّ وَاحْدَاقِهِ  
النَّجْلِ، فَمَبْعَدُ أَنْ افْتَشَ قَصِيدَةً بِالْفَزْلِ الْمَلَوْفِ عَادَ يَقُولُ

حَبْ كَنْسِي بِالْبَيْضِ عَنْ مَرْهَفَاتِهِ  
وَبِالْحَسِنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّفْلِ  
وَبِالسَّمْرِ عَنْ سَمَرِ الْقَنَاعِ غَيْرِ أَنْتِي  
جَنَاهَا أَحْبَائِي وَاطْرَافُهَا رَسْلِي  
عَدَمَتْ خُؤَادًا لَمْ يَتِمْ فِيهِ فَضِيلَةٌ  
لِفِرِّ الثَّنَيَا الْفَرِّ وَالْحَدِيقَ الْجَبَلِ  
نَمَا حَرَمَتْ حَسَنَاتِهِنَّ بِالْهَجْرِ غَيْطَةٌ  
وَلَا بِلْفَتَهَا مِنْ شَكَا الْهَجْرِ بِالْوَصْلِ

وَهُوَ فِي بَيْتِهِ الْأَلْثَ عَنِيفٌ مُنْتَدِدٌ، وَفِي بَيْتِهِ الْأَخْـيرِ  
مُسْتَهْزِئٌ بِلَذَائِذِ الْوَصْلِ وَمُسْتَهْزِئٌ بِالْهَجْرِ لَا يَرِى أَنْ غَضَبَ  
الْحَسَنَاءِ وَهَجْرَهَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِرِّمَ الْمَرْءَ أَيْهَا غَمْطَةً وَلَا أَنْ  
وَصَلَهَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْلِبَ إِلَيْهَا سَعَادَةً وَهَذَا قَسْبَى، ظَهَرَ  
مِنْ مَظَاهِرِ ارَائِهِ الْصَّلَبَةُ، عَلَى أَنَّنَا لَا نُسْتَطِيعُ أَنْ نَجْرِدَ  
جَمِيعَ غَزْلِهِ مِنِ الْعَاطِفَةِ وَالشَّعُورِ، فَلَا شَكَ أَنْ فِي الْقَلِيلِ  
مِنْ بَعْضِهِ عَاطِفَةٌ جِيلَاشِيَّةٌ وَحِبْسَا نَابِضَا وَلَكِنْ، لِيْسَ الْحَبُّ  
وَلِيْسَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ مَصْدِرُ ذَلِكِ، بَلْ هِيَ ذَكْرِيَاتِ أَيَّامِ  
سَوَالِفِ وَاَشْوَاقِ الْبَيْيِ مَنَازِلِ نَاثِيَّةٍ وَاهْلِ بَعِيْدِيْنِ كَمَا  
يَقُولُ :

مَسَالَاحٌ بِسُرُقٍ أَوْ تَبَرُّونَمْ طَائِرٍ  
إِلَّا اَنْتَبَتْ وَلَسِي فَسْؤَادٌ شَيْقٍ  
أَوْ يَقْبُولُ :

وكيف التذاذى بالاصل والضھى  
 اذا لم يعد ذاك النسمى الذى هبـا  
 فیا شوق ما ابـقى ویا لـی من النوى  
 ویا دمع ما اجرـى ویا قلب ما أصـبـى  
 او يقول :

لـیالـى بـعـد الـظـاعـنـنـ شـکـولـ  
 طـوالـ وـلـیـلـ العـاشـقـينـ طـوـيـلـ  
 بـینـ لـیـ الـبـدرـ الـذـیـ لـاـ اـرـیدـهـ  
 وـیـخـفـینـ بـدـراـ مـاـ الـیـ سـبـیـلـ  
 وـمـاـ عـشـتـ مـنـ بـعـدـ الـاحـبـةـ سـلـوـةـ  
 وـلـكـنـنـیـ لـلـنـائـبـاتـ حـمـولـ  
 اـذـاـ کـانـ شـمـ الرـوـحـ اـدـنـیـ الـیـکـمـ  
 فـلـاـ بـرـحـتـیـ رـوـضـتـوـ قـبـوـلـ  
 وـمـاـ شـرـقـیـ بـالـمـاءـ اـلـاـ تـذـکـرـاـ  
 لـمـاءـ بـهـ اـهـلـ الـحـبـیـبـ نـزـولـ

ومـاـ اـدـرـانـاـ انـ لـاـ يـکـونـ وـهـوـ يـرـسـلـ هـذـاـ الشـعـرـ وـاـمـتـالـهـ  
 اـنـمـاـ يـذـکـرـ تـلـكـ العـجـوزـ الـذـیـ رـأـیـاـ اـشـفـاقـهـ عـلـیـهـاـ  
 وـشـفـغـهـ بـهـاـ فـیـ رـئـائـهـ لـهـاـ ،ـ وـاـنـهـ يـذـکـرـ اـیـامـ صـبـاهـ المـاضـیـةـ  
 فـیـ بـلـدـهـ وـبـیـنـ اـهـلـهـ وـقـومـهـ :ـ  
 اـمـاـ الـاحـبـةـ فـالـبـیدـاءـ دـوـنـهـمـ  
 فـلـیـتـ دـوـنـکـ بـیـدـ دـوـنـهـ بـیـدـ  
 وـلـاـ بـدـ لـنـاـ وـنـحـنـ فـیـ الـحـدـیـثـ عـنـ غـزـلـهـ مـنـ اـنـ تـلـمـ  
 بـالـبـیـاتـ الـجـمـیـلـةـ التـیـ تـغـزـلـ فـیـهـاـ بـالـعـرـابـیـاتـ  
 وـعـرـضـ بـالـحـضـرـیـاتـ :

ما اوجه الحضر المستحسنات بها  
كأوجه البدويات الرعبيّات  
حسن الحضارة مظلوب بتطرية  
وفي البداوة حسن غير مظلوب  
اين المعيز من الآرام ناظرة  
وغير ناظرة في الحسن والطبيب،  
اى ذي ظباء فللة ما عرفن بهما  
مضع الكلام ولا صبغ الحواجيب  
ومن هوى كل من ليست مموهة  
تركت لون مشيئي غير مخضوب

## عندما ينتحب مطائب وظيفة

يروى انه لما عوتب كافور الاخشيدى على عدم تلبية طلب المتنبى قال : ( يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد اما يدعى الملکة مع كافور ؟ ) .

اما ان ابا الطيب ادعى النبوة بعد محمد فذلك امر لم يثبت ، ودعوى لم يقم عليها برهان . واما ان يدعى الملکة مع كافور فلا ندرى ما الذى ينكره كافور في المتنبى مما يحول بينه وبين مشاركته له الولاية في زمن هانت فيه الولايات حتى ولها مثل كافور ، ولا ندرى ما الذى كان يربده كافور في الرجل لكي يصبح اهلا للولاية ، واذا كان احمد بن الحسين وهو العربي الكريم والعبقري العظيم لا يحسن للولاية فلا ندرى من هو في نظر كافور كان يحسن لها ! .. وقد كان عيب المتنبى عند كافور انه : (رأى تعالىه في شعره وسموه في نفسه ) (١) ولو انصف كافور لوجد في هذه الصفات ما يحمله على احترام المتنبى واجابة رغباته ، ولكن الدهر الذي اوصل كافور للحكم وترك ابا الطيب طريدا من بلد الى بلد يفتش عن الرزق ويسبى للكرامة هو دهر يصبح منه تعالى الشاعر وسموه النفس ذنبنا

يعاقب صاحبه بالحرمان وهو دهر فهمه ابو الطيب  
حق الفهم عندما قال :

ودهر ناسه ناس صفار  
وان كانت لهم جث ضخام  
ولم ار مثل جيراني ومثلني  
لثلني عند مثاهم مقام  
بارض ما شتفيت رأيت فيها  
فليس يفوتها الا الكرام

ومن المؤسف ان فريقا من مؤرخي الادب القدماء والمعاصرين قد تابعوا كافورا في راييه وانكروا على ابي الطيب تمسكه بطلب الولاية وعدوا ذلك منه اشتطاطا وغرورا لحسبائهم انه طلب الولاية للولاية والحف في السعي لها حبا بالسيطرة والسلطان والواقع ان ابا الطيب قد رأى من لؤم الزمان ما رأى وعاني من نذالة الايام ما عانى انما كان يطلب (وظيفة) تغنيه عن الوقوف على الابواب وتكتيفه مداراة من لا يستحق المداراة وتمنع عنه اذى الطامعين في مدحه من لا يستحقون المدح والواقع انه وقد لوحق سيف عند سيف الدولة تلك الملاحقة القاسية وكابد من شغب الشاغبين كل صعب مرير راح يفتح عن منجي يحفظ عليه رزقه موفور الكراامة عزيز الجانب ولم يجد ذلك الا في عمل يليه فيتخلص به من متاعب الحياة وكوارثها . فهو قبل ان يصل الى سيف الدولة كان قد ذاق من حياة الامريين فطورد وسجن وكان من تقدير بعض حكام عصره لشعره ان جاد عليه بدينار جراء انشاده قصيدة في مدحه فلما وصل الى سيف الدولة عرف انه وصل الى

حمى الملك العربي الذي يفهمه ويقدر وعرف انه وصل الى السيد الذي يلذ فيه القول ويطيب لسجاياه المدح وعرف انه وصل الى الرجل الذي كان ينشده ويسعى اليه ... ومن يكون هذا الرجل اذا لم يكن سيف الدولة بطل العرب ورمز سيادتهم وعنوان عزهم في عصره ، فإذا ما مدحه المتبني واثنى عليه فانما يمدحه وينثني عليه لا متكلا ولا متصنعا ولكنه يفعل ذلك متأثرا بمناقب هذا المدوح الذي زاد عن حمى العروبة والاسلام اي ذياد . والذى استطاع ان ينشئ الدولة العربية الفتية فى ذاك الخضم الاعجمي الزاخر . لقد كانت بطولة سيف الدولة وشخصيته الفذة خير مثير لتراث المتبني الفياضنة وكانت معارك علي بن حمدان افضل ما يهجي شاعرية احمد ابن الحسين محمد المتبني مقامه وثار لادبه الفذ بهذا الحاكم الاعمى مما ناله من ذلك الحاكم الفقير وحسب ان الامر سيطول به قرير العين رضي النفس ولكن احيط بالدسائس من كل مكان ووجد المشاعرون فيه منافسا خطيرا غطى عليهم فاجمعوا امرهم على الكيد له فتحمل ذلك صابرا يعزيه عما يناله انه في جوار الرجل الحبيب الى نفسه القريب الى قلبه ولكنه ضاق آخر الامر ذرعا بما فيه فنجل على المجازفة والتخلص من حياة الاتكال . وقد افصح عن محنته تلك في القصيدة التي ارسلها الى سيف الدولة حينما كتب اليه مع ولده يطلب منه العودة اليه بعد تركه كافور فقال معتذرا عن ذلك :

فهمت الكتاب اسرر الكتب

فسمعا لامر امير الامم - امير العرب

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا  
 ولا انا عن نفسي ولا عنك راضيا  
 وطوعا له وابتهاجا به  
 وان قصر الفعل عما وجب  
 وما عاقبني غير خوف الوشأة  
 وان ا لوشائيات طرق الكذب  
 وتكميل قوم وتقليلهم  
 وتقرير لهم بيننا والخوب  
 وقد كان ينصرهم سمعه  
 وينصرني قلبي والحسب  
 فهو لا يرى في جوار سيف الدولة نضاعة ولا في مدنه  
 مهانة وهو لذلك لا يشكوه ولا يتضجر منه بل يحن اليه  
 وييهواه وانما يخاف الدسائس في البلاط ويخشى وشائيات  
 الوشأة ، وأالعيش بين الدسائس والوشائيات عيش اليم  
 والحياة فيها جحيم ولا سيماء للاديب الفذ والشاعر  
 المجيد الذي يريد جوا هادئا ينصرف فيه الى شعره وآدبه  
 لا الى محاربة الكائدين ومصاولة الشائين ، وقد  
 حسب المتنبي انه ملاق عند كافور ما يربو اليه وقد كان  
 كافور هو الخاسر حين خيب به الرجاء واضاع الامل !  
 ولم يكن قصد المتنبي لكافور بالامر الهين على نفسه  
 فقد كان يشعر في قراره ضميره اي مركب خشن اركبه  
 الدهر واثي هوان اوصله اليه حين الجاء الى كافشور  
 وقد كان يائس من نفسه اشد الاسى حين اضطر  
 لمح هذا الرجل الذي شاء الدهر الاعمى ان يوصله الى  
 كرسى الحكم . وحسبك في ذلك ان اول بيت انشده المتنبي  
 بكافور كان هذا البيت الذي يفيض حزننا ولما والذى

اعلن فيه صراحة انه كان يتمسّى الموت قبل ان يقف هذا موقف المر :

كفا بك داء ان ترى الموت شافيا  
 وحسب المنيا ان يكن امانيا  
 تمنيتها لما تمنيت ان ترى  
 صديقا فاعينا او عدوا مداعينا

ولا أعرف في الالفاظ لفظا يمكن ان يعبر عن شفورة  
الرجل الكريم الذي لم يجد بدا من الوقوف على ابواب  
أشباه كافور تعبير هذين البيتين الخالدين ويدل دلالتهما  
ويكفي في مصاب المتibi ان يكون الداء قد بلغ بالشاعر  
الى ان لا يرى شافيا منه الا الموت ، وحسبه ان تكون المانيا  
قدا صبحت امانيه ، لقد تمناها كما تمنى الصديق الوفي  
المخلص الذي لا يخونه عند الشدائـد ولا ينساه اذا فرقـت  
بينهما المناصب ، لقد تمنى ذلك فاعيـاه فـتمنى - على  
الاقل - عدوا ينسى عداوته احيانا فـيداجـيه ويـكـفـ عن  
اساعته فـاعـيـاه ايضا فـصـاحـ من اعمـاقـ قـلـبـهـ ( تمنـيتها ) .  
ولقد استطاع ان يخرج اروع صورة للحزن العميق بهذه الكلمة  
الواحدـةـ ( تمنـيتها ) .

واذكر ان احد النقاد عاب على المتبني ان يفتتح قصيدة  
الدح بهذا المطلع لا سيمما وهي اول قصيدة ينشدها لهذا  
المدوح ، ولكن المتبني كان في ذلك سائرا على سجنه  
معبرا عن حقيقته معلنا لشكايته غير مبال بحسن المطلع  
او قبحه ، ولم يلبث بعد انشاد هذه القصيدة ان همس بيته  
وبين نفسه : *لهم انت اعلم*

## تبأ بالندم فكان أشادم

قلت ان آول شعر انشده المتبي لكافور كان شعرا  
تمنى به الموت قبل ان يقف هذا الموقف المر ، وانه شعر ان  
دل على شيء فاما يدل على ان المتبي كان في  
حال من الاستي واليأس لا يأسف فيها على ترك الحياة بل  
يود لو ان هذه الحياة تركته واراحتة من هذا الهوان الذي  
صار اليه ، فهو اليوم يقف على باب كافور وينقرب اليه  
بالاماديغ ويصوغ له قلائد الشعر ، وينشده فرائد القصائد  
ليفضل كافور فيفنه عن الناس ، ويسد خلته بعمل مستقر  
يطمئن اليه في مستقبل ايامه . واي حياة هي هذه الحياة  
التي تسوقه الى هذه الوقفة المزرية على باب هذا  
الرجل المتقلب . ولكن ابا الطيب اعتقد انه لم يكن له بد  
من هذه الوقفة على هذا الرجل فقد ضاق صدره بما لقى  
من الدسائين عند سيف الدولة فظن انه سيستطيع ان  
يفيظ سيف الدولة وحاشيته بما سيلقى عند كافور .  
واحسب انه قد تعمد ان يقصد الى كافور بالذات بعد  
تركه سيف الدولة وعمد ان لا يقصد غيره وان يختنه  
بمدحه دون الاخرين من امراء عصره ليكون ذلك ابلغ في  
نهاية سيف الدولة واغاظته :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا

ليحدثن لمن فارقتهم نسدم هستنة

وقد كان موقفنا ان كافورا سيقدرها قدره وانه سي—رى  
ان من نعم الله عليه ان يأتيه ابو الطيب فهو لذلك  
سيجزل له العطاء وسيجيب الرغبات ويحقق الاماني وقد  
كانت امنيته الوحيدة ( ضياعة او ولادة ) يتمنى بها على  
الحاسدين ، وما قدر الولاية او الضياعة بجانب قصائد  
العصماء التي لم يكن يحلم بمثلها هذا الامير الجبار  
المستحدث النعمه !! ..

ولكن كافور لم يكن عند ظن المتنبي ولم تأت  
النتيجة كما قدر ابو الطيب بل اصم (ابو المسك) اذنيه  
عن الولاية وحسب انه يستطيع ان يكسب قلب المتنبي  
بالمال فاغدقه عليه ، ولكن لم يكن المال هو الذي يطلبـه  
المتنبي ملقد كان يملك منه ما يغنىـه في حاضره عن  
كافور ، واذا لم يكن يملك منه الكثير الفائض فانه لم يكن  
يريدـه بهذه الامـاليـب التي سئـمـها واعـفـتها نـفـسـه ، ولـمـ  
يـكـنـ يـرـيـدـهـ بـنـفـسـ الـطـرـقـ القـيـ كـانـ يـنـالـهـ بـهـاـ فيـ المـاضـيـ .  
لـقـدـ كـانـ اـبـوـ الطـيـبـ يـطـلـبـ عـنـ كـافـورـ الـمـجـدـ وـالـكـرـامـةـ وـكـانـ  
كافـورـ اـبـعـدـ النـاسـ عـنـ اـنـ يـنـيـلـ اـبـاـ الطـيـبـ الـمـجـدـ وـالـكـرـامـةـ :  
وـمـاـ رـغـبـتـيـ فـيـ عـسـجـدـ اـسـتـقـيـدـهـ

وَظَلَّ الْمُتَبَّلِي يُعْرِضُ بِامْنِيَّتِهِ تَارِهَ فِي قَوْلٍ :

و هیت علی مقدار کفی زماننا

و نفسی علی مقدار کثیک

ويصرخ بها تارة أخرى فيقول :

ذا لم تهـب إلـي ضـيـعـة أو وـلاـيـة

## فجودك يكتونني وشفلك يسلب

ولكن لا التعریض ولا التصریح کان یمکن ان یہ --- کافورا لتحقیق الامنیة . وادرک اخیرا ابو الطیب . ان کافورا لیس بالرجل المنشود وانه لم یکن الامیر الذي یستطیع ان یغیظ به سیف الدولة ، وان مجلس سیف الدولة علی مایہ کان خیرا له من مجلس کافور ، وان اذی الدساسین وهم الحاسدین فی البلاط الحمدانی هما اهنا للنفس الكريمة من استجداء امثال کافور . وان علی بن حمدان اذا کان قد اصفعی حينا للوشاة فهو لم یسیء بشخصه للمتبّی اساءة تحمله على هذا الرحيل غير الحکیم وان سیف الدولة لم یکن یستحق ان ینفك عنہ المتّبی بمثل هذه السهولة . ادرک ابو الطیب آخر الامر هذه الحقائق فزفر من اعماق صدره زفة ضمنها هذا القول البالکی :

عثرت بسيري نحو مصر فلا لعا  
بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا  
وفارقت خير الناس قاصد شرهم  
واكرمهم طرا لا لهم سرار  
فما عاقبني المخصسي بالغدر جازيا  
لان رحيلى كان عن حلب غدرا

ولم يكن المتتبّي في هذه الابيات ناطقاً الا بما كان يحسه في اعماق نفسه ولم تكن هذه الابيات ممثلة الا الصورة الصحيحة لما يعتلّج في ضميره ولا يمكن ان يقال انه قد قال هذا القول تقرباً الى سيف الدولة فان الذي لا ريب فيه هو ان المتتبّي بعد تركه مصر قد عرّف علّيَّ ابن زيد وورد الى حلب وعلى ان لا يرجع الى سيف الدولة مهما كلفه.

الامر ، ولذلك رأينا لا يجيب دعوة سيف الدولة ويصر على عدم الاوبة متعللاً معتقداً ، لانه كان واثقاً بان حديث سفره الى مصر ومدحه كافور وخبيته عنده وما مني به من الهوان والضيم سيكون موضع تنادر لخصومه السابقين وسيجدون في كل ذلك ما يغزونه به في كل ساعة فقد تركهم مستهراً بهم موقفنا بنكايته لهم اذا به يعود على اسوا حال لذلك كان من غير المعقول ان يعود المتباي بعد رجوعه من مصر الى حلب . فهو في ابياته السابقة لم يكن يقصد التقرب الى سيف الدولة بل كان يعبر عن احساسه العميق الصحيح . لا سيما اذا عرفنا انه لم يظهر هذه الابيات وانها وجدت في رحله بعد قتلها

تركت الركائب ضميراً عن ميامنها ومارق المتباي  
 سيف الدولة وكان الندم الذي تنبأ به ابو الطيب ولكنه لم يكن ندم سيف الدولة بل كان ندمه على ما فوت من ذاك الجوار العزيز . فمنذ الساعة الاولى التي نزل فيها ديار كافور ادرك في قراره نفسه ان هذه الديار ليست بالديار التي تستطيع ان تعيش من ديار محمد ، الدولة وأنه يوم تعمد ان يأتيها مراغماً كان غير موفق في اختياره فتمنى الموت في اول قصيدة ثم تتالت مدائحه فما خلت واحدة منها من التوجع والتالم بل كانت جلها صوراً زليخة بالانساني دفعها

بالمهم :

اما تغلط الايام في بان ارى

بعيضاً تائياً او حبيباً تقرب

فها هو يذيع بان الايام قد نابت الحبيب وقربت

البفيض ثم يسترسل في ذلك ويزيد مقصده اياضها ، ويعلن

عن ذاك الحبيب الثاني . ويشير اليه اشارة صريحة :  
ولله سيري ما اقل ثئية

عشية شرقي الحدالى وغرب

عشية احفي الناس بي من جفوته  
واهدى الطريقين القى اتجنب

ويعرف ان من جفاه كان حفيما به ، معينا بامرها وانه قد  
ضل الطريق يوم هجره وتخلى عنه . وكانه اراد ان يعتذر  
عن ذلك وان يذكر ان طمسوا نفسه وبعد همته قد حملاه  
على النفرة منه ورکوب هذا المركب المزع ف قال :

لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ الْمَسْأَلَاتُ مَنْ يَرَى فِي أَعْيُونِي

فَكُلْ بَعِيدُ الْهَمِّ فِيهَا مَعْذِبٌ

ثم يعود الى اشجاره ومتاعبه :

الا ليت شعري هل اقول قصيدة

فلا اشتكي فيها ولا اعترب

وبسي ما يذود الشعر عنی اقله

ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه

حذائی و اشکو من احب و اندب

احن الى اهلي واهوى لقاءهم

## وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فنكاد نلمس هذه الاشجان بانفسنا ونكمد نحسها بقلوبنا

فما نستطيع الا ان نأسى على هذا الرجل العظيم الذي  
شاء له الدهر هذا العذاب المريض وما نستطيع الا ان نشيركه  
النقطة على الزمان واهل الزمان .

وبعد ان يفرغ صبر المتبني ويوقن ان كافورا انما يخادعه تشور نفسه ثورتها العنيفة ، وتهيج كرامته هيجانها العاصف فيهجو كافورا ذاك الهجاء الخالد الذي امتزج فيه الحزن بالغضب والالم بالاسف والحسرة بالندامة والذي كان فنا فريدا في الادب العربي لا يدانيه فن . وكان المتبني بعد هذا الهجاء قد خشي اعتراض المعارضين وتحذلق المحتذلقين وغمز الغامزين فرد عليهم سلفا وقال :

وشعر مدحت به الكركدن

بين القرىض وبين الرقى  
نمـا كان ذاك مـدخلـه

ولـكـهـ كانـ هـجوـ الـورـى

ولعمري انه لم يكن اعظم في هجو الورى من ان يقول المتبني في كافور :

ندى لابي المسک الكرام فـانـهـاـ

سوـابـقـ خـيـلـ يـمـدىـنـ بـادـهـمـ

وبعد ان امعن في الهجاء واقام الدنيا واقعدها على

لـأـنـورـ قالـ مـخـاطـبـاـ النـاسـ اـجـمـعـيـنـ :

اخـذـتـ بـمـدـحـهـ فـرـايـتـ لهـواـ

مقـالـيـ لـلـاحـيـمـقـ ياـ حـلـيـمـ

ولـماـ انـ هـجـوتـ رـايـتـ عـيـاـ

مقـالـيـ لـابـنـ آـوىـ ياـ لـئـيمـ

فـهـلـ مـنـ عـاذـرـ فـيـ ذـاـ وـفـيـ ذـاـ

فـمـدـفـوعـ إـلـىـ السـقـمـ السـقـيمـ

الـلـهـمـ اـنـاـ لـعـاذـرـوـنـ . . .

## أبن زيدون بين أحياه والشعر

لقد اعتورت حياة ابن زيدون مشاكل سياسية وغرامية  
كابد فيها عناء جما فكان ينجح حينا ثم يفشل حينا آخر وقد  
تعاقب عليه هذا النجاح والفشل مرارا عديدة خرج من  
بينها ابن زيدون الشاعر الفريد .

وإذا كان ابن زيدون الرجل لم يفز من دهره بكل  
ما كان يرجوه وإذا كان هذا الدهر قد نقص عليه ساعات  
الفوز فب بينما هو على رئبة الوزارة اذا به في غياب  
السجن ، وبينما هو على متن الوصال اذا به على  
غضص الهجر . اذا كان ابن زيدون الرجل قد لقي في  
حياته كل هذا شلا ربيب ابن زيدون الشاعر بين  
على النقيس من ذلك فقد كان ناجحا جداً وموفقاً جداً  
موفقاً بمقدار ما كان يصيّب ابن زيدون الرجل من هزيمة في  
الحياة ، كان ابن زيدون الشاعر سجل نصراً باهراً وفتحاً  
مبيناً في الشعر ، وبمقدار ما كان يخبو من ابن زيدون الرجل  
كان يلمع من ابن زيدون الشاعر .

فهذا السجن الظالم الذي رسف فيه ابن زيدون الرجل  
بالهوان وأحني من هامته ضراعة وذلاً هذا السجن الموحش  
الذي دفن فيه ابن زيدون حياماً فمات قبل الموت وفنى قبل  
الفناء ، هذا السجن نفسه حلق فيه ابن زيدون الشاعر

الى الجوزاء ورفع من رأسه الى العلاء ، وهذا السجن  
نفسه خلد فيه ابن زيدون الشاعر بعد الموت وحيي بعده  
الفناء .

ولعمري ان ما ظفر به ابن زيدون الشاعر من  
الدهر ليغفر لهذا الدهر ما جرعه لابن زيدون الرجل  
غصبا وما البسه هوانا ، وان ما لهذا الدهر من يداي  
يد على ابن زيدون الشاعر ليمحو ما له من سيئات اي  
سيئات عند ابن زيدون الرجل وماذا يريد ابن زيدون بعد  
من دهره الذي ظل يش��وه ويجهوه ناقما منه شماسه منكرا  
عليه ظلمه :

فتامل كيف يفتشى  
مقلة المجد النعاس  
ويشت المسك في التر  
بفي وطوى ويداس  
فعسى ان يسمح الدهر فقد طال الشناس

ماذا يريد منه وقد سمح ولأن بعد الشناس فخلق للشعر  
العربي ابن زيدون الشاعر صاحب التونيه العصماء  
وحسيبه في ذلك منة وفضلا .

ولم يكن ابن زيدون في الواقع ليذهب في سوء ظنه  
بعد هرمه التي ابعد الحدواد بل كان يرجي من خلال  
الدياجي الحالكة بصيص نور يكشف عنه الضر وكان في كل  
شكاويه يتربقب من الدهر احسانا بعد الاساءة :

ان قسا الدهر فلما  
ء من الصخر انجاس

وهذا الاحسان انما كان يترقبه ويرجوه كرجل ولكن  
يشاء الدهر ان يهبه له كشاعر فيكون ارفع قدرًا واعظم  
قيمة .

ولقد كان معظم شعر ابن زيدون وليد ظروفه السياسية  
او الغرامية التي تلاعبت به حينا من الدهر ووجهته في  
وجهات شعرية رائعة كانت غناء طورا وبكاء طورا آخر .

فهو باتصاله ببني جهور واشتراكه معهم في ثورة  
قرطبة حظي لديهم اي حظوة ووزر لهم ولقب بذى الوزارتين  
فكان طبيعيا وهو الشاعر المجيد ان يمدحهم وهم رؤساؤه  
واولياء نعمته ومدح الملوك والامراء كانت سنة طبيعية في  
الشعر العربي ، واذا كان الشعراء البعيدين عن مجالس  
الملوك والامراء يتسابقون ل مدحهم فان الشعراء القريبين  
منهم الراتعین في اكتافهم اولى بذلك . وكذلك كان ابن  
زيدون فقد مدح امراء بني جهور بقصائد كثيرة ليس فيها ما  
يستوقف النظر بل جرت علىجرى المجرى المعروف عند  
الشعراء العرب في ذلك الحين من الابتداء بالفزل ثم  
التخلص الى المدح ووصف المدوح بالمبالفات المتداولة  
التي تقال لكل ذي سلطة ونفوذ فهو مثلا يقول في ابن

جهور :

متمرس بالدهر يقعد صرفه  
ان قام في نادي الخطوب خطيبا

ثم بعد ان يغدق عليه كثيرا من امثال هذه الاوصاف  
يشعر بأنه قد بالغ على عادة شعراء عصره فيشير الى  
ذلك معتذرا :

و اذا تفنن في اللسان ثناؤه  
عاتقين لم يكن المراد غريبـا  
غالى بما فيه فغير مولـع  
سرفـا ولا متـوقـع تكـذـيبـا

ولكنا نستطيع ان نقول له ان ثناءه هذا اذا كان  
حقيقة غير متوقع في مجلس ابن جهور تكذيبا — ولا شك —  
متوقع اليوم هذا التكذيب وهو في كل يوم م الواقع للسرف .  
وعلى هذه الانماط تمضي مدائنه كلها :

ترى الدهر ان يبطش فمنكم يمينه  
وان تضحك الدنيا فلتقم لها ثغر

وكما مدح بين جهور رؤساءه الاولين كذلك مدح  
بني عباد رؤساء التالين فكانت مدائنه على غرار  
المدائن الاولى فهو يقول للمعتمد :  
اعرض عن الخطرات لتك ان تشا

## تكن النجوم اسنة لقناكا

ملوك لبسنا للدهر في جنباتهم  
رقيق الحواشي مثل ما نفوف البرد  
بحديث مقيل الامن ضاف ظلاله  
ومنهل العيشن للعزوبة والبرد

ليس ابو الحزم الذي غب سعيه  
 تبصر غاوينا فبان له الرشد  
 اغفر تمهدنا به الخفض بعدهما  
 اقض علينا مضجع ونبأ مهد  
 فهو في هذا القول صادق كل الصدق فنان بنى  
 جهور في اول عهدهم به رفعوه الى أعلى المناصب  
 واغدقوا عليه اعظم الخيرات فكان مقيلاً امنه عندهم  
 ضافي الظلال ومنهل عيشه عذب بارد ، ونال لديهم  
 الخفض والدعة .

وكذلك هو ايضاً حين يمدح بنى عباد يقول للمعتضد :  
 انى اقوم بشكر طولك بعدهما  
 ملأت يدي من الدنيا يداكـا  
 بردت ظلال ذراكـا واحلوى جنى  
 نعمكـا لـي وصفت جمام نـداكـا  
 وامنت عـادـية العـدـا الـاقـتـالـ مـذـ  
 اعـصـمتـ فـي اـعـلـىـ يـفـاعـ حـمـاكـا

وفيما عـادـا اـمـثالـ هـذـهـ الـابـيـاتـ التـيـ نـراـهاـ مـثـبـوتـةـ فـيـ  
 قـصـائـدـ المـدـحـيـةـ الـكـثـيـرـ لاـ نـجـدـ فـيـ مـدـحـهـ شـيـئـاـ جـدـيدـاـ يـمـكـنـ انـ  
 يـدـلـ عـلـىـ شـخـصـيـاتـ مـمـدوـحـيـهـ بلـ هـوـ مـبـالـغـاتـ مـبـتـذـلـةـ مـكـرـرـةـ  
 تـقـالـ لـكـلـ ذـيـ حـولـ وـطـوـلـ وـلـاـ يـشـتـرـطـ فـيـهـ الصـدـقـ وـالـاخـلـاصـ ،ـ  
 وـمـنـ الطـرـيفـ اـنـ اـبـنـ زـيـدـوـنـ نـفـسـهـ يـعـتـرـفـ بـكـنـبـهـ بـمـدـائـحـهـ  
 وـانـهـ كـانـ يـمـدـحـ طـمـعاـ وـرـجـاءـ فـاـذاـ اـنـقـطـعـ الطـمـعـ وـذـهـبـ الرـجـاءـ  
 لـمـ يـقـيـ للـمـدـحـ مـوـسـوعـ اـمـاـ اـنـ يـمـدـحـ لـاـنـ المـدـوحـ خـلـيـقـ  
 بـالـمـدـحـ فـذـاكـ لـمـ يـكـنـ يـعـرـفـهـ هـوـ وـلـاـ مـعـظـمـ الشـعـرـاءـ .ـ فـانـهـ

بعد ان وقع بينه وبين بنى جهور ما وقع قال مخاطبا ابا الحزم  
بن جهور :

### قل للوزير وقد قطعت بمحنه

زمنا فكان السجن منه ثوابي  
لا تخش في حقني بما مضيت  
من ذاك في ولا توق عتابي  
لم تخط في امري الصواب موفقا  
هذا جراء الشاعر الكاذب

وكما كان ابن زيدون مدائح في هؤلاء الرؤساء فقد كانت له مراثي فيمن توفي منهم ومن ينتمي اليهم وهذه المراثي لا تنطوي على شيء من صدق العاطفة فهي مراث اقتضتها الجاملات والتقاليد يبدؤها على عادة الشعراء بالمواعظ والحكم ويخلص الى المرثي فيصفه بما يقتضي المقام ويناسب الحال ، ثم لا يتزدد في ان يضيف نفس هذه الصفات الى مرثي اخر لا نسبة بينه وبين المرثي الاول الا نسبة الموت ومن المدهش ان ابن زيدون قد بز غيره في هذا الباب فشعراء المراثي يكتفون عادة بتزديد المعاني الواحدة في كل مرثي لأن الهدف مسيرة الظروف لا الاخلاص في العاطفة والقول وهذه المسيرة تقتضي التهويزن والبالغات وسوق الموعظ والحكم عند كل وفاة لا فرق بين شخصيات المتوفين ، وهذا هين في جانب ما اقدم عليه ابن زيدون في هذا الباب فقد ناق في ذلك المقدمين والمتاخرين فانه لم يكتف باعادة المعاني وتكرارها بل راح يعيد القصيدة نفسها في اشخاص مختلفين متناقضين مع تغيير ما يجب

تغيرة من الفاظ يقتضيها الموقف . فهو مثلاً عندما كان يرثى في اكتاف بنى جهور ويعيش في نعيمه كان ملزاماً عليه ان يرثي امواتهم كما يمدح لحياتهم فمللت لم ابن جهور فرثاها ابن زيدون بقصيدة رائعة قال في مطلعها :

هو الدهر فاصبر للذى احدث الدهر

فمن شيم الابرار في مثلها الصبر  
الى اخر التقليد المعروف من دعوة للصبر وتنكير بالموت  
ثم تخلص الى للتوفاة التي يقول فيها مثلاً :  
انفس نفس في الورى اقصد الردى  
واخطر علق للهدى اهلك الدهر

فام ابن جهور في هذا البيت هي انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى وهي في الابيات الاخرى ذات صفات لا تقل عن هذه الصفات وقد كنا نرضى من ابن زيدون هذا القول لو انه ثبت عليه بالبرغم مما فيه من الكذب المسرح ولكن ابن زيدون بعد ان يغضب عليه الجمهوريون ويخرج الى الشبيلية ويصل ببني عباد ويصفو له العيش في ظلالهم يوماً ولسي نعمته الجديد المعتمد ويخلفه ابنه المعتمد . والجملات هنا تقتضي الرثاء وانشد الشعر في المتوفى . وما دامت القضية قضية ظروف مؤاتية ومناسبات موافقة فليرجع الشاعر الى اوراقه يستخرج منها دفائن المراثي التي قيلت في حال كهذه وليس اقرب من القصيدة التي نظمها في ام ابن جهور غال المتوفى الجديد امير والمتوفاة القديمة اميرة ام امير ، وهكذا اخذ ابن زيدون قصيدة في رثاء ام ابن جهور وغير وبدل بعض ابياتها مما لا مناص

من تبديله ، وكان المعتقد ايضا كما كانت ام ابن جهـور  
انفس نفوس الورى واطر اعلق المدى ، ويضى ابن  
زيدون بنقل القصيدة كلها مع تبديل اضطراري لبعـض  
الابيات فهو يقول في رثاء المرأة الجمهورية مثلا :

هنـياـ البطـنـ الـارـضـ اـنسـ مـجـدـهـ  
بـشـاوـيـهـ حـلـقـهـ فـاسـتوـحـشـ الـظـهـرـ  
بـطاـهـرـةـ الـاـثـوـابـ قـانـتـةـ الضـحـىـ  
مـسـبـحـةـ الـاـنـاءـ مـحـرابـهاـ الـخـدـرـ  
حـصـانـ انـ التـقـوىـ اـسـتـبـدـتـ بـسـرـهاـ  
فـمـنـ صـالـحـ الـاعـمـالـ يـسـتـوـضـعـ الـجـهـرـ  
يـطـأـطـاـ سـتـرـ الصـوـنـ دـوـنـ حـجـابـهاـ  
غـيرـفـعـ عـنـ مـثـنـىـ نـوـافـلـهاـ الـمـسـتـرـ  
وـهـذـاـ القـوـلـ لاـ يـمـكـنـ اـنـ يـقـالـ فيـ رـجـلـ وـالـمـعـتـضـدـ لاـ يـمـكـنـ  
اـنـ يـنـعـتـ بـهـذـهـ النـعـوتـ النـسـائـيـةـ الـبـحـتـةـ فـلـاـ بـدـ مـنـ تـحـوـيرـ فيـ  
مـجـرـىـ بـعـضـ اـبـيـاتـ الـقـصـيـدـةـ لـتـأـتـيـ مـطـابـقـةـ لـلـمـقـامـ وـهـكـذـاـ  
كـانـ فـقـدـ قـالـ فـيـ قـصـيـدـةـ الـمـعـتـضـدـ بـدـلـ هـذـهـ اـبـيـاتـ :  
وـابـيـضـ فـيـ طـيـ الصـفـيـعـ كـأـنـهـ  
صـفـيـحـةـ مـأـثـورـ طـلاقـتـهـ الـاـثـرـ  
اعـبـادـ يـاـ اوـفـيـ الـمـلـوـكـ لـقـدـ عـدـاـ  
عـلـيـكـ زـمـانـ مـنـ سـجـيـتـهـ الغـدرـ

فـمـنـ هـذـاـ المـثالـ يـنـتـضـعـ اـنـ الرـثـاءـ كـالـمـدـيـعـ فـيـ شـعـرـ اـبـنـ  
زـيـدـونـ لـمـ يـكـنـ لـهـ اـيـةـ صـلـةـ مـعـ قـلـبـهـ وـنـفـسـهـ ، وـعـلـىـ ذـلـكـ  
فـلـيـسـتـ شـاعـرـيـةـ اـبـنـ زـيـدـونـ الصـحـيـحـةـ بـارـزـةـ فـيـ هـذـاـ النـوـعـ  
مـنـ الشـعـرـ بـلـ هـيـ بـارـزـةـ فـيـ النـاحـيـةـ الـأـخـرـىـ مـنـ النـاحـيـةـ

التي عذبته طويلا فعانيا احوال الصدود وغوائل السجن  
وما الى ذلك من مرارات ولوغات وهي الناحية التي  
سنعرض لها في مقال اخر

على ان لابن زيدون قليلا من الشعر الثنائي العاطفي  
الذي قاله في رثاء بعض اصدقائه كقصيدة في رثاء القاضي  
ابي بكر بن ذكوان التي لا تخلو من عاطفة صادقة وشاعر  
صحيح .

## غرام ابن زيدون

يقول ابن بسام صاحب الذخيرة في معرض حديثه عن ابن زيدون : ( اصبح متيم ذلك الحي وعاشق ولادة لامي زاد على مجنون ليلسى وقيس لبني ) . الى اخر ما قاله ابن بسام على طريقته السجعية الملة .

فمن هي هذه ولادة التي كان لها هذا الدور في حياة هذا الشاعر وكان لها اثر اي اثر في ادبه وطراز عيسه وتفكيره بل هي التي وجهت ابن زيدون هذا التوجيه الوجداني الرائع فخلق فيه ما شاء له التحقيق .

ان ولادة هذه هي بنت المستكفي من اواخر الخلفاء الامويين في الاندلس والمستكفي هذا يحدثنا عنه مؤرخ الاندلس الشهير ( ابو حيان ) فيقول : ( لقد اجمع اهل التحصل انه لم يجلس في الامارة اسقط منه ولا انقض اذ لم يزل معروفا بالتلحف والركاكة مشتها بالشرب والبطالة سقير السر والعلانية ، اسرى الشهوة عامل الخلوة ، فلم يكن فيه للخلافة ادنى كنایة وانما ارسله الله على الامة محنۃ وبلية ) .

هذه هي النعوت التي اغدقها ابو حسان على المستكفي ، ولعمري انه لبون شاسع بين هذا الخليفة وبين اولئك الذين رفعوا شأن الاندلس الى الفرا .

اما ابنته ولادة غرام يقول المؤرخون ( انها كانت اديبة

شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الادباء وتساجل الشعراء ، ولقد عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج . وقد ابتدل حجابها بعد نكبة ابیها وقتلها فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاصرهم وتجادلهم ويتعشقها الكباء منهم وكانت على خلق جميل وادب غض ) .

ولقد انشطر مؤرخو الادب فيها الى رأيين يقول احدهما بانها كانت مستهترة في حياتها الخاصة كل الاستهثار وانها كانت تكتب على ثوبها ابياتا من الشعر تتقول فيها :

انا والله اصلح للمعالني  
وامشي مشيتني واتيه تيهما  
امكن عاشقني من صحن خدي  
واعطى قبلتي من يشتتهها

ويقول الرأي الآخر على عكس هذا القول ، وانها كانت على الرغم من تبدل مجالسها عفيفة محسنة ، وكانت علاقاتها برئية لا تتعذر المطارحات الادبية والمساجلات الشعرية .

وقد المح ابن بسام صاحب الذخيرة الى ذلك فقال في معرض حديثه عنها : ( على انها سمع الله لها وتغمد زللها طرحت التحصيل واوجدت الى القول فيها السبيل لقلة مبالغتها ومجاهرتها بذاتها ) .

ويقول احمد زكي باشا ان المؤرخين اجمعوا على عفتها وصونها . ودعوى الاجماع هذه دعوى غريبة فان قول ابن بسام وهو اقرب المؤرخين الى عصرها واكثرهم معرفة بدقائق الامور هناك

يناقض قوله كل المناقضة بل ان ابن بسام يتهمها صراحة  
وان كان اراد ان يجئ بالتهمة ناعمة رقيقة ولكنها على  
كل حال تهمة !

ونحن لا نستطيع ان نؤمن بهذا الاجماع  
على سوتها . ومن العسير علينا ان نذهب  
معه الى ذاك الحد بعدهما عرفا عن مجالسها ونواديها .  
وكيف يريدنا على ذلك وابن زيدون محبها المفتون  
وعاشقها الموله لا يتردد بالاشارة الى ما كان بينه وبينها  
والى ما صار بينها وبين مزاحمه ابن عبدوس بعد هجرها  
لـ :

لقد تالوا ان ولاده اغرضت عن ابن زيدون حينا من  
الاحيان ومالت الى مزاحمه ابن عبدوس وكان يلقب  
( بالفار ) فقال ابن زيدون في ذلك :

اكرم بولادة ذخرا المذخر  
لو اتها فرقت بين بيطار وعطار  
قالوا ابو عامر اضحي يلتم بها  
قتل الفراشة قد تدنو من النار  
غير تمونا بان قد صار يخلفنا  
ليمن نحب وما في ذاك من عمار  
اكل شهي اصيحا من اطاييه  
بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار  
وفي هذا القول ما فيه وما كان ابن زيدون ليقوله  
لولا انه يعلم من الامر ما يعلم ، وما كان ابن بسام  
ليقول ما قال لولا ان ذلك كان معروفا ومشهورا .

وعلى كل فنحن لا يسعنا الا ان نقول مع ابن  
بسام : ( سمع الله لها وتغمد زلها ) .

اما حب ابن زيدون لها فقد بلغ حده القصى وعاد  
تلها وشفها فقد علقها على اعنف ما يعلق المحبون  
فكان ذلك سبيلا لاذكاء عاطفته واعمال قريحته  
فجاعنا برائق الشعر وخالد القوافي ، وبرز في ذلك  
ما شاء له التبريز . ولقد كان لهذا الحب العميق فضل  
اي فضل على ادب ابن زيدون وشعره فقد احب  
ونجح ثم فشل ثم نجح وقد تداوله هذا الفشل والنجاح  
فكان بينهما القيثار العامرة تشجي النفس وتهيج القلب  
اذا ناحت اذا شدت ، فهو طورا شاد طروب يهتف :

ما للمدام تديراها عيناك  
فيimmel من سكر العصبا عطفاك

هلا مزجت لعائسيك سلافها

ببرود ظلمك او بعذب لساك

وها هو طورا باك حزين ينشد :

انا قرانا الاسى يوم النوى صورا  
مكتوبة واخذنا الصبر تلقيننا

لا اكرس الراح تبدى من شمائتنا  
سيما ارتياخ ولا الاوتار تلهينا

او ينشد :

يا نازحا وضمير القلب متواه

انستك دنياك عبدا انت دنياد

الهتك عنه فakahات تسر بها

فما تمر ببال منك ذكراه

عل الليالي تبقينى الى امل  
الله يعلم والايام معناته  
او ينشد :

يا دمع صب ما شئت ان تصويا  
ويما فؤادي آن ان تذوبا  
اذ الرزايا اصحيت ضروريا  
لسم ار لسي في اهلها ضروريا  
قد ملا الشوق الحشان ذوبا  
في الفرب افرحست به غريبا  
عليـل دهر سامي تعذيبـا  
ادنى الضـنا اذ ابعـد الطـبيـبا

احب ابن زيدون ولادة مبادلته حبا بحب وما نdryi هل  
صدقـت في حبـها واحـلـصـت في هـواـها ؟ ولـكـنـناـ نـعـرـفـهـ هوـ محـباـ  
سـادـقاـ لاـ يـصـدـفـ عـنـهاـ وـلـاـ تـزـيـدـهـ الاـيـامـ الاـهـوىـ وـصـبـابـةـ . اـمـاـ  
هـىـ فـقـدـ سـاـيـرـتـهـ حـيـنـاـ وـاعـرـضـتـ حـيـنـاـ اـخـرـ ، فـقـدـ نـالـ فـيـ اـوـلـ  
اـمـرـ رـضـاهـاـ وـوـقـعـ منـ نـفـسـهاـ وـوـقـعـتـ منـ نـفـسـهـ وـكـانـتـ بـيـنـهـماـ  
مـزاـورـاتـ وـجـلـسـاتـ . وـقـدـ كـتـبـتـ الـيـهـ يـوـمـاـ تـضـرـبـ لـهـ موـعـداـ :

ترقب اذا جـنـ الظـلامـ زيـارتـيـ  
هـائـيـ رـأـيـتـ الـلـيـلـ اـكـتمـ للـسـرـ  
وبـيـ منـكـ ماـ لـوـ كـلـ بـالـشـمـسـ لـمـ تـلـعـ  
وبـالـبـدرـ لـمـ يـطـلـعـ وبـالـنـجـمـ لـمـ يـسـرـ  
وـمـاـ نـدـريـ مـقـدـارـ ماـ هـذـاـ القـولـ مـنـ صـدقـ العـاطـفةـ وـهـلـ  
كـانـتـ حـقـاـ شـفـوـةـ بـهـ اـلـىـ هـذـاـ الحـدـ اـمـ اـنـهـ الشـعـرـ وـنـوـازـعـ  
الـنـفـسـ ، وـاـنـاـ لـنـشـكـ كـلـ الشـكـ اـنـ يـكـونـ بـيـثـمـاـ الـاخـيرـ مـعـبراـ

عن حقيقة ما يختلج في قلبها لابن زيدون وان كانت سايره  
الى حد ما فما نظنها كانت ملخصة لانه كان لابن زيدون  
شركاء في ذلك القلب الذي ما نحسبه عرف الهوى المسحique  
الخالص ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة وقد كتبت  
الله امضا :

الاهل لنا من بعد هذا التفرق  
سبيل فيشكوا كل صب بما لقى  
الى ان قالوا:-

تمر الليالي لا ارى التين ينقضسي  
ولَا الصبر من رق التشوق معتقلي  
سقى الله ارضا ته غدت لك منزلة  
بكل سكوب هاطلي الويل مفدق

ولا شك ان في هذه الآيات عاطفة جياشة ولكننا نحسبها  
عاطفة بنت ساعتها اثارتها ذكرى عذبة حلوة ولو كانت  
صادقة مخلصة لما رأيناها ترتمي على خصمه ابن  
عبدالروس .

بلسى لقد خاز ابن عبدوس حيناً بولادة واقتصر عنها ابن زيدون فوقع ذلك من نفسه امر الواقع لانه كان محبنا مفتونا فعمل جده على اقصائهما عنه وتغافل ما شاء التقى وتفتحت قريحته على ضروب منه النظم والنشر جد رفيعة فكتب اليه رسالته الهزلية الشهيرة على لسان ولادة وقد عبّث فيها به اي عبّث ، فاشتهرت هذه الرسالة في الشرق والمغرب وشرحها الكثيرون شروحاً مختلفة ، كما انه ارسل اليه تصحيدة قال فيها :

وغرك من عهد ولادة  
 سراب تراهى وبرق ومض  
 تخن الوفاء بها وللظنو  
 ن فيها مقبول على من غرض  
 هي الماء يأبه على قابض  
 وينفع زيدته من مخض  
 ونبتها بعدي استحمدت  
 سيري اليك لعنى غمض  
 ابا علمـ عثـيرـ مـاسـقـيلـ  
 لـبـرـمـ منـ وـدـنـاـ ماـ اـنـتـضـيـ

ولقد جاء قول ابن زيدون مصدقـ لما قلناه عن الشك في  
 اخلاص ولادة في حبها وبيتها ( تخن الوفاء ) والذى يليـه  
 يعبران عن ذلك احسن تعبيرـ . ولقد وقعت رسالة ابن  
 زيدون على ابن عبدوس وقعا امسـك معـه ابن عبدوسـ  
 عن التعرض او لادة الى ان انتقل ابن زيدون من قرطبةـ  
 الى اشبيلـيةـ .

ولم يكن ابن عبدوس المزاحم الوحيد لـ ابن زـيدـونـ علىـ  
 ولادة بل كان له مـزـاحـمـونـ آخـرـونـ اـشـهـرـهمـ ابو عـبدـ اللهـ  
 البـطـلـيمـوـسـيـ وقد كـتـبـ اليـهـ ابنـ زـيدـونـ كـمـاـ كـتـبـ الىـ ابنـ  
 عـبـدـوـسـ .

ومن العجيب ان ابن زـيدـونـ بالرغمـ مماـ كانـ يـرـاهـ  
 من تقلبـ ولادةـ وـبـلـهاـ الىـ خـصـومـهـ كانـ لاـ يـنـفـكـ عنـ التـعـلـقـ  
 بـهـماـ بلـ كانـ ذلكـ يـزيدـهـ وـلـهـ وـشـفـقاـ . وفيـ الواقعـ فـانـ هـذـاـ  
 الحـبـ قدـ خـلـقـ ابنـ زـيدـونـ خـلـقاـ جـديـداـ وـكانـ اـثـرـهـ كـبـيراـ فيـ

منحية الشعرية ورفعه الى تلك المنزلة بين الشعراء .

ولا ريب ان الالم اذا حل بالشاعر الحساس يذكى  
قريحته فتفيض بكل نظيق ثم ينملأ الم المتقبلي النفسي  
مثلا لما جاء بالروائع الخالدات ولو لا شجونه لما انشد تلك  
الميمية العصماء في حضرة سيف الدولة ولا وسم كافورا  
بداليته الفراء .

ولولا الاسر لما رأينا روميات ابى فراس الحمدانى  
الرنانة ، وبالتالي لو لا هذا الحب العنيف والمهجر الطويل ،  
والفرق المديد لما تمعنا بروائع ابن زيدون فكانت غذاء  
لارواحنا وسميرا في اشجاننا وعزاء في شدائنا بل لما كان  
للادب العربي تلك التونية الساحرة التي لم تسقط حتى  
اليوم قصيدة عربية ان تراهمها .

## صحافيون الماضي

اذا كانت العصور الماضية لم تعرف الصحافة فانها عرفت مظهرا من مظاهرها كان يسد الفراغ الذي تملأه الصحافة اليوم ان من ناحية الخير او ناحية الشر ..

وما دامت الدعامة الاولى للصحافة هي ( الكلام ) وحسن استخدامه في الدفاع والهجوم والترهيب والترغيب، فان الاقدمين الذي عرفوا من الكلام افانيين عجيبة استغلوها في التأييد والخذلان والمدح والقدح هم كصحافييننا اليوم سواء بسواء ، فقد كان لكل جماعة لسان يدفع عنها ويدعو لها ، ولكل فكرة فم يشيد بها ويزري بخصوصها ، ولكل حكومة مؤيدون ومعارضون ، وبينن هؤلاء وهؤلاء من يؤيد او يعارض عن عقيدة ومن يفعل ذلك ماجورا ففيؤيد فلانا في الحكم ثم يتجمس عليه بعد الحكم ، وينصر عقيدة منتصرة ثم يخذلها اذا انهزمت ! اي ان الامر بالامس كان كما هو اليوم تماما ..

لقد كان الشعراء في الماضي مكان الصحفيين في الحاضر ، غلا بد للحاكمين من دعاية ولا بد للطامعين بالحكم من دعاية ولا بد للتأثيرين من دعاية ولا بد لكل حزب وكل فرد من دعاية ، وانضل الدعاة هم الشعراء فان لهم من اساليب الكلام ما ليس لغيرهم ولكلامهم من الاثر ما ليس لاحد ، وقد كانوا يعرفون لانفسهم هذه القيمة فيستغلونها

امضى استغلال ، فمن لم يكن له فكرة خاصة او بالاحرى  
من لم تكن تهمه الفكرة الخامسة كلن يبيع نفسه غاليا فيه .  
على القصائد الوف الفنانير ويعيش عيشة الاثرياء المنعمين ،  
وهو لا يجد اية غضاضة في ان يذم اليوم من مدحه البارحة  
ولا ان يفعل العكس ما دام في ذلك مورد رزق ومنبع مال .  
ومن كان ذا عقيدة في المدح ولذم وهم قليلون كلنوا يعارضون  
الحكم القائم .معارضة عنيفة ينالهم بسببها انواع الاذى ولكنهم  
يصمدون في الميدان حتى النفس الاخير ، وبعوضهم كان  
يعارض يائسا فهو لا يأمل ابدا ان تحكم جماعته ولكن مؤمن  
بهذه الجماعة فهو يتحمل كل شيء في سبيلها .

وكما يتعرض للصحافيون اليوم للاعتداء عليهم بالضرب والجرح احيانا فكذلك كان حال الشعراء. ولكن الامر على كل حال لن يصل الى الحد الذي كان يصل فيه مع الشعراء فان اعدائهم لم يكونوا يرثون لهم باعتداء بسيط بل كانوا يطلبون ارواحهم ويفوزون بهذه الارواح . وكلنا نعلم ان شاعر العرب العظيم ( المتبي ) قضى بسيف ( مفاتك الاسدي ) وكذلك كان حال ابن الرومي ودببل الخزاعي . وغيرهم من شعراء الجاهلية والاسلام .

سأعرض لصورة او لصورتين مما يخطر على البال الان على ان اعرض في كلمة اخرى لشاعر معارض عنيد كانت وسليته **الوحيدة في محاربة (الحكومة)** ورجالها الصور الكاريكاتورية العجيبة التي كان يضحك لها ويعجب بها حتى انصار الحكومة انفسهم .

فمن الصور اللطيفة تلك الصورة التي رسمها احد الشعراء لامير اسود اللون كان يكرهه الشاعر ويحاربه فرأاه مرة على منبر الخطابة وقد لبس على جسمه الاسود ثوبا ابيض لم يظهر منه الا يداه ووجهه فتأمله مليا وانشد :

ترى منبر العبد اللثيم كأنما

### ثلاثة غربان عليه وقوع

ومنها قول الشاعر فيمن اسمه (عمرو) ويظهر ان حال عمرو هذا كان كحال من تظاهروا في الزمن الاخير بالإيمان بالعروبة والوطنية بعد ان كفروا بهما وحاربواهما طوال حياتهم :

ارفق بنسبة عمرو حين تنسبه

### فانه عربي من قوارير

وكم فينا اليوم من هم عرب من قوارير ! ..  
ولعل مما يلحق بهذا الباب قول ذاك الشاعر الذي هجا محمد بن يزيد الشمالي وقبيلته ثمالة بقوله :

سالفاعن ثمالة كل حي

### مقاتل القائلون ومن ثمالة

قتلت محمد بن يزيد منهم

### مقاتلوا زدتنا بهم جهاله

## أدباء انتهازيون وآخرون مبعدون

هذه النقمة العارمة على الظلم الاجتماعي ، وهذه القلام الغاضبة لما تعانيه الكثرة الكاثرة من حرمان وعقوق واهتمام .

هذا الغليان الذهني التي تتفجر به اقلام الكتاب بين الحين والحين .

هذه النقمة وهذا الغضب وهذا الغليان له اشباه في ماضينا الادبي في كل عصر ، ومن المؤسف ان تاريخنا هو تاريخ ملوك وجبارية ومتسلطين ، لا تاريخ شعب وعباقرة وكادحين ، لذلك ضاعت اصوات الشعب وصرخات المحرومين في غياب الاهتمام ، ولم تصلنا منها الا همسات حفظتها صحف التاريخ لا عمدا ولا قصدا ، ولكن صدفة وعرض !

فالذين كانوا يكتبون ويدونون كانت تند من اقلامهم جمل قد تقصر وقد تطول ، ولكنها في قصرها وفي طولها تشير الى ان الشعب كان يحيى غير حياة البذخ والترف التي كان يحياها الحكم ومن مت اليهم بصلة او سبب . وان السواد الاعظم كان يكابد في سبيل العيش اشق الاهوال وان رجال الفكر والقلم كانوا بين مدلس متزلف وصولي لا يبالى في سبيل الثروة ان يركب كل مركب ، وبين ابى كريم لا يتنزل الى دركات الهوان ، فكان حتما عليه ان يعيش

عيش الفقر ، ويحيى حياة الضنك ! .

وقد كان لكل ذلك صدى في اقلام الكتاب والشعراء ،  
ودوي في آفاق الادب تتصادم فيه الافكار وتناقض الدعوات  
والمتبع يجد الكثير من هذا القبيل ، ولعل ما حدث  
قبل ثمانية قرون بين ابن ابي حصينة المعربي وبين  
مواطنه ابن الزويدة المعربي قريب مما نراه يحدث اليوم .  
فقد كان ابن ابي حصينة شاعرا اديبا ، ولكنه آخر طريق  
الوصوليين الازهاريين فسعى بكل جده ليكون اميرا  
فخريا مكان له ما اراد بعد ان تذلل بالثراء وتضرع وبعد  
ان اكثر من مثل قوله :

اشنا عدامكم واهوى ان ادين لكم

فللعدى دينهم فيكمولي ديني

ثم شجعه وصوله الى الامارة الفخرية التي لم  
يكن لها منها الا اللقب ، شجعه ذلك الى الوصول الى  
الامارة الفعلية بعد الامارة الفخرية ، فقال مثل هذا القول:

ابا صالح اشكو اليك نوابيا

عرقني كما يشكو النبات الى القطر

فهب هبة يبقى عليك ثناها

بقاء النجوم الطالعات التي تسري

فوهبت له الاراضي والاموال ثم ولـي الامـارة  
وشارك في الحكم .

ولم ير الادباء في نجاح زميلهم مغنمـا بل عـدوه  
منقـحة غـنـقـمـوا عـلـيـه طـرـيقـه التـي سـلـكـها ، وـصـدـفـ ان توـصلـ  
الـى الدـخـولـ فيـ الجـنـديـهـ رـجـلـ يـصـفـهـ المؤـرـخـونـ بـاـنـهـ «ـمـنـ»ـ

رع الناس وأسلافهم » وكان يلقب بالزقوم . فصار شيئاً يذكر في المرة فقال ابن الزويدة الموري :  
أهل المرة تحت أقبسم خسطة

وَبِهِمْ أَنَاخُ الْخَطْبٍ وَهُوَ جَسِيمٌ  
لَمْ يَكُنْهُمْ تَأْمِمَ إِبْنَ حَصِينَةَ  
حَتَّى تَجَنَّدَ بَعْدَهُ الْزَّقْوُمُ  
يَا قَوْمَ قَدْ سَيَّمْتَ لَذَاكَ نَفْوسَنَا  
يَا قَوْمَ أَيْنَ التَّرْكُ ؟ أَيْنَ الرُّومُ ؟ .

العلم بعد ابى العلاء مضي  
والارض خالية الجوانب بلقمع

ومما يمكن ان يذكر في هذا الموضوع قصة الحسن بن  
صافي الذي لقب نفسه (ملك النحاة) لتخصصه بعلم النحو،  
فقد كان يرى انه وهو من رجال الفكر ، منكور الفضل  
محروم النعمة فنصف ان الامير نور الدين محمود خلع عليه  
خلعة سنية ونزل ليمضي الى منزله فرأى في طريقه  
حلقة عظيمة فمال اليها لينظر ما هي ، فوجد رجلا

قد علم تيسا استخراج الخبايا . منها وفف عليه ملك  
نحاة ، عرفه الرجل فقال لذلك التيس : ان في حلقة —  
رجلان عظيمان القدر شائع الذكر ، ملك في ز Yi سوق ، اعم  
الناس واكرم الناس واجمل الناس فارسي اياه ! ..

فسق ذلك التيس الحلقة ومضى حتى وضع يده  
على ملك النحاة ! .. فلم يتمالك ملك النحاة ان خلع  
تلك الخلعة ووهبها لصاحب التيس ، فبلغ ذلك نور الدين  
فعاتبه ، وقال استخففت بخلعكنا حتى وهبتكا لمثل ذلك الرجل  
. .. فقال : يا مولانا عذرني في ذلك واضح لان في هذه  
المدينة زيادة على مائة تيس ، ما فيهم من عرف قدرى  
الا هذا التيس فجازيته على ذلك .

فضحك منه نور الدين وسكت .

هذه ملامح من حياة الادباء والمفكرين في تلك العصور ،  
ومن يحاول استقصاء ذلك يجد لها كثيرا من النظائر والامثال .

## الوزير الملهبي

بعض الوزراء الادباء في عصرنا القديم كانوا كالواحة  
الخضراء في صحراء الحكم الجديب ، فالحكم الذي لم يكن  
يصله بالشعب الا ما يستطيع ان يستغل به هذا الشعب  
والحكم الفردي الاستبدادي الذي هان فيه الناس بدمائهم  
وكراماتهم واموالهم ، هذا الحكم المظلم كان يومض حيناً بخيط  
من النور تقر به العيون وتطيب النفوس ..

## الفقي المعدم

فالوزير الملهبي الحسن بن محمد الذي كان اديباً  
شاعراً رقيق الحاشية ، والذي مضى في يوم من الايام  
قبل الوزارة في رحلة فاشتهى اللحم فلم يقدر على ذله  
فقرأ وفادة فقال يائساً :

الا موت يماسع فاشترى  
هذا العيش ما لا خير فيه  
الا موت لذبذ الطعم يأتي  
يخلصني من العيش الكريه  
اذا ابصرت قبراً من بعيد  
وددت لو انني مما يليه

ا ل ر ح م ال م ه ي م ن ن ف س ح ر  
 ت ص د ق ب ا ل و ف ا ه ع ل س ا خ ي ه  
 ف ه ز الش ع م ر ا ر ي ح ي ة م س ا ف ر ف ي الر ك ب ف ا ش س ت ر ي ل ه  
 ل ح م ا ب د ر ه م و ط ب خ ه و ا ط ع م ه .  
 ه ذ ا الش ا ع ي ر الم د ع م ح ي ن و ل ي ال وز ا ر ا ف ي ب ف د ا د ،  
 ك ا ن ك ال ل ب ت ة ال ف ض ة ف ي الر م ض ا ء ال و ق ي د ة .  
**ح و ا ر**

ف اذ ا ج ل س ف ي ش ه ر ر م ض ا ن و ال ز م ا ن د س ا ف و ال ح ر ل ا ف ج  
 ف ي ب ل د ك ال ا ه و ا ز ت ن ف ج ح ر ا ر ت ه ال ج ل و د . ف ي ل و د ال وز ي ر  
 و ن د ا م ا ه ب م ا ي ل ح ف ه و ا ئ ه م و ي ل ط ف ا ج س ا د ه م م ن و س ا ئ ل ذ ا ك  
 ال ع ص ر (١) ح تى اذ ا س م ع ص و ت ر ج ل ي ن ا د ي ع ل ي الن ا ط ف  
 ي ق و ل ال وز ي ر ل ج ل ي س ه الق ا ض ي ا ب ي ب ك ر ب ن ع ب د  
 الر ح م ن ب ن خ ز ي م ة : ا م ا ت س م ع ا ي ه ا الق ا ض ي ص و ت ه د ا  
 ال ب ا ئ س ف ي م ت ل ه د ا ال و ق ت و ال ش م س ف و ق ر ا س ه و ح ر ه ا  
 ت ح ت ق د م ي ه و ن ح ن ن ق ا س ي ف ي م ك ا ن ت ه د ا ال ب ا ر د م ا  
 ن ق ا س ي ه م ن ال ح ر ؟

ث م ي ا م ر ب ا ح ض ا ر ال ن ا د ي ف ي ر ي ا م ا م ه ش ي خ ا ض ع ي ف ا ع ل ي  
 ق م ي ص ر ث و ه و ب غ ير س ر او ي ل و ف ي ر ج ل ه ت ا س و م ة م خ ل ق ة و ع ل ي  
 ر ا س ه م ئ ز ر و م ع ه ن ب ي خ ة ف ي ه ا ن ا ط ف ل ا ت سا و ي خ م س ة د ر ا ه م .  
 ف ي ك ت ب ال وز ي ر ل ل م ش ه د ال ذ ي ك ا ن ف ي ال ح ق ي ق ة ص و ر ة ال ش ع ب  
 و ل ك ن ال وز ي ر م ع ا ك ت ب ا ه و ح ن ا ه ي ح س ب ا ن الن ا س ي م ل ك و ن  
 م ن او ق ا ت ه م م ت ل م ا ي م ل ك ، ف ي خ ت ا ر و ن الس ا ع ة ال ت ي ف ي ه ا

- - - - -

١ - ي ق و ل ر او ي ا خ ب ر : ... ( و ن ح ن ف ي خ ي ش ب ا ر د ) و ال غ ي ش : ن س ي ج  
 م ن ال ك د ا ن ك ا ن ي ع ل ا ق ف ي م ج ا ر ي ال ه و اء و ي ر ش ب ال م اء ف ي ب ر د م ا و ر ا د .

يعلمون وال الساعة التي فيها يقيلون ، يحسب ذلك وينسى  
لطول ما عرف من النعيم ان البؤساء لا خيار لهم فيه — و  
للشيخ :

الم يكن لك ايها الشيخ في طرفي النهار مندوحة  
عن مثل هذا الوقت ؟ فيتفسد الشيخ ويجب بساروع  
جواب واسجهاء : ما اهون على الراقد سهر الساهد . ثم  
ينشد :

ما كنت بائع ناطف فيما مضى  
لكن قضت لي ذاك اسياب انقضى  
واذا المعيل تعذر طلباته  
رام المعاش ولو على جمر الفضا

يَهُنَّ ذَلِكُمْ

وهنا يذهل الوزير عن الموقف كله ولا يذكر الا انه  
اديب شاعر ، وان بين يديه من ينطلق بالشعر بعد ان  
اجاب باحسن النثر ، فلا يسأل الناطفي عما الجأه الى  
حرفته وساقه الى طبته ، بل يسائله : اراك متأدبا فمن  
اين لك ذلك ؟ فيجيبه الرجل : اني ايها الوزير من اهل  
بيت لم يكن فيهم من صناعته ما ترى ..  
فيهب الوزير للرجل مائة دينار وخمسة اثواب . ويجمع  
له ذلك رسميا في كل عام .

الصاحب القديم

اما صاحبه الذى اعانه على القرم فوھب له درهم

اللحم ، فقد ناله الدهر هو الاخر بسياط الحاجة ولما علم  
بما صار اليه حال الرفيق القديم ، مضى الى بابه وجعل  
وسيلته اليه الشعر مكتوب اليه رقعة فيها :

الا قل للوزير فدته نفسى

مقال مذكر ما قصد نسييه

اذذكر اذ تقول لضنك عيش

الا موت يياع فاشتريه ؟

لقد ذكر الوزير فدعا بصاحب العسرة ، بعد ان وقع  
في رقعته : ( مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل  
حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف  
لم يشاء ) ونفذ منطوق الاية فوهبه عوض الدرهم سبعمائة  
درهم ، ثم ضاعف له فخلع عليه ، ثم زاده فقلده عملا  
يرتفق به .

انني لعلى يقيين بان المعية الشعر التي توسل  
بها السائل هي التي هزت المسؤول ، فلو لم يكن الوزير  
اديبا لاعيت السائل الوسائل التي يثير بها في المسؤول ما  
هدى من ذكرياته ، لقد كان امره  
حتما سيكون امر ذاك الاخر الذي نسيه الرفيق القديم  
حين اناله الدهر ما كان يروم ، فلم يجد بدا من ان يقول:

قل للوزير ادام الله دولته

اذ كرتنا ادمنا والخبز خشكار

اذ ليس في الباب بواب لدولتكم

ولا حمار ولا في الشط طب .. ١

## تطور حياته

ولد ابو محمد الحسن بن محمد الذي اشتهر باسم الوزير المهلبي سنة ٢٩١ هـ في البصرة وعاش حتى سنة ٣٥٢ . وبذا حياته مفيرة حتى استطاع بكتاباته ان يكون وزير بغداد ومدبر الحكم فيها لمعز الدولة البوهيمي ولم يطفه الحكم ولم يصرفة في كثير من الحالات عن تحسين حياة الشعب وابياثار نوي المواهب وازالة المظالم، فقد كان مشدودا الى ماضيه فاستحق ان يصفه ابن الاثير : « فاحسن المسيرة وازال كثيرا من المظالم خصوصا بالبصرة فسان البريديين كانوا قد اظهروا فيها كثيرا من المظالم فازالتها » .

## المقتضى

لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه الى ( التفتیش ) ليعرف حقيقة ما يجري خارج العاصمة فتجلو في البلاد على ما يصف ابن الاثير : « فتنقل في البلاد لكتشف ما فيها من المظالم وتخلص الاموال » وهذا شيء فريد يقوم به حاكم في تلك العصور اذ يجعل من نفسه ( مفتشا ) جوا لا يفاجئ الاداريين في مراكزهم ، ويعرض نفسه على الناس ليتقدم اليه ذوو الشكاوى ...

على ان خير ما وصفه به ابن الاثير قوله : « وقرب اهل العلم والادب واحسن اليهم » . وهذا التقريب والاحسان جعل شاعرا كالحسين بن الحجاج ، يرثيه بعد وفاته رثاء لا يدفعه اليه الا الوفاء بل انه رثاه وهو يخشى الانتقام ويتوقع العقاب لأن الامر كان قد فسد بينه وبين ولاة الامور

فمات وهم غير راضين عنه . فلما مات قال ابن الحاج:  
يا معاشر الشعراء دعوة موجع

لا يرتجى فرج السلو لديه  
عزوا القوافي بالوزير فانهـا  
تبكي دمـا بعد الدمـوع عليهـا  
مات الذي امسى الثناء وراءـه  
وجميل عـفو الله بين يـديـه  
هدـم الزـمان بموتهـ الحـصن الـذـي  
كـنا نـفر مـن الزـمان اليـهـ  
وتـضـاعـلت هـمـ المـكارـم وـالـعلـىـ  
وـانتـ حلـ المـحدـ من طـرفـهـ

والواقع ان في هذا الرثاء دلالة خاصة فهو  
ليس رثاء تقليديا كان ذي عرفناه من منظوم الشعراء . ذلك اولاً:  
لان الراشي لم يكن يرجو شيئاً بل كان يعرض نفسه لنقمته  
السلطان فضلاً عن انه لم يكن للمرئي اهل يتقرب اليهم  
الرأي بالرثاء ، بل ان ابنه الصبي كان قد اخذ نور وفاة  
والده وصودر هو والدته كما اخذ اهله واصحابه وحبسوا .  
ثم هذا التفعع المخلص والتوجه بالخطاب الى من يعتبرون  
المفجوعين الحقيقيين به وهم الشعراء ، ثم الاقرار بأنه كان  
مجاهم الذي اليه يغرون من الزمان . واذا كان غيرهم من  
المسلطين لم يقروا في اغداق المال على الشعراء المادحين  
فالفرق بينه وبينهم كما يعرضه لنا ابن الحاج ، ان الشعراء  
كانوا يبيعون لغير الملهبي كرامتهم حين يقبضون المال ،  
اما هو فقد كان يصون لهم تلك الكرامة .

وإذا كان هذا حال الشعراء . ف الحديث ابن الأثير يدل على ان حال العلماء كانت الحال نفسها . فلم يكن العلماء بحاجة لشيء ك حاجتهم لذى سلطان يقربهم تقريرا لا يغنى منه الا صيانة العلم وحملته . ولذلك رأينا الخليل بن احمد يرفض دعوة المتسطلين مع فقره وفاقتته لانه يدرك ان لها اهدافا لا تطبقها نفسه الكريمة . ورأينا الملبسي يوصي بتقريب اهل العلم والادب .

### **المصرف**

على ان هذا العاطف على القراء الحاني على المؤسأء المقرب للعلماء والادباء ، كان لا ينسى انه هو الآخر مسلط كالمسلطين فيسرف اسرافا فاحشا كهذا الذي تحدث عنه في معجم الادباء قائلا : وحدث القاضي ابو علي التنوخي قال : شاهدت ابا محمد الملبسي قد ابتاع له في ثلاثة ايام ورد بالف دينار ، فرش به مجالس وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد في مائتها وينفسه ، وبعد شربه عليه وبلوغه ما اراد منه انهبه ..

ولا شك ان هذا المصرف وابعاده هو الذي اضطر الشیخ البائس الى الخروج حماراً القیظ مناديـا على الناطف وان الامر كما قال علي بن ابي طالب عليه السلام : ما رأيت اسرافا الا كان وراءه حق مضيع .

### **شعره**

كان الملبسي اديباً موهوباً وله شعر جيد لا يتجاوز

المقطوعات الى القصائد ، وجله شعر ترف تمثل فيه حياة المجتمع الثري الخلبي ، وتبدو فيه احيانا روح عدم المبالاة بالشؤون العامة اذا تحققت الامنيات الخاصة ، مما كان طبيعة الحكم منذ اليوم الذي استحال فيه حكم الاسلام الى حكم فردي استبدادي مطلق تسخر فيه كل امكانيات المجتمع نصالح الطبقة الحاكمة وحدها . ولعل في شعر هذا الحاكم افضل سوره لحال الحكام منذ العام ٤١ الهجري التي عهد و ما بعد عهده :

اذا تكامل لي ما قد ظفرت به  
من طيب مسمعة او ظرف ندمان  
وشهوده لو تراها خلت رقتها  
ديني وحافظ من ان شئت غناني  
فما ابني بما لاقى الخليفة من  
بغى الخسي وعصيان ابن حمدان  
ومن الطريف ان سرية من الجن جهزها معز  
الدولة لقتال بعض بني حمدان ، وناظ قيادتها بمملوك  
تركي جميل . فلم يثر اهتمام الوزير الشاعر  
من كل ذلك الاجمال القائد فقال فيه :  
طفل يرق الماء فسي  
وجناته ويترق عوده  
ويكاد من شبه العذا  
رى فيه ان تبدو نهوده  
ناظوا بمعقد خصره  
سيفا ومنطقة تؤوده

## جملة قائد عسكري ضاع الرعييل ومن يقوده

وصح ما تنبأ به فكانت الهزيمة نصيب القائد الجميل .  
وقد مرت أبياته التي تمنى فيها الموت لما يکابده من  
الفقر والخُمُول ، وهذه أبيات أخرى نظمها في عهده الاول  
محروما ضعيفا ، وهي تصف حجرة له كان يسكنها .  
ويتحدث هو نفسه عمما كان عليه وكانت عليه تلك  
الحجرة فيقول : ... فاصبحت يوما وقد جاء المطر  
وازدادت الحجرة اظلاما وصدرى بها ضيقا فقلت :

انا في حجرة تجل عن الوصف ويعمى البصیر فیها بھا  
هي في الصبح كالظلمام وفي الليل يولي الانام عنها غرارا  
انا فيها كاننی جوف بئر

اتقى عقيبا واحذر فارا  
واذا ما الرياح هبت رخاء  
خلت حيطانها تميد انتشارا  
رب عجل خرابها وارحنسي  
من حذاري فقد مللت الحذار

و هذا الذي يقول هذا الشعر اليائس الكثيب في يوم  
مطر : يقول من بعد في يوم مطر آخر جاء لا بالمطر وحده ،  
بل بالثلاج بعد المطر :

الورد بين مضمخ ومضرج  
والزهر بين مكالل ومتوج

والثلج يهبط كالنثار فقم بنا  
 نلتذ بابنة كرمة لم تمزج  
 طلوع النهار ولاح نور شقائق  
 وبدت سطور الورد تلو بنفسسج  
 فكان يومك في غلالة فضية  
 والنبت من ذهب على فiroزج

وهكذا بعد الحديث عن العقارب والفتان يعود  
 الحديث عن البنفسج والفضة والفيروزج . وبعد الاكتشاف  
 بالفيوم وما تدجي من الحجرات يعود الامر الى  
 الانبساط بتلك الغيوم وما توحى من الخيال الطلق  
 : المسرح :

ويوم كان الشمس والغيم دونها  
 حجاب به صينت فما يتهدك  
 دروس بدت في زرقة من ثيابها  
 يجللها فيها رداء ممسك  
 على ان هذا الذي كان قد وصل الى مطامد  
 بن الحياة ، وظفر بكل المني فقال :  
 لقد ظفرت والحمد لله منيتي  
 بما كنت اهوى في الجهارة والنجوى  
 وشارفت جري الشمس فيما ملكته  
 من الارض واستقررت في الرتبة العليا  
 عاد وهو في قمة ظفره وذروة امانيه يقول :  
 اشكوا الى الله احداثا من الزمن  
 يبرينني مثل بري القدح بالسفون

لَمْ يَقِنْ بِالْعِيشِ لَسِيَ إِلَّا مَرَارَتِهِ  
إِذَا تذوقَتْهُ وَالْحَلُوْ مِنْهُ فَنَسِي  
يَا نَفْسُ صَبِرَا وَالْمَاهِلْكِيْ جَزِعَا  
أَنَّ الزَّمَنَ عَلَى مَا تَكْرَهِيْهِ بَنِي  
لَا تَحْسِبِيْ نَعْمَا سَرْتَكَ صَحِبَتِها  
إِلَّا مَفَاتِيحَ أَبْوَابَ إِلَى الْحَزَنِ

هكذا يؤكد لنا ان الظفر الحقيقى ليس هو الظفر بالمنى المادية التي ليست الا بهارج زائفة لاغناء فيها عند النقوص الطامحة الى الرسائلات .

ومن العجيب ان هذا الذى تمنى الموت فقرا وخمولا ،  
يتمناه اليوم غنى واشتهارا فقد كتب الى بعض  
الرؤساء(١) بيتنين يرى بعضهم انهم ملائكة ويرى اخرون انهم  
لا ينتمون الى الله تعالى وانما هؤلاء هم من اصحاب الامر  
فهم لا يمثلان حاله في ساعة من ساعات عهده الجديد  
وما اعتقد هو واعتقد الناس معه انه فيه السعيد كل  
السعادة :

ولو اني استزدتك فوق ما بي  
من البلوى لاعوزك المزيد

ولو عرضت على الموتى حياة  
يعيش مثل عيشي لم يريدوا

## صلته بمعاصريه

عدا عن تقريره للعلماء والادباء كما روی ابن الاثیر وقد كان عصره غاصا بهم ، فان ذلك العصر كان حافلا ايضا بفريق من الكبراء ، كان العلم حليةهم التي بها يفاخرون ، والادب زينتهم التي بها يتبااهون . فقد كان هناك امثال ابن العميد والصاحب بن عباد الوزيران الادبيان الكاتبان وامثال ابى اسحاق الصابى . وقد كان له بهؤلاء وبغيرهم صلات ادبية ومواصلات شعرية ونشرية .

وكان ابو الفرج الاصبهانى صديقا حميميا له يكثر من مجالسته ومحادثته ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره .

## من مذكرات سلمان الفارسي

سلمان الفارسي من اشهر اصحاب النبي (ص) ومن اكثراهم نضالا في سبيل الاسلام ومن اقربهم الى محمد (ص) ، حتى لقد قال فيه : ( سلمان منا اهل البيت ) .

ولما في سيرة هذا الرجل من مغامرات في سبيل الوصول الى الحق ، كان المسلمين الاولون يحبون ان يسمعواها منه فقصتها يوما على ابن عباس ، وتدالوها الراوون ، حتى نقلها صاحب ( اسد الغابة ) بسانيدها .

قال سلمان : « كنت رجلا من اهل فارس من اصحابهان ، ابن رجل من دهاقينها ، و كنت احب الخلق اليه ، فاجلسني في البيت ، فاجتهدت في الجوسية ، فكنت في النار التي توقد غلا تخبوا » .

هكذا بدأت حياة سلمان : ابن رجل متوف يحبه اشد الحب ، ويحرص عليه فلا يجهده بعمل بل يجلسه في البيت ، ويندفع سلمان في المضمار الديني ففيكون ركنا في الجوسية وعاملها في نارها التي لا تخبوا .

ولكن سلمان هذا الذي لم يشغل باله التفتيش عن الرزق ، ولم يرهقه العمل : سلمان الخلوي الثري اشغل باله التفتيش عن شيء آخر وارهقه القلق ! . فهو في اول امره لم يرض حياة الهمود والركود بل سعى

متطلعاً إلى ما هو فوق الماديّات فاجتهد في الدين الجوسي  
حتى كان من حفدة النار الازلية !

ولكن العقل المفتوح والقلب المتألق لم يكونا يرضي بالجوسية مستقراً ونهائة . والفتى الذي لم يسيطره النعيم، ولم يقعده الدلال بل مضى في الافق الرحيبة ينشد الحقيقة الضالة ، هذا الفتى لم يكن ليرضى عبادة النصار حقيقة منشودة !

ويقول سليمان عن نفسه في هذا الدور من حياته :

كان أبي صاحب ضياعة وكان له بناء يعالجه في داره  
فقال لي يوماً يابني قد شغلني ما ترى فانطلق إلى  
الضياعة ولا تحتبس عنتشفلنـي عن كل ضياعـة بهـيـ  
بكـ.

هذا انطلق سلمان من البيت ، وكان الذي اطلقه أبوه دون ان يدرى انه قد اطلقه لا من البيت الى الضياعة ، بل من البيت الى الدنيا العريضة التي ستضيع اثاره فيها على ابيه . وكانت الخطوة الاولى التي خطها من بيت ابيه خطوه الاولى الى الخلود الدائم والمستقبل المتألق فقد تابع سلمان حديثه قائلا :

فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت اليهم  
واعجبني امرهم وقلت والله هذا خير من ديننا ! .

هنا تبدو ( تقديمية ) سلمان ، وهنا يظهر تحرره تحررا  
يعز مثيله . فالذين ولدوا ونشأوا على الاديان ابائهم  
ليس من السهل ان تقنعهم بتفجير هذه الاديان ، مهما كان  
شأنها ، فالوثنيون والصنيمويون وعباد النار والكواكب

ليسوا باقل استمساكا و ايمانا باديانهم من الموحدين . ولكن سلمان طالب حقيقة اينما كانت هذه الحقيقة ، فهو يدرك لاول وهلة ان هذا الذي يراه في الكنيسة هو خير مما كان فيه ، وهو في هذا الادراك لم يحتاج الى مبشر وهاد بل نفذت الحقيقة الى قلبه وعقله لانه لم يسدل دونها حجابا من التعصب والتقليد !

وفي يقيني ان سلمان في هذا فذ من افذاذ الانسانية وان حياته وتطور حياته جديران بكل درس وتحقيق .

ثم يكمل سلمان حدديثه :

فأقمت عندهم حتى غابت الشمس ، لا أنا أتيت الضيضة ولا رجعت إلى أبي فاستبطأني وبعث رسلا في طلبي ، وقد قلت للنصارى حين أتعجبني أمرهم أين أصل هذا الدين ؟ . قالوا بالشام . فرجعت إلى والدي فقال يابني قد بعثت إليك رسلا ، فقلت قد مررت بقوم يصلون في كنيسة فأعجبني ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا .

وكان الصدمة على الاب صدمة عنيفة ثان الابن المدلل المرموق الذي كان يخشى عليه ابوه حتى من وهج الشمس وهبوب الهواء ، قد القى بنفسه في اتون متقد ، وخاض في عاصفة عاتية ! . وكان الامر اقوى من ان يصبر عليه هذا الاب المسكين ، فحاول اولا ان يقابله باللتين ، ويتم سلمان حدديثه فيقول :

قال يابني دينك ودين ابائك خير من دينهم فقلت كلا

والله ! .. وهنا رأى الاب ان اللين لا يجدي فمال الى  
الأشدة ، يقول سلمان :  
فخافني وقيني !

ولكن سلمان لم يكن ممن يثنى عزمه مثل هذا التهويل والتروع ، فقد استطاع ان يتصل بجماعـة الكنيسة ، وكان قد سالـهم من قبل عن اصل هذا الدين فقالـوا له انه الشام ، والنـقى الان في نفسه عاملـان فهو عندـما سـأـل عن اصل هذا الدين كان يريد ان يأخذـه من منابـعـه، ثم جاءـ العـامل الآخر عـامل الفـرار من وجـه الـاب الغـاضـب !

يقول سـلمـان :

فبعثـت الى النـصارـى واعـلـمـتهم ما وافقـنى من اـمرـهم وسـالـتهم اـعلامـي من يـريد الشـام فـفعـلـوا والـقيـتـ الحـدـيدـ من رـجـلـيـ وـخـرـجـتـ مـعـهـمـ حـتـىـ اـتـيـتـ الشـامـ فـسـالـتـهـمـ عنـ عـالـمـهـ فـقـالـواـ الاسـقـفـ ، فـاتـيـتـهـ فـاخـبـرـتـهـ وـقـلـتـ : اـكـونـ معـكـ اـخـدـمـكـ وـاـصـلـيـ معـكـ ، قـالـ : اـقـمـ فـمـكـثـتـ معـ رـجـلـ سـوـءـ فيـ دـيـنـهـ ، كـانـ يـأـمـرـهـ بـالـصـدـقـةـ فـاذـا اـعـطـوهـ اـمـسـكـهـ لـنـفـسـهـ حـتـىـ جـمـعـ سـبـعـ قـلـالـ مـمـلـوـةـ ذـهـبـاـ وـورـقـاـ فـتـوـفـيـ فـاخـبـرـتـهـ بـخـبـرـهـ فـزـجـرـونـيـ فـدـلـلـتـهـ عـلـىـ مـالـهـ فـصـلـبـوـهـ وـلـمـ يـغـيـبـوـهـ وـرـجـمـوـهـ وـاجـلـسـوـاـ مـكـانـهـ رـجـلـاـ فـاضـلـاـ فيـ دـيـنـهـ زـهـداـ وـرـغـبـةـ فيـ الاـخـرـةـ وـصـلـاحـاـ فـأـلـقـىـ اللهـ حـبـهـ فيـ قـلـبـيـ حـتـىـ حـضـرـقـهـ الـوفـاةـ.

هـذـاـ انـفـصـلـ سـلـمـانـ عـنـ اـبـيهـ وـاـهـلـهـ سـعـيـاـ وـراءـ الحـقـيقـةـ وـآـثـرـ العـيشـ غـرـبـيـاـ ، مـتـخـلـيـاـ عـنـ الثـرـاءـ وـالـقـرـفـ لـيـخـدـمـ رـجـالـ الـدـيـنـ وـيـعـيـشـ مـعـهـمـ حـيـاةـ التـقـشـفـ وـالـزـهـدـ ، وـلـكـنـهـ وـقـدـ اـسـتـقـرـتـ بـهـ الـارـضـ هـلـ يـسـتـقـرـ هـوـ فـيـهاـ اـمـ سـيـظـلـ يـطـوـفـ

مستزيدا من المعرفة مستكترا من الايمان ؟ .  
 انه هو نفسه يجيبنا عن هذا السؤال ويتم سرد  
 ( مذكراته ) فقبل ان يموت ذاك الاسقف الفاضل الذي احبه  
 سلمان واخلص له لما رأى من تقواه وصلاحه ، كان حسب  
 الرحلة يعتاج في قلب سلمان ولكنه خشي ان يرحل  
 فلا يهتدي الى الصالحين بل يبتلى بمثل ما ابتلي به  
 مع الاسقف الاول كائز الذهب فسأل معلمه الصالح عمن  
 يثق به ليرحل اليه . يقول سلمان :

ذكر رجلا بالموصل وكنا على امر واحد حتى مات  
 فاختت الموصل فلقيت الرجل فأخبرته بخبره وان فلانا امرني  
 باتيانك فتال اقم فوجدته عذر سبيله وامرها .  
 وهكذا لم يخيب اسقف الموصل ظنه بل كان على ما  
 اعتقاده به اسقف الشام فاطمأن قلب سلمان واستراح الى  
 هذا المعلم الجميد .

على ان الذي لم يفصله سلمان في ذكره رحلته الى  
 الشام هو امر البلد الذي قصده في الشام ، فالشام اسم قطر  
 لا اسم بلد فهل اقام في القدس ام في دمشق ام في غيرهما ؟ .

ويبدو ان سلمان كان لا يصل الى هؤلاء الصالحين الا  
 وهم في سن عالية ، فكانوا يموتون الواحد بعد الآخر وهو لا  
 يزال في عنفوان شبابه فمات صاحب الموصل واوصاه قبل  
 موته ان يلحق باسقف نصيبيين فكان كصاحبيه تقى وصلاحا .  
 ويروى الذين نقلوا حديث سلمان - كما جاء في  
 اسد الغابة - : ان الصومعة التي تبعد فيها سلمان  
 بنصبيين وكانت باقية الى يومنهم .

ويقول سلمان : ثم احضر صاحب نصيبيين فقتل له اوصني ، فاوصاه باللهاق بصاحب عمورية من ارض الروم : فاتيته بعمورية فأخبرته بخبر فامرني بالمقام . وفي هذه المرحلة من تطواف سلمان يظهر انه كان قد تقدمت به السن فشعر بأنه محتاج الى شيء من الاستقرار ، وان هذا الاستقرار لا يمكن ان يتم اذا لم يستعن عليه بمورد مالي يطمئن اليه اذ يقول :

فثاب لي شيء واتخذت غنية وبقرات ..

ثم حضرت الوفاة صاحب عمورية دون ان يكون قد دله على صاحب آخر ، ثم توفي سلمان لم يقرر الرحيل الى بلد بعد عمورية ، ويبدو من شرائه الفنم والبقر انه كان قد وطد العزم على الاقامة بعمورية على ان هذه الاقامة لم تطل فقد عاوده الحنين الى البحث والتطلع ، اذ انه يحدثنا فيقول :

فمر ركب من العرب من كلب فقتل اصحابكم واعطيكم بقراتي وغنمي هذه وتحملوني الى بلادكم .

لم يكن سلمان يعرف ما قد خبأ له القدر في هذه الرحلة الجديدة ، ولم يكن يدرى ان الحياة ستتعاونه بين اقصى الشقاء واقصى السعادة ، وانه سيعود بعد السيادة والعز عبدا رقيقا يباع ويشرى . وهذا ولا ريب اقسى دور في حياة سلمان . ونستطيع ان نحس المرأة التي احسها هذا الرجل طالب الحقيقة وناشد الخير حين يصطدم بواقع الناس الشرير المبطل !.

لقد عرض على الكلبين ان يهتم تروته على ان

يحملوه الى بلادهم ، وكان العرض سخيا كريما فما نحسب ان ( اجور النقل ) قافلة الكلبيين كان يمكن ان تكون مرتفعة الى الحد الذي يمكن ان يستغرق مثل هذه الثروة التي مهما ضؤلت فهي على كل حال ثروة . ولم يكن لهم سلمان المساومة على الماءدة فقد هجر الشراء العريض ، ورضي واقعه الفقر لأن ما ينشده كان اسمى من الثروات المادية ، لذلك فقد عرض التخلص من كل ما يملك مقابل ان تنقله هذه القافلة الى عالم جديد يجد فيه المزيد من المعرفة !.

استولى الكلبيون على الفنوات والبقرات . وحملوا هذا الغريب على دابة من دوابهم معنيين في السير .  
ويظهر ان ما رأوه من تفريط سلمان بثروته اغراهم به ، وحملتهم على الاستخفاف بحاله معتقدين ان من يعرض هذا العرض انما هو اكلة هينة ..  
يقول سلمان :

« فحملوني الى وادي القرى فلما بلغناها ظلموني وباعوني من رجل من اليهود » هكذا لقي رجل الحق انجع مصير يلقاه انسان : اصبح عبدا لليهود !  
ولم يكن سلمان يعلم حتى تلك الساعة الى اي ارض وصل به السير ، وهل بلغ بلاد العرب ام لا فهو يقول :

فكتت اعمل له ( اي لليهودي الذي اشتراه ) في نخله وزرعه ، ورأيت النخل فعلمت انه البلد الذي وصف لي .

وأقمت عند الذي اشتراكي وقدم عليه رجل من بنى قريضة ( وهي قبيلة يهودية تسكن المدينة ) فاشتراني منه وقدم في المدينة فعرفتها بصفتها فاقمت معه أعمل في نخله ».

بهذا ينتهي هذا الدور من ادوار حياة سلمان الذي خطط فيه الخطوة الاولى للقاء النبي محمد (ص) .  
والادوار التالية لا تقل عن هذا اثارة فلعلنا نوفق لتسجيلها .

## شعراء شعبيون

ثلاثة شعراء مصريين كانوا في عصرهم صورة الشعب المصري ظرفاً وادباً وثورة ، وهم كفيرهم ممن عاشوا للشعب وفي الشعب فضاعت اخبارهم وطمسوا اثارهم ولم يصلنا منها الا النذر القليل ، وهذا الذي وصلنا على ضالته يربينا جانباماً حياءً الجماهير في هاتيك العصور وما انطوت عليه معايشهم ، وما كانوا يعالجون به امورهم من تمازح وتندر ، ومن هزل هو في جوهره الجد كل الجد .

### وراق وحمامي وجزار

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم : سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق الذي عرفه ابناء جيله باسم السراج الوراق ، ونصر الدين الحمامي الذي عروفه باسم النصير الحمامي ويحيى بن عبد العظيم الجزار ، الذي عروفه باسم ابو الحسين الجزار .

ولقب كل واحد من هؤلاء مأخوذ من مهنته فقد قالوا عن الوراق انه كان يكتب الدرن لوالدي مصر ، فاساس مهنته الورق ، ونصر الدين كان يستغل في حمام عام ، ويحيى كان جزاراً يبيع اللحوم . وهكذا نرى ان الثلاثة كانوا يمتهنون مهنا بسيطة ، تجعلهم من هموم الشعب في الصميم .

وإذا كنت قد خصصت هذا المقال بالجزار فلا بد من  
الالمام اولا بكل واحد منهم ثم بما كان يربط بينهم من روابط  
الادب وعلاقته الشعر وبما كانوا يتشاركون به من نوائب  
الزمن ومتاعب الحياة . فان اجتماع مثل هؤلاء الثلاثة في  
وقت واحد وتوثيق الصداقة بينهم شيء فريد كان لا بد له  
ان ينتفع ما انتفع .

مساجلات بینہم

اجبٌ بعْد النَّحْرِ مِنْ كُلِّ سَائِلٍ  
عَنِ الْحَالِ فِي عَيْدِي وَقَدْ مِنْ ذِكْرِهِ

اذا بطل الجزار والمعيد عيده  
 فلا تسأل الوراق فالمعذر عذره  
 ويبدو انهم كانوا اذا لم يداعب بعضهم بعضا داعب  
 كل منهم نفسه بنفسه ، فان السراج كان اشقر ، ازرق  
 العينين فقال :

من رأني والحمار مركبي  
 وزرقتني للروم عرق قد ضرب  
 قال وقد ابصر وجهي مقبلا  
 لا فارس الخيل ولا وجه العرب  
 وقال السراج ايضا :

بني اقتدى بالكتاب العزيز  
 وراح لبرى سعيا وراجعا  
 فما قال لى اف مذ كلن لى  
 لكونى ابا ولكونى سراجا  
 ومن شكاوى الوراق :

اصون اديم وجهي عن انساس  
 لقاء الموت عندهم الاديب  
 ورب الشعر عندهم بغرض  
 ولو وافى به لهم حبيب  
 وقال بعد ان قلب :

وكلت حبيبا الى الغائبات  
 فالبسنني الشيب بغض الحبيب  
 وكلت سراجا بليل الشبيب  
 فأطئنا نوري نهرل المشيب

وقال وهي تصف لونا من حياته :  
**كم قطع الجود من لسان**  
**قلد من نظمـه النحـورا**  
**وها انا شاعر سراج**  
**فأقطـع لساني ازدك نورا**

### السراج والضياء

ومن طرائفهم ان السراج خاطب من اسمه ضياء الدين :  
**امولانا ضياء الدين دم لي**  
**وعشن فبقاء مولانا بقائي**  
**ملولا انت ما اغنىت شيئا**  
**وما يفني السراج بلا ضياء**  
 ويبدو ان ضياء الدين هذا كان من تستقضى به  
 الحاجات ويقصد للعطایا والملمات ، فقصده السراج بهذا  
 القول مستغلاً تناسب الاسمين ليهزه بهذا التناسب ، ولكن  
 ضياء الدين لم يكن ليهتز للأدب ويستثار بالشعر فخاب  
 رجاء السراج فيه فعاد يقول :

وها انا سائر في ليل خطـب  
**تساوي الصبح فيه والمساء**  
**فلا انا مثـما ادعـى سراج**  
**ولا هو مثـما يدعـى ضياء**  
 وهكذا دلـنا الشاعر بهذا القول المريـر على ما  
 كان يـكابـده في حـياتـه وهـل اوـجـعـ من السـيرـ في ليـالـيـ

الخطوب التي لا يضيء فيها السراج ولا يشرق الضياء  
**السراج والشمس والبدر**

والتقى السراج من اسمه شمس الدين ومن اسمه  
 بدر الدين فقال :

لما رأيت الشمس والبدر معا  
 قد انجلت دونهما الدياجي  
 حقرت نفسي ومضيت هاربا  
 وقلت مَاذا موضع السراج  
 وقال السراج ايضاً موريما بصناعة الورقة :  
 يا خجلتي وصحائفني سودا غدت  
 وصحائف الابرار في اشراف  
 وموبخ لي في القيامة قال لي :  
 اكذا تكون صحائف الوراق  
 ويظهر ان آمال السراج كثيرة ما خابت في الرجال  
 فكان يعود للذم بعد المدح متذمراً شاكياً :  
 مدحته جهدي فما اهتز من  
 تولي وقال الناس كم تتعب  
 فقلت ارجو زيادة قال لي  
 فاتك ، اين اللبن الطيب  
 ثم يوغل في ذلك :  
 وبخل بالمال قلت لعله  
 يندى وظني فيه ظن مخالف  
 جمع الدراديم ليس جمع سلامة  
 فاجابني لكنه لا يصرف

## الشعب الطيب

على انه حين يرى البادرة الطيبة والفعل الجميل ،  
وحيث يواسيه الناس ويعطفون عليه يعود معتزفا بالفضل  
مثنيا على الاحسان :

**مرضت في حي قرطوم**

ما منهم من جفاني  
عادوا وعادوا وعادوا  
على اختلاف المعانسي

كلمة « عادوا » الاولى من العيادة والثانية من المعود  
بمعنى العطاء والثالثة بمعنى الرجوع . وهو في هذا  
القول لم يخص شخصا بعينه ، ولا اثنى على كبير قوم ،  
بل شمل سكان حي بأكمله قدر له ان يقيم بينهم وان  
يمرض عندهم ، فعرفوا حقه فقال ما قال ، ولنا هنا  
ان نستدل على طيبة الشعب وكرم جماهيره ، وعلى  
ما كان يتحلى به ذلك الشعب من تقدير للآدب وتعاطف مع  
الشعراء حتى اذا مرض واحد منهم فقير لم يهملوه بل  
عاملوه بما انتقه بالذى نطق ، على العكس من الكراء  
الذى شكى منهم الشاعر واضطر الى ذمهم افرادا احيانا  
 ساعات احيانا :

يا بنى الامال قد خاب الرجا  
وقد اشتدت وقد عز العزاء  
فن الامال في بحر المنى  
وحللت منا نأي بن الرؤساء

## هموم الحمامي

اما النصيـر الحمامـي فقد ضـمن هـمومـه بـيتـين من الشـعـر  
 ارسـلـهـما إـلـى مـدـيقـهـ الجـزارـ :  
 مـذـلـزـتـ الـحـمـامـ صـرـتـ بـهـ  
 خـلاـ يـدارـيـ منـ لـاـ يـدارـيـهـ  
 اعـرـفـ حـرـ الاسـسـ وـبـارـدـهـ  
 وـآخـذـ المـاءـ مـنـ مـجـارـيـهـ

ولا اعرف صورة للكرب ابلغ من هذه الصورة ، فهـذا  
 شاعـرـ مـرـهـفـ الحـسـ رـفـيعـ النـفـسـ يـنـدـ الـيـهـ التـقـيـلـ  
 السـمـجـ ، وـالـفـظـ الـغـلـيـطـ ، فـيـهـ مـرـحـباـ وـيـنـدـفـعـ مـؤـهـلاـ بـمـنـ  
 لـوـ كـانـ الـأـمـرـ الـيـهـ لـتـقـاـولـهـمـ بـالـلـطـمـ وـعـاـلـمـهـمـ بـالـصـفـعـ ، اوـ عـلـىـ  
 الـأـقـلـ : لـقـعـدـ عـنـ اـسـتـقـبـالـهـمـ وـابـتـعـدـ عـنـ اـحـواـلـهـمـ ، وـلـكـنـهـ  
 وـهـوـ : «ـ الـحـمـامـيـ » ذـوـ الـمـهـنـةـ الـعـامـةـ مـرـغـمـ لـاـ عـلـىـ مـدـارـاـةـ مـنـ  
 لـاـ يـسـتـحـقـ الـمـدـارـاـةـ فـحـسـبـ ، بلـ عـلـىـ مـدـارـاـةـ مـنـ  
 يـتـنـاـولـهـ بـزـرـاـيـتـهـ خـلاـ يـدارـيـهـ بلـ يـشـتـطـعـونـ عـلـيـهـ .

خـلـ يـدارـيـ مـنـ لـاـ يـدارـيـهـ ، هـكـذـاـ كـانـ اـمـرـ هـذـاـ الشـاعـرـ ،  
 فـلـاـ بـدـعـ انـ يـكـونـ اـسـاهـ فـوـقـ اـسـسـ النـاسـ ، فـاـذـاـ عـرـفـ النـاسـ  
 اـسـسـ الـحـارـ وـحـدـهـ فـهـوـ قـدـ عـرـفـ اـسـسـ لمـ يـعـرـفـهـ اـحـدـ مـنـ  
 النـاسـ الـىـ جـانـبـ اـسـسـ الـحـارـ الـذـيـ عـرـفـوهـ : عـرـفـ  
 اـسـسـ الـبـارـدـ ! .. وـهـوـ اـذـاـ كـانـ فـيـ مـهـنـتـهـ «ـ يـاخـذـ المـاءـ مـنـ  
 مـجـارـيـهـ » فـلـمـ يـكـنـ يـاخـذـهـ لـيـروـيـ ظـلـماـ وـبـيلـ اوـاماـ ، بلـ  
 لـيـزـيدـ هـذـاـ المـاءـ مـنـ لـوـمـتـهـ نـيـثـيرـ بـبـرـودـتـهـ طـورـاـ وـحـرـارتـهـ طـورـاـ  
 اـسـسـ بـارـداـ طـورـاـ وـحـارـاـ طـورـاـ آـخـرـ ...

## وهموم الجزار

وقد تأثر صديقه الجزار بهذا القول فاجابه مواسيا ،  
داعيا اياه الى الصبر :  
حسن الثاني مما يعيىن على  
رزق الفتى والحظ وظ تختلف  
والعبد مذ صار في جزارته  
يعرف من اين تؤكل الكتف

ولكن صاحبنا الجزار هذا اذا كان عرف بتجاربه  
ولطول ما مارس وعاني ، اذا كان قد عرف من اين تؤكل  
الكتف ، فقد كانت معرفته نظرية بحثة لم تصل به الى حد  
التطبيق والعمل ، فهو حقا يعرف من اين تؤكل الكتف ،  
ولكنه لا يأكلها ، بل يدعها للمستطاعين الذين يقدرون  
على دفع الثمن مهما غلا ، اما هو فله منها المعرفة  
وله منها النظر والتأمل ، وليس منها وحدها بل من كل ما كان  
يوجد في يديه من لحوم ، فلم يكن مستطاعها ان يتغير شيئا  
من اطاليها لنفسه :

اصبحت لحاما وفي البيت لا  
اعرف ما رائحة اللحم  
واعضت من فقري ومن فاقتي  
عن التذاذ الطعم بالشحوم  
جهلـه فقرا فكنت الذي  
« اضلـه الله على علم »  
ويكرر هذا المعنى قائلـا :

ويتأمل بين الحين والحين حاله فيقول مثل هذا القول :  
اكلف نفسي كل يوم وليلة  
هموما على من لا افوز بخمه  
كما سود القصار في الشمس وجهه  
حريرا على تبييض اثواب غيره

لا يتحاسدون

ونحن نرى ان هؤلاء الشعراء قد خرجوها على ما عرف من تحاسد الشعراء المتعارضين وتنافسهم ، فتآلفوا وتونقت بينهم روابط من الود والزمالة جعلت منهم اخوانا متحابين واصدقاء متراصلين يثنى بعضهم على بعض ويؤازر بعضهم ببعض فسمعننا الوراق يثنى على الحمامي :

شاقني للنصير شعر بديع  
 ولثلي في الشعر نقد بصر  
 ثم لما سمعت باسمك فيه  
 «قلت نعم المولى ونعم النصير»  
 ويصاب الوراق برمد فيهدي اليه الجزار تفاحا  
 وكمثرى ويكتب معها اليه :  
 اكافيك عن بعض الذي قد فعلته  
 لأن لولانا على حقوقنا  
 وان حال منك البعض عما عهده  
 فما حال يوم عن ولاك وشوتقا  
 بنفسج تلك العين صار شقائقنا  
 ولو لو ذلك الدموع عاد عقيقا  
 وكم عاشق يشكو انقطاعك عندما  
 قطعت على اللذات منه طريقا  
 فلا عدمتك العاشقون فطالما  
 اقمت لاوقات المسيرة سوقنا  
 وفي هذه الابيات اقرار بفضل واعتراف بجميل مما  
 يشعر بتعاون على الدهر وتآزر في الحياة عدا عما فيها من  
 مدح وتقدير .

### الجزار

وصاحبنا الجزار ولد سنة ٦٠١ هـ وتوفي سنة ٦٧٢ هـ  
 على قول «١» او سنة ٦٩٧ على قول آخر (٢) ودفن

- ١ - اعيان الشيعة .
- ٢ - شجرات الذهب ..

بالقرافة . وقد ورث الجزارة عن أبيه فهو فيها عريق ، وعلى غير عادة الآباء الذين هم في حال مثل حال أبيه ، فقد شجعه أبوه على نظم الشعر ، وصحبه إلى الشاعر أبي الأصبع ليسمعه شعره ويبدو أنه كان لا يزال في طور الصبا لم تكتمل له أدوات الشعر اكتتمالاً صحيحاً . فقال له أبو الأصبع « أنت عوام ماهر » . فسر الاب الأمي بهذا القول ولما سئل أبو الأصبع عما يعنيه بكلمته قال : « انه ينتقل في الشعر من بحر إلى بحر » . ويفهم من قسول صاحب الشذرات انه امتهن الجزارة أول امره ثم تخلى عنها وتفرغ للشعر وللمدح بخاصة . ولا يفهم من الشذرات انه عاد فتخلى عن الشعر راجعاً للجزارة ، ولكن اقوال الشاعر تدل على ان تعاطيه الشعر لم يستمر ، بل رجع جزاراً كما بدأ ، رجع شاكياً ذل المديع وان المداح وان هناك من لامه على هذا الرجوع وهو صديقه شرف الدين فقال له :

لا تلمني يا سيدي شرف الدين اذا ما رايتنى قصّاباً  
كيف لا اشكر الجزارة ما عشت زماناً واهجر الاّداب  
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشّعر كنت ارجو الكلاب

ثم يكرر هذا المعنى ويؤكده :

لا تلمني بصنعة القصاب

فهي ازكي من عنبر الاّداب

صار فضلي على الكلاب ومذ

كنت اديبياً رجوت فضل الكلاب

ويصفه صاحب الشذرات بهذا القول : « كان جزاراً ثم

استرزق بالمدح وشاع شعره في البلاد رتناقلته الرواية وكان  
خير التبذير لا تكاد خلتان تسد » .

### جزارة وشعر وفقر

وإذا كان قد عاد للجزارة فان ذلك لم يمنعه عن قول  
الشعر ، بل لم يمنعه عن المزاح بين الحين والحين ، وعن  
الإشارة إلى شاعريته والى جزارته معا ، هاتيـنـ  
المهنتين اللتين يبدو انهما لم تغني عنه لا مجتمعين ولا  
متفرقين :

يا أمراً يرجى ويخشى لباسـ  
ونوالـ في يوم حرب وسلمـ  
انت موسى وقد تفرعنـ ذـا الخطـبـ مـغـرـقـهـ منـ نـدـاكـ بـيمـ  
ليـ منـ حـرـفةـ الـجـزاـرـةـ وـالـاـ  
دـابـ فـقـرـ يـكـادـ يـنـسـيـ اـسـمـيـ  
ويـخـاطـبـ آخـرـ قـائـلاـ :  
ولاـ تـفـرـنـكـ مـنـهـ (ـجـوـخـةـ)  
فـصـلـهـاـ وـهـوـ عـلـيـهـ نـادـمـ(ـاـ)  
وـبـيـعـهـاـ فـيـ الـبـرـ غـيرـ مـمـكـنـ  
وـرـهـنـهـاـ لـاـ يـرـتـضـيـهـ الـحـازـمـ  
وـبـطـيلـ شـكـاـيـاتـهـ إـلـىـ مـنـ لـاـ يـرـحـمـ وـلـاـ يـعـطـفـ ثـائـرـاـ عـلـىـ  
مـجـتمـعـهـ الـذـيـ سـبـطـ فـيـهـ أـهـلـ الثـرـاءـ فـاشـتـغـلـواـ بـثـرـائـهـمـ

١ - هذا بدل على استعمال كلمة ( جوحة ) من ذلك العاصر .  
ويقال ان اصل الكلمة تركي ماخوذ من الكلمة ( جوقة ) . ومعنىها نسبيج من  
الصروف .

عن التفكير بالفقراء ومعالجة فقرهم ، مصراً ان ما يكتمه  
من سوء احواله هو اضعاف ما يديه خوف الشامتين :

اطيل شكاياتي الى غير راحم  
واهل الفنى لا يرحمون مقيرا  
واشكر عيشي للورى خوف شامت  
كذا كل نحس لا يزال شكورا

ويقول :

طاب عيشي والحمد لله اذ كنت له حاماً على كل حال  
ما لباس الحرير مما ارجيه فيرجى ولا ركوب البغال  
راحة السر في التخلف عن كل محل اضحي بعيد المنال  
ان عز الانسان في تركه العز لذل في مبدأ الاحوال

### جد صارم

وينتقل شاعرنا بين الجد والهزل فهو طوراً جدياً جدية  
صارمة يأخذ نفسه بها اخذها كاملاً حتى ليخيل اليك  
انه ليس ذاك الشامر الفكه المزاح ، وحتى لتحسب ان رجلاً  
من نوع آخر هو الذي يقول في رثاء الحسين بن علي عليهما  
السلام :

ويعود عائشة وراء يذكرني  
رزء الحسين فليت لم يعـد  
او ان عينا فيه قد كحـلت  
بمسـرة لم تخل من رـمد  
ويـدا لـثمانـة خـضـبت  
مقطـوعـة من زـندـها بـيـدي

يوم سبلي حين اذكره  
ان لا يدور الصبر في خلدي

### شاعر الكنافة

اما حين يسترسل في لطائفه وفكاهته فانه ينغمي فيها  
انفمارا ينسيه كل وقار ويبعده عن كل جد ، فقد كان مولعا  
بالكنافة محبا لها ، وكانت عزيزة المنال عليه لما تتقاضاه من  
مال فاذا اقبل رمضان ولم يصب منها شيئا قال :

فمالى ارى وجه الكنافة مغضبا  
ولولا رضاها لم ارد رمضانها  
عجبت لها في هجرها كيف اظهرت  
على جفاء صدّ عنى جفانها  
ترى اتهمتنى بالتطايف فاغتدت  
تصد اعتقادا ان قلبي خانها  
ومذ قاطعتنى ما سمعت كلامها  
لان لسانى لم يخالط لسانها

وكتب في العشر الاخير من رمضان الى جمال الدين  
بن يغمر :

ما رأت عيني الكنافة الا  
عند بيعها على الدكان  
ولكم ليلة شبعت من الجو  
ع عشاء اذ جزت بالحوانى  
حررات يسوقها الطرف  
للقلب فويل للتفكير عند البهان

كم « مسدور » مسفلات ودم من  
 شب دونها وكم سوانسي  
 ويلح به الشوق الى الكنافة ولا وصول له اليها . فبعد  
 ان كان يناجيها هي ويتوسل اليها نفسها يعود مستجديا  
 صديقه شرف الدين مطالبا له بها ، لا يرى غيرهـا  
 جائزة للشعر ومكافأة على المدح :

ايا شرف الدين الذي فيض جوده  
 براحته قد اخجل الفيث والبحرا  
 لئن محلت ارض الكنافة انتي  
 لارجو لها من سحب راحتك القطرا  
 فعجل بها جودا فمالـي حاجة  
 سواها نباتا يثمر الحمد والشخرا

حتى اذا تراعت له في صحفها وابصرها امامه عيانا  
 دعا لها الطف دعاء ورجا لها اظرف رجاء . فالكنافة لا بد لها  
 من القطر او من السكر ، اما اذا اجتمعا معا فذلك غاية  
 المقصود ومتنهـى المطلوب ، فاذـا وقف الشعـراء علىـ  
 الـديـار وـسـأـلـوا اللهـ لـهـ الـريـ وـاـغـدـاقـ المـطـرـ ، وـقـفـ هوـ عـلـىـ  
 الـكـنـافـةـ وـقـالـ :

سـقـىـ اللـهـ اـكـنـافـ الـكـنـافـةـ بـالـقـطـرـ  
 وـجـادـ عـلـيـهـ سـكـرـاـ دـائـمـ الـذـرـ  
 ثـمـ يـتـذـكـرـ ايـامـ الـحرـمانـ ، ايـامـ كانـ «ـ المـخلـ »ـ هوـ اـدـامـهـ  
 وـحـلوـاهـ فـيـصـرـخـ مـنـ الـاعـماـقـ :ـ  
 وـتـبـاـ لـاوـقـاتـ الـمـخلـ اـنـهــاـ  
 «ـ تـمـرـ بـلـانـفـ وـتـحـسـبـ مـنـ عـمـرـيـ »ـ

ثم ينطلق في تفذه بالكافحة متتجاوزاً إياها إلى حلوى  
آخر يسميها «القاهرية» ولا نعلم نحن من أمرها  
 شيئاً :

ولي زوجة أن تستهني قاهرية  
اقول لها ما القاهرية في مصر

### مداعبات

وقد يحلو لبعض المتأدبين ان يداعبه كما جرى  
لما مات حمار له فكتب اليه بعض اصحابه حاسباً انه  
يستطيع النيل منه :

مات حمار الأديب قلت لهم  
مضى وقد فات منه ما فات  
من مات في عزه استراح ومن  
خلف مثل الأديب مما مات  
ولكن رد الجزار كان حاسماً :  
كم من جهول رأني  
امشي لاطلب رزقا  
فقال لي صرت تمشي  
وكنت تغشى وتلقى  
فقلت مات حماري  
تعيش انت وتبقي

وعندما كان يرى تعاظم المتعجفين وترفع المتكبرين  
كان لا يرى في السخرية من الدهر الذي جعل منه وهو  
الشاعر جزاراً ، لا يرى خيراً من ان يقول :

ا لَا قُلَّ مَا ذِي يَسْأَل  
 عَنْ قَوْمٍ وَعَنْ أَهْلِي  
 لَقَدْ تَسْأَلَ عَنْ قَوْمٍ  
 كَرَامُ الْفَرْعَوْنِ وَالْأَصْلَى  
 تَرْجِيْهُمْ « بَنُو كَلْبٍ »  
 وَتَخْشَاهُمْ « بَنُو عَجْلٍ »

وَبَنُو كَلْبٍ وَبَنُو عَجْلٍ هُمَا قَبْلِتَانِ كَبِيرَتَانِ مِنَ الْعَرَبِ ،  
 وَهُوَ فِي مَهْنَتِهِ تَرْجُوهُ الْكَلَابَ وَتَخْشَاهُ الْعَجَولَ .

وَقَدْ اسْتَفْلَ هَذَا القَوْلُ مَجَاهِدُ الْخِيَاطِ فَقَالَ يَهْجُورُ  
 الْجَزَارُ :

أَنْ تَاهَ جَزَارُكُمْ عَلَيْكُمْ  
 بِفَطْنَةِ عَنْدِهِ وَكِيسِ  
 نَلِيسِ يَرْجُوهُ غَيْرَ كَلْبٍ  
 وَلَيْسِ يَخْشَاهُ غَيْرَ تِيسِ  
 وَقَالَ الْجَزَارُ بَعْدَ أَنْ عَجَزَ الشِّعْرُ عَنْ أَنْ يُؤْمِنَ لِهِ مَا  
 كَانَ يَأْمُلُهُ مِنْ رِحَاءِ الْعِيشِ :

أَصْبَحْتَ فِي أَمْرِي وَلَا  
 اشْكُو لِفَرِيرِ اللَّهِ حَائِرًا  
 فَاللَّعْمَ يَقْبَحُ أَنْ أَعْوَ  
 دَ لِبِيمَهُ وَالشَّعْرَ بِسَائِرِ  
 بِالْيَقْنِي لَا كَنْتَ جَزَا  
 رَا وَلَا أَصْبَحْتَ شَاعِرَ  
 وَضَلَّلْتَهُ يَوْمًا عَجُوزَ فَقَالَ نِبِيَّهَا :

لو برزت صورتها في الدجى  
 ما جسرت تتصورها الجن  
 كانوا في فرشها رمة  
 وشعرها من حولها قطن  
 وقال قل لها : ما سنها ؟  
 نقلت ما في فهمها من

وقال يخاطب ممدوحا مشيرا الى انه كان شاعرا  
 فطريا لم يدرس على احد غير نفسه :

وان الشعر دون علاه قدرا  
 ولا سيمما اذا ما كان شعري  
 لاني ما قرات له صحاحا  
 ولا نحو على الشيخ ابن بري  
 وقد شاركت في لغة ونحو  
 بلا علم وشاع بذلك ذكري  
 وعيشك لست ادري ما طحاه  
 وقد اقررت اني لست ادري  
 كاني مثل بعض الناس لما  
 تعلم آيتين فصار مكري

ومن طرائفه انه بعد ان ترك الجزاية الى الشعر ،  
 خرج يوما للنزهة مع رفقة له مرغبوا بشراء لحم مكلفوه  
 بذلك لخبرته ، فعاد اليهم باردا لحم ، فلما تعجبوا من  
 ذلك قال لهم : « لما رأني مصاحب اللحم عرف بي زميلا قدি�ما

له ، فأقسم على بان اقطع اللحم بيدي من حيث اريد ،  
فنسيت نفسي وغلب علىي لؤم الجزارين » .

هذه لحة عن شاعر يمثل جماهير شعبه التمثيل  
الصحيح ، وما اكثر هؤلاء الشعراء الذين عفى عليهم  
الزمن واغفلهم مؤرخو الادب فضاعوا و كانوا الاجدر بالحفظ .

## ملامح الملحة العربية في شعر شاعري الشام

لم يكن بدعا ان تنتج الحروب الصليبية نسي اوروبا ادبا ملحميا مستوحى مما حفلت به تلك الحروب من احداث وخطوب ، ولم يكن عجبا ان نرى في الاداب اللاتينية سواء في لغة الشمال *chanson d'oil* او لغة الجنوب *chanson d'oc* ملامح لامثال جفري اللومباردي وي يوسف اكستير وجنتر باسل وكذلك مثل انشودة انطاكية *البروفنسالية chanson d'antioche* التي الفها غريفوري بشاده ، وقصيدة بودريه وانشودة غرايندور دوياري ، وغيرها .

ولكن كان العجيب ان لا تخلق تلك الحروب الملحم العربية ، لا في حال تدفق الجيوش الفرنجية وانتصاراتها وما رافقها من فجائع واهوال ، وما عاناه العرب فيها من هوان وانكسار . ولا في حال انحسار المد الفرنجي واجتماع القوى الوطنية مستخلصة الوطن منه دفعة وراء دفعة حتى انتهت بتلاشي .

وفيما عدا قليلا من القصائد والمقطوعات اعرب فيها اصحابها عن احزانهم ايام المزائم وافراحهم ايام الانتصارات ، فان تلك الحروب لم تقل ما كان يجب ان تناله من الشعر العربي ، ولا اوجدت الملحة في ادبنا ، وكانت بذلك جديرة .

## عماد الدين ونور الدين

على اننى وانا اقرا وقائع عماد الدين زنکى ثم وقائع ابنه نور الدين محمود مع الصليبيين ، حين بدأ الاول مهاجمة الافرنج ، فكانت انتفاضته اول انتفاضة في وجه المحتلين بعد نوم طويل على الفيم .

اننى وانا اقرا ذلك وجدت شعرا عربيا يسجل تلك الوقائع ويتفنن بها معبرا عما كانت تنضح به نفوس العرب من الابتهاج والحبور ، وما كانت تفيض به بيتاتهم من الاستبشر والسرور .

و اذا كان مما يقلل من قيمة اصحاب ذلك الشعر في اعيننا انهم لم ينظموا شعرهم ابتداء ، ولا كان بنتيجة تحسس بالشعور العام ، ولا تعبيرا عن حقيقة امورهم ، بل جاء في معرض المدح والاسترزاق . فانهم وهم يعيشون في كف عماد الدين ونور الدين ويحيون في سلطانيهما ، كان لا بد لهم من ان يمدحوهما استدرارا للعطاء ، وسواء اكان عماد الدين ونور الدين غازيين منتصرين ، او متخاذلين متواكلين فانهم سيمدحونهما حتما . اذا كان الامر كذلك فان حسن حظهم جعل مدحهم غير منكور ولا مموج ، وجعلهم دون ان يقصدوا لسان الحياة العربية والاسلامية في تلك الفترة ، فعبروا عن مشاعر الامة ونطقوا بلسان الاحداث فاكتسبوا بذلك خلودا لم يكن ليتأتى لهم لو ان عماد الدين ونور الدين لم يكونا مدبرى تلك الواقعه وقادى تلك المعامع .

## شاعرا الشام

وابرز شعراء تلك الفترة شاعران لقبهما معاصر وهم اثنان هما محمد بن نصر القيسراني واحمد ابن منير الطرابلسي ، ولهمَا في عماد الدين ونور الدين مدائح تقليدية كل مدائح الشعراء في الامراء ، ليست هي التي تعنينا ففي حديثنا هذا ، وانما الذي يعنينا هو تلك القصائد التي نظمها في الانتصارات فكانت مظاهر للملحمة العربية جديرة بالعناية والاذاعة .

والقيسراني مولود سنة ٤٧٨ ومتوفى سنة ٥٤٨ وهو منسوب الى مدينة قيسارية على الساحل الفلسطيني، ولم يكن الشعر وحده الصفة الفالبة عليه ، بل يبدو انه كان على مشاركة حسنة ببعض العلوم حتى ان ابن عساكر سمع منه وذكره بين من ذكرهم من شيوخه.

والطرابلسي مولود سنة ٤٧٣ ومتوفى سنة ٥٤٨ وهو منسوب الى طرابلس على الساحل اللبناني وهي المدينة التي عرفت في التاريخ العربي باسم طرابلس الشام تميزا لها عن طرابلس الافريقية التي عرفت باسم طرابلس الغرب .

ونحن نرى من ذلك ان الشاعرين من منطقتين نكبتا بالاحتلال الصليبي وسقطتا في قبضة الفاتحين ، فقد عانى قيساري كما عانى طرابلس مرارة الذل ، وهو ان الفتح ، ولكننا لا نرى في شعر الشاعريين ما يدل على تحسهم بما كان يشكو منه بلدانهما ، وهذا يدلنا على ان الشاعريين سيقا الى شعر الكفاح سوقا ، وما لم يكن

لوقائع عماد الدين ثم لوقائع نور الدين صلة لا بقيسارية ولا بطرابلس بل كانت البلدتان بعيدتين عن ميدان الصراع . لذلك لم يذكرهما الشاعران ولا استجاشتهما همومهما . بل اقتصر الشاعران على ما باشره القائدان من المارك في المناطق النائية لأن فيها المادة الوافرة لموضوع المديح ، وهو الأصل في نظمهما هذا الشعر .

### لم يكونا متواافقين دائمًا

ولم يكن هذان الشاعران متواافقين متصافيين دائمًا ، بل كثيراً ما تهاجياً وتشاتماً ، وفي أثناء ذلك قد تقوم بينهما مطارحات طريفة فمن ذلك أن ابن منير كان يبكيت القيسراني بأنه الشؤم مجسماً ، وأنه يكفي أن يطل على مجلس ايساب أصحاب المجلس بداهية ، وأنه ما صاحب أحداً إلا نكب ، فصدق أن عماد الدين غناه مفن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول ابن منير :

ويلي من المعرض الغضبان اذ

نقل الواشى اليه حديثاً كله زور

سلامت فازور يزوي قوس حاجبه

كأنني كأس خمر وهو مخمور

نرفن الصدغ مسبول ذوابيه

لي منه وجدان : ممدود ومقصور

فاستحسنها عماد الدين وقال : من هذه الأبيات ؟ فقيل

هي لابن منير وهو بحلب ، فكتب باحضاره ، فليلة وصل ابن منير اغتيل عماد الدين . فقال القيسراني : هذه بجميع ما كنت تبكتني به ! ..

## يومنا كذلك الامس

وكان الوضع قبل نهوض عماد الدين وضعما مذلا سيطر فيه الافرنج سيطرة كاملة على البلاد الممتدة من ماردين الى عريش مصر . ولم يكن ناجيا من ربيقة الاحتلال في هذا المدى الواسع الا المدن الاربع : حلب وحماء وحمص ودمشق . على ان هذه المدن اذا كانت قد نجت من الاحتلال فانها لم تنج من الهوان . فقد كان الفرنج يرسلون وفودهم اليها فارضة ما تشاء من الفروض ، فضلا عما كانت عليه بقية المدن والقرى . ولعل مما يصور وضع البلاد يومذاك ما قاله صاحب كتاب ( الروضتين ) : « وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيئتهم وزادت سولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين ايديهم وضعف اهلها عن كف عاديهم وتتابعت غزوائهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار في البلاد شر شرهم » .

ثم يزيد في وصف الحال قائلا : « وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ومن الجزيرة الى نصيبيين ورأس عين ، اما اهل الرقة فقد كانوا معهم في ذل وহوان ، وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على اهل كل بلدجاورهم خراجا واتوة يأخذونها منهم ليكفوا اذياتهم عنهم » .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما كان عليه العرب من تشاحن وتنقل وصراع مما كان يحول دون النهوض نهوضا يرد للامة كرامتها وحريتها .

## طلائع الانعتاق

هذا هو حال الوطن حين كان قد استطاع امر عماد الدين زنكي ورسخ سلطانه فكان ان هب لمناجة المحتلين ومقارعتهم ، ثم اخذ ينتصر عليهم انتصارات متتابعة ، اذا كانت في اول امرها هينة النتائج فانها كانت مفتاحاً للوثوب ، كهذا الذي جرى حين ردهم عن حصن (شيزر) وحين فتح حصن (الاثارب) وحصن (عرقه) وحصن (بارين) ثم ضرب ضربته الكبرى بفتح مدينة (الرها) .

وكانت الرها (ايدسا القديمة) محكمة من الارمن ، وبعد استيلاء الفرنج في حملتهم الاولى التي تلت حملة بطرس الناسك ، على مدينة (نيقيا) سنة ١٠٩٧ ثم مدينة دوريلابوم (اسكي شهر) من السلاجوقيين انفصل بلدويون اللوريني عن الجيش الصليبي الرئيسي وتقدم نحو الرها واستولى عليها بالاتفاق مع حاكمها الارمني (توروس) سنة ١٠٩٨ وانشاء فيها اولى الدوليات اللاتينية . ومنها تقدم الفرنج الى سميساط وسروج والبيرة وغيرها ، فقامت لهم اماراة في حوض الفرات الاعلى من مرعش في الشمال الى منبع في الجنوب غربي الفرات ، ثم تذهب شرقاً في الفرات فتشمل بهسنا والرها وسروج . وكان تمركز بلدويون في الرها مما اعاق القائد السلاجوفي (كربيوقا) امير الموصل عن الوصول في الوقت المفید لنجد انتاكية التي كان يحاصرها الجيش الصليبي الرئيسي . ثم كان قيام هذه الامارة تهدیداً متواصلاً للموصل وما يتبعها مثل نصبيين وماردین وحران ، وكذلك

لديار بكر وما اليها على اعمالى نهر دجلة ، بل كان  
تهييدا ايضا الشلال العراق كله .

و اذا كانت الرها اول دولة لاتينية تقوم ، فقد كانت  
كذلك اول دولة لاتينية تسقط . وبين قيامها وسقوطها سرت  
واربعون سنة ، اذ كان سقوطها بيد عماد الدين ، عام  
١١٤ بعد حصار دام اربعة اسابيع .

### صدى الفتح

كان لفتح الرها وقع عظيم هز النفوس بالبهجة  
والغبطة ، ولم يكن اجدر من الشاعرين ان يكوننا داعدين  
لما كان يعتمل في نفوس العرب من السرور وما كانت تجبيش  
به قلوبهم من الامل العراض . لذلك رأيناهم يسجدان  
هذا الفتح بشعر يمكن ان نقول ان فيه ملاحم الملاحم  
وجوهرها ، فان القيسري يقول فيما يقول من قصيدة  
طويلة :

مدينة امك منذ خمسين حجة  
يغل حديد الهند عنها حداده  
تفوت مدي الابصار حتى لو انها  
ترقت اليه خان طرقها سواده  
وجامحة عز الملوك قيادها  
الى ان ثناها من يعز قياده

و كانت الرها حقيقة بهذا الوصف لانها ظلت طوال  
ما يقرب من خمسين سنة ، منذ ان عجز كربوقا عن  
فتحها وهو في طريقه لانتقاد انتاكية ، فاوفقه حصارها ثلاثة

اسابيع بدون جدوى ، وكانت هذه الاسابيع كافية لوصوله الى انطاكية والقضاء على الجيش الصليبي المنهوك الجائع المحموم النفس ، لو انه لم يتوقف عند الراها فيتيح بذلك للصليبيين استعادة معنوياتهم ودخول انطاكية فلا يصل كريوقا الا بعد سقوطها ، ثم يعجز بعد ذلك عن استردادها فيكون فتحها فاتحة الشرور وبداً الهزائم . خللت الرهاطوال خمسين سنة منيعة ومصدراً للشر ، ومن هنا اوحى القيساراني بما اوحى من وصفها ثم بتصویر الشعور العربي بالانتصار عليها .

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا  
سفاهـا وان فـات العـيون اتقـاده  
وفتح حـديث في السـماع حـديثه  
شهـي الى يوم المعـاد معـاده  
اراح قـلوبـا طـربـن من وـكـاتـها  
عليـها فـواـفـى كل سـدر فـؤـاده  
فيـا ظـفـرا عـم الـبـلـاد صـلاـحـه  
بـمن كان قد عـم الـبـلـاد فـسـادـه  
ثـم بـما اـحـيـا هـذـا النـصـر مـن الـامـال الـبعـيدة :  
وـللـه عـزـم مـاء « سـيـحان » وـرـدـه  
وـرـوـضـة « قـسـطـنـطـيـنـيـة » مـسـترـادـه  
وـمـطـلـع هـذـه الـقـصـيدـة :  
هـو السـيف لا يـعنـيك الا جـلـادـه  
وـهـل طـوق الـامـلاـك الا نـجـادـه  
وـهـو مـطـلـع خـارـج عن الـاسـلـوب التـقـليـدي الـذـي كـان

يفتح القصائد بالغزل ، وانما هو مطلع مستمد من روح الملحمة متاثر بجوهرها ، وهذا بقية المديح في القصيدة . فقد خرج عن كونه تعداداً لفضائل ابتدل تعدادها في كل ممدوح . بل هو وصف لكافاح قاده المدوح وحقق النصر فيه . وتعبير عن امال مكبوته ، وهذا كله يعود الى جذور الملحم واصولها .

وهذا عين ما نراه عند ابن منير الذي قال من قصيدة طويلة :

والرها ان لم تكن الا الرها  
لکفت حسما لشک المترىن  
هم « قسطنطين » ان يفرعها  
ومضى لم يحو منها قسط طين  
ولكم من ملك حاولها  
لتعلى الحين وشما في الجبين  
ثم ينتقل الى الحديث عن نتائج متحها واثر هذا  
الفتح عند الفريقين :  
ان حمت ( مصر ) فتقد قام لها  
واوضح البرهان ان ( الصين ) صين  
برنسست رأس « برنس » ( ١ ) ذلة  
بعدما جاست حوابا ( جوسلين ) ( ٢ )  
« وسروج » مذ وعت اسراجه  
فرقت جماعتها عنها عضيin

١ - هو امير انطاكيه يومذاك

٢ - هو جوسلين الثاني امير الراها .

للم

تلك اقفال رماها آله من  
عزم الماضي بخمر الفاتحين  
سل بها « حران » كم حرى سقت  
بردا من يوم ردت « ماردين »  
سمطت امس « سميساط » بها  
نظم جيش بهجج للناظرين  
وغدا يلقى على « القدس » لها  
كلل يدرسها درس الدررين

### بعد عماد الدين

ويموت عماد الدين اغتيالاً ويليه ابنه نور الدين ويستطيع السيطرة على رقعة ممتدة من أعلى دجلة شمالاً إلى منابع الأردن جنوباً، ويكون الشاعران له كما كانا لابيه، ويصطدم نور الدين بالفرنج ويفوز عليهم في معركة « انب » ويقتل « البرنس » صاحب انطاكيه في المعركة، وتحقيق بشاره ابن منير المتقدمة « ويترنس » رأس « البرنس » لا بالذلة وحدها بل بالمنية، وهكذا نرى كم كان ذلك الشعر صدى للوجдан العربي والضمير الإسلامي في تخيل الامال البعيدة والتلهف على المطامع القصبية . فقد كان « البرنس » كما يقول ابن الاشيم : « عاتيا من عتاة الفرنج » وكان الخلاص منه احدى اكبر الانبياء .

وقد رأينا كيف ان القيسراني كان يلوح في قصيدة الدالية لا بالخلاص في الوطن فحسب بل بالنفاذ حتى الى القدسية :

والله عزم ماء سيحلن ورده  
 وروضة قسطنطينية مستراده  
 كما لوح ابن منير بالنصر على البرفس ثم  
 بالنفاذ الى القدس :  
 وغدا يلقى على القدس لها  
 كلل يدرسهَا درس الدرىن  
 وتنالت بعد الراحل المرجوة مرحلة مرحلة  
 وستظل تتوالى ولكن دون ان يقدر للشاعرين ان  
 يعيشوا ليريا تواليا ، اذ انهم ما تما قبل نور الدين .  
 واستأثرت معركة انب ومقتل البرنس بشاعريتة  
 الشاعرين وقفزت بالمطامح من القدس والقسطنطينية الى  
 روما نفسها فقال ابن القيسراني من قصيدة طويلة جرى  
 فيها على ما جرى عليه في القصيدة الدالية من الافتتاح  
 بالشمر العسكري لا الغزلی :

هذی العزائم لا ما تدعى القusp  
 وذی المکارم لا ما قالـت الكتب  
 وهذه الهمم اللاتی متى خطبت  
 تعثـرت خلفها الاشعار والخطب  
 : وبـهـا يـتـولـ

اغرـت سـيـوفـكـ بالـافـرنـجـ رـاجـفةـ  
 هـوـادـ «ـ روـمـيـةـ »ـ الـكـبـرـیـ لـهـ يـجـبـ  
 قـلـ لـلـطـفـاءـ وـانـ صـمتـ مـسـامـعـهاـ  
 قـوـلاـ لـصـمـ القـنـاـ فـيـ ذـكـرـهـ اـربـ  
 اـغـرـمـ خـدـعـةـ الـامـالـ ظـنـكـمـ  
 كـمـ اـسـلـمـ الجـهـلـ ظـنـاـ غـرـهـ الـكـذـبـ

اجسادهم في ثياب من دمائهم  
 مسلوبة ، وكان القوم ما سلبوا  
 انباء ملحمة لو انهما ذكرت  
 فيما مضى نسيت ايامها العرب  
 فملدوا سلب « الابرنس » قاتله  
 وهله غير « انطاكيه » سلب  
 فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب  
 يوليك اقصى المنى فالقدس مرتب

ونحن نلمس في هذا الشعر شيئاً فوق المدح . اتنا  
 نلمس احساساً متاججاً يثيره الذل الذي استحال عزاً والهوان  
 الذي عاد فتحاً ، اتنا نسمع اهازيج النصر راعدةً مدويةً  
 وهتافات الظفر صارخةً متوعدةً تزري بالغاصبين وتدل  
 الى هلمهم وتنفسى بالراجفة التي وجب لها حتى  
 قلب ( رومية الكبرى ) القصبة ، ويجيء ذكر روما هنا  
 طبيعياً سائغاً ، لا نبو فيه ولا دلالة تبجح فارغ مستكره .  
 ثم هذه الاشارة الى الخطوة التالية المأولة الى ( سلب  
 الابرنس ) ، هذا السلب الذي يسمو عن المادة ومحりاتها ،  
 ان السلب في هذا الصراع الرهيب هو افلس ما ملك  
 ( الابرنس ) وقوم الابرنس : « هو انطاكيه » التي كان  
 سقوطها فاتحة السقوط العام وسيكون نهوضها فاتحة  
 النهوض العام ثم الطريق الى المسجد الاقصى بالجيش  
 الهاذر المزجر ذي اللجب ، فالقدس ترقب اهلها وتنتظركم .  
 اتنا نرى في هذا الشعر ، الشعب كله ينطلق في صوت  
 واحد وشعار واحد : الى الامام ، الى انطاكيه ،

الى القدس ..

ينطلق بذلك لا غروراً وغباءً ، وجهلاً ، بل يقينًا  
وعقلاً وفهمًا .

ويقول ابن منير من قصيدة طويلة افتتحها كزميله لا  
بالغزل بل بما يناسب حالة الكناح التي كانت فيها البلاد :  
اقوى الضلال واقتصرت عرصاته

وعلا المهدى وتبلجت قسماته  
فتح تعيمت السماء بفخره  
وهفت على افستانها عجباته  
وسقى « البرنس » وقد تبرنس ذلة  
بالروح مقر ما جنت غدراته  
تمشي القناة برأسه وهو الذي  
نظمت مسدار النيرين فناته  
وتتابع الفتوح ويلى النصر النصر ينطلق ابن  
منير حاملاً في قصيدة واحدة قصص الاحداث متقدلاً  
من مكان الى مكان :

اعدت بعصرك هذا الانبيق  
فتحت ابواب النبي واعصارها  
فجددت اسلام « سلمانها »  
ومئر جدك « عمارها »  
وما يوم « انب » الا كتب  
لك بل طال بالبوع اشبارها  
ولما هببت « ببصري » سمعك  
بت باهباء خيلك ابصارها



## الشيخ جعفر الخطيب شاعر الخليج

هذا الخليج الطيب ، الذي تطل منه مجلة « العربي » في مطلع كل شهر فتقفها الايدي العربية شفافة ، كان جديراً بمجلة مثل « العربي » لما في ماضيه من صفحات مشرقة بالعلم والادب والشعر ، وبما ساد في ربوته من شفافية وتفوق في الفقه وتقدمي القريض ، وبما اطلع من كواكب مضيئة في سماء العرب على مر العصور ، وبما خلف اندماذه من تراث فكري زاخر .

انه بذلك كان خليقاً بان يتتابع مجرى ماضيه . غيططلع على دنيا العرب باقباس من النور تضيء حوالك السبل وداجيات المسالك .

### ما حققه مجلة العربي

وها هي ذي مجلة « العربي » اليوم تحقق لحبي الخليج ، من خبروا ماضيه وعرفوا مآنته ما تمنوه للخليج من دوام الماضي بقيادة نهضات طالما عرفها الخليج ، فمنذ ميلاد البحرياني ، واحمد المتوج ، وسليمان المحوزي ، ويونس آل عسفور ، وعشرات غيرهم كانوا في تاريخنا العلمي وتراثنا الادبي من اندر الوجود وارفع الرؤوس .

منذ هؤلاء وغيرهم دامت القطيف يوما والاحساء يوما والبحرين يوما ، هي القاعدة والمنبت . طورا هذه وطورا تلك تسلم كل منها الزمام الى الاخرى او يتولينه معا . وها هي الكويت اليوم بمجلتها الرفيعة تقبض على الزمام وتحمل اللواء فبتفيا ظلاله ، لا الخليج وحده بل العرب حيثما حلوا .

وإذا كانت هذه المجلة قد حققت ما لم تتحققه اضخم الجهد ، فالفلت بين منازع الفكر العربي من اقصى شرقه الى اقصى غربه ، وإذا كانت قد استطاعت ان تكون رسول الثقافة الاسلامية الى اناى ديار المسلمين . وبريد النهضة العربية في شتى ديار العرب . فانها في واقعها صورة لما كان عليه هذا الخليج ولما نحب ان يظل عليه من بروز في ميادين الادب العربي و مجالات الفكر الاسلامي .

## شعر الخليج

والشعر بخاصة كان له في هذا الخليج التفوق والإجاده منذ طرفة بن العبد واخته ، الى علي بن المقرب الاحسائي ، الى من ظلوا على طول العصور حتى هذا العصر ، شعراء من احب الشعراء الى قلوبنا واقربهم الى نفوسنا .

ومن خير ما اختصهم الله به في شعرهم هو هذا الثناء لارضهم والحنين لبلدهم والتشوق لولادهم ، ولعل اراده الله شاعت ان تمحنهم بالنزوح عن الاوطان والهجرة الى

شتى البلدان ، لا لشر اريد بهم ، بل لخير اريد بشعراهم ،  
فكان لنا منه ذخيرة من اللوعة والوجود واللهم ، تدفقت  
شاعرا رقيقا وقصائد صافية تلذ للسامع وتطيب للقارئ .  
فمنذ انشد طرفة بن العبد :

لخولة اطلال ببرقة شهد  
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد  
وقوفا بها صحبى على مطيمهم  
يقولون لا تهلك اسى وتجارد  
وانشد :

وَبْنُو بَكَرٍ إِذَا مَا اجْتَمَعُوا  
دُوْحَةُ الْحَرْبِ وَجَرْثُومُ الْكَرْمِ  
وَشَبَابُ وَكَهْمُولْ بَيْنَنَا  
كَلِيوُثُضَارِيَاتِ فِي الْأَجْمِ  
نَرْدُعُ الْجَاهِلِ فِي مَجْلِسِنَا  
فَتَرِى الْمَجْلِسَ مِنْا كَالْحَرْمِ  
وَمَنْذَ اَنْشَدَ قَبْلَهُ عُمَرُو بْنُ قَمِيَّةَ :

اراك الى كثبان « ييرين » صبة  
 وهذا لعمري لو قنعت كثيب  
 وان الكثيب الفرد من ايمن الحمى  
 الى وان لم آته لحبيب  
 وانشدت الشاعرة الخليجية المجمولة :  
 ايا جبلسي وادي « عريعرة » التي  
 نأت عن ثوى قومي وحم قدومها  
 الا خليا مجرى الجنوب لعلها  
 يداوي فؤادي من جواه نسيمها  
 منذ اولئك توالى الانشاد تغنى بالخليج وتمدحا  
 بظلاله وحنينا الى تخيله وتشوقا الى شطوطه . فانشد  
 علي بن المقرب الاحسائي :  
 يا حبذا وادي « الحساء » وانه  
 لو ساعنني واد الي محبب  
 بل حبذا « درب النليم » وحبذا  
 ذاك القطرين بيـه وذاك الملعب  
  
 ثم انشد ماجد الصادقي :  
 يا ساكنني « جد حفص » لا تخطفكم  
 ريب المنسون ولا نالتكم المحن  
 ولا عدت زهرات الخصب واديكم  
 ولا اغب ثراه العارض الهتن  
 الدهر شاطر ما بيني وبينكم  
 ظلمافكان لكم روح ، ولني بدن .  
 ثم انشد علي شبانه :

والى « أول » تروع قلبي كلما  
 سرت الصبا من تلکم الساحات  
 والى نواحي ارضها وربوعها  
 ولما بها قد مر من اوقات  
 وعراصها الفیح التي قد طرزت  
 اطرافها ب بواسق النخلات  
 ثم انشد علي البحرياني :  
 يا نسيم الريح ان جئت « المقاما »  
 فابلغن عنی احبابي السلاما  
 سفر قد حسأر مـن اهـوالـه  
 فيه كل المستحبات حراما  
 طال حتى ملـت الروح بهـ  
 الجسم والقلب بهـ حل « المقاما »  
 ثم انشد عبد العزيز المبارك :

طال ليلي في « ابـي ظـبـي » ولا  
 ظـبـيـليـفيـهـيـخـاهـيـالـبـدرـحـسـنـاـ  
 واصـحـابـانـجـيـبـلـهـمـ  
 اصـبـحـالمـجـدـكـمـشـاؤـوـهـقـنـاـ  
 اوـطـنـواـ«ـاـلـاحـسـاءـ»ـفـارـتـاحـتـبـهـمـ  
 وـاـكـتـسـىـالـدـهـرـبـهـمـزـيـنـاـوـحـسـنـاـ  
 «ـبـالـقـبـيلـيـاتـ»ـلاـزـالـتـبـهـمـ  
 جـنـةـمـنـهـاـثـمـارـخـيـرـتـجـنـىـ  
 يـاـنـدـامـايـبـذـيـكـالـحـمـىـ  
 بـلـغـالـلـهـبـكـمـمـسـاـنـتـمـنـىـ

ثم انشد عبدالله عبد القادر :

لقد غادرت في « هجر » فؤادي  
وانمسنت في ارض سواها  
بها اهلي وجيراني وصحابي  
سقاها الله من بلد سقاها

ثم انشد علي التاروتي :

سمعا مهفهة « المفوف » من « هجر »  
انفمة الصوت ذا ام رنة الوتر  
وذا الذي عطر الافق فائحه  
تردي نفسك اذا لم نفحة العطر

ثم قال الشيخ عبد الحميد الخطبي :

قالوا التحليف فقلت غایة تصدنا  
الق المراسي ايها السریان  
السفن اسراب تروح وتغتدي  
نوعان ذا وان وذا عجلان  
والشرع خامقة الشعاع كأنما  
نفضت جناحا في الفضا العقبان  
يا حسه من منظر خطب النهي  
يعينا برسم جماله الفنان  
ما عادني ذكر الشطوط وطيفها  
الا وعاد فؤادي الخفغان

ثم قال عبد الرسول الجشي :

ما زلت لؤلة « الخليج » ولم يزل  
نلاميء ( البحريين ) ذكر سائر

وهب الحياة ثراك فهمي جنائن  
 وكسا الجمال رياك فهمي مناظر  
 وتأشيت فإذا السباحخ خمائل  
 وتفتحت فإذا الرمال ازاهير  
 وتفجرت فإذا الصخور جداول  
 وتضاحكت فإذا الخرير مزاهير  
 وتطاولت فإذا النخيل عرائس  
 وتخطرت فإذا الفصون غدائير  
 دنيا اقام الفن فيها عرسه  
 وازيح عن صور الجمال ستائر  
 ثم قال فاضل خلف يخاطب البحرين :

بلاد اللالي المشرقات تقبلي  
 شعوري وشعري والهوى يتدفق  
 يجوب بنوك البحر هذا مغرب  
 يسطر امجادا وهذا مشرق

فهل ترى ارضاً عربية ذكرها اهلها وغنى بها شعراً وها  
 بمثل ما فعل اهل الخليج بخليجهم حين انشدوا في حنينهم  
 شعراً تفجره وطناتهم ، وبيعثه وفاؤهم ، معبرين عما في  
 الخليج من المعبات واريحيات ، وممثلين طيب ارضه  
 وسفاء سمائه وسؤدد ابنائه .

هكذا نرى الخليج على افواه الشعراء في كل العصور  
 نغماً عذباً وشدوا رقيقة ، خالداً ذكره خلود الادب دائراً  
 اسمه في الناس ما دار الشعر وجال النثر .

الشيخ جعفر الخطبي

وهذا واحد من شعراء الخليج ، بل هذا شاعر الخليج في عصره ، ولد في مغانيه وتنقل بين اقطاره ثم ترحل عنه فهفا اليه وتلهف عليه . ذاك هو الشيخ جعفر الخطبي المتوفى سنة ١٠٢٨ هجرية : ١٦١٨ ميلادية لقد عاش بين القطيف والبحرين ثم سافر الى اصفهان حيث كان النابغة العربي بهاء الدين محمد العاملـي الذي جمع الى الحكمـة والعلم ، الشعر والادب ، وقد كان لقاء العلمـين في اصفهان مجالاً لتساجلـهما بالشعر . فعارضـ الخطـي تصـيـدة العـاملـيـة الـتي مـحلـلـها :

سرى البرق من نجد فبیع تذکاري  
عهودا بحزوى والعذیب وذی قار  
قال الخطی :  
هي الدار تستستقیك مدعک الجاری  
فسقیا ، فاجدی الدمع ما كان للدار  
وفيها يحن الى الخليج :  
اموسم لذاتی وسوق مأربی  
ومجنی لباناتی ومنهب اوطاری  
سقتك برغم المحل اخلاف مزنة  
تلف اذا حاشت سهولا باوعمار

وتشاء القدر ان تنتهي حياة الشاعر في ايران  
فيموت بعيدا عن الخليج وارضه ، تلك الارض التي  
طالما تغنى بها واشتاقها .

## شعره

اجمل شعر الخطى واخلده هو ما كان مسدى  
لعواطفه ومظهرها لحنينه ، ففيما عدا الشعر التقليدي الذي  
عرفه كل الشعراء في تلك الفترات ، فان الخطى نظم في  
الحنين الى القطيف حين هجرها الى البحرين ، ثم  
في الحنين الى كل يوما حين رحل الى ايران . وهو في  
كل ذلك يذكر الاماكن ويتشوق الى المنازل :

هلا سالت الربع من « سيهات »  
عن تلکم الفتیان والفتیات  
ومجر ارسان الجیاد کأنهـا  
فـوق الصعید مـسـارـبـ الـحـیـاتـ  
ومـجـدـفاتـ السـفـنـ اـدـنـیـ بـرـهاـ  
**من بـھـرـھـاـ وـبـارـكـ الـھـجـمـاتـ**  
حيث المسامع لا تـکـادـ تـفـیـقـ منـ  
ترجـیـعـ نـوـتـیـ وـصـوتـ حـدـادـةـ  
ان « القـطـیـفـ » وـانـ کـلـفـ بـجـبـھـاـ  
وـعـلـتـ عـلـیـ اـسـتـیـطـانـھـاـ زـفـرـانـیـ  
اذ حيث جـزـتـ رـأـیـتـ فـیـهاـ مـدـرـجـیـ  
طـفـلاـ وـاتـرـابـیـ بـھـاـ وـلـدـاتـیـ  
لـاجـلـ مـلـتـمـسـیـ وـغـایـةـ مـنـیـتـیـ  
انـیـ اـقـیـمـ بـتـلـکـمـ السـاحـاتـ  
فـسـقـیـ الـفـمـامـ اذاـ تـحـلـبـ رـبـکـهـ  
تـلـکـ الرـحـابـ الـفـیـحـ وـالـعـرـصـاتـ

## واجتازت المزن العشار فطبقت

**بالسقى من « عتك » الى « نباتات »**

وهكذا فان « مسيهات وعتك ونباتات » هي مطمح انتظاره ومثار هواه ، ومرابع الخليج وما فيها من حياة بحرية بحرية تلتقى فيها اصوات الحداة باصداء النوتية ، ومتدرج مجاديف السفن بارسان الخيل ، ان حياة الخليج هذه يشفف بها شاعر الخليج فيصورها لنا ويحدثنا عنها فنرى في شعره صورة وطنه .

ولا عجب ففي الخليج درج طفلا ، وجال يافعما وشاما بين الاتراب واللدات كما يحدثنا هو في هذا الشعر الذي نحس انه شعر « خليجي » بكل ما في الخليج من طبيعه وحياته .

وإذا كان وهو في البحرين يحن الى بلده الاول القطيف ، فكيف با وقد نأى عن كل يهمها ونزح عن الخليج وبعد عن « مجدفات سفنه » و « مجر ارسان خيله » وحل بشيراز سنة ١٠١٢ هجرية .

ان جواه في هذا ليطول وووجهه ليثور فيقول :

يا هل ترون لنسارچ قدفت به

**ايدى البعاد « لجد حفص » ايابا**

« تحسب « البحرين » اني بعدها

**متبوئ دارا ولا اصحابا**

ما أصبحت « شيراز » وهي حبيبة

**عندي بأشهر من اوال « جنابا »**

ولكن البحرين ليست وحدها الا هي التي تشوقه

فهو موزع الفؤاد في الخليج كله ، فاذا فكر البحرين  
تداعى الحنيين عليه من كل جانب ، فالقطيف قبل  
البحرين كانت مدارج صباح وملاعب هواه ، انه لم ينسها  
وهو في البحرين غير بعيد عنها ، اينساحتا وقد شطت  
دارها وبعد مزارها:

يا ساكني « الخط » في قلبي لكم خطط  
معمورة بمعانيكم معانيمها  
يا هل ترون لحنى الضلوع على  
ذكر الديسار وقوفا في محانيمها  
ماذا على الطير اذ أبلى الضنا جسدي  
خفف لو حملتني في خوافيها  
ان يقعد الطير عن ح ملي لكم ومررت  
رياح الصبا فاطلبوني في مساريها .  
وهكذا يتداوله الشوق من القطيف الى البحرين  
الى افيساء الخليج من حيث امتدت تلك الانفاس :  
عوج بالمطبي على عالم (بوري )  
لحل لذاتي ورباع سروري  
لم تجعل العبرات خدي معبرا  
 الا على مري بها وعبروري  
هل لي الى تلك المنازل عودة  
يحبوبها وجدي وفرط زفيرى  
يا من اسير كل يوم نحوهم  
كتبى اذا اعيا على مسيري  
آه وقل على ( اوال ) تاوهي  
نادا جنت بها فغير كثير

هيهات ما (شيراز) وافية بما  
في تلك لبي من نعمة وحبور

ويظل يتسوق ويتأوه :

حمامات شيراز رفقا بنا  
لهجتن بالنسووح ما عندنا  
الا قل لسكنان (وادي الحل)  
هل وردوا في الهوى وردنا  
فيما هل علمتم وانتم هناك  
ما عندنا فيكم ها هنا  
فيما صاحبى والفتى ربما  
احال على خلنه ما عندنا

لسكنان (ظهر مني) من (اول)  
اول مطلبنا والمنى  
الارب قوم اباحوا لنا  
من الوصل اطيب ما يجتني  
وفيهم من الحسن ما فيهم  
فلم نر ذلك مستحسننا  
يريدون سلواننا عنكم  
وان كان ذلك لم يسلنا  
فلا تكن علينا الرحيل  
غداة نئي الركب عنكم بنا  
بالرغم ان يستقل المحب  
عن يحب وان يطعننا

هذه ملهم من شعر شاعر الخليج الشيعي  
 جعفر الخطبي كان فيها وفياً للخليج برأبه . وهذا الشاعر  
 لا تقوم بالتعريف به هذه الصفحات القليلة ولكنها اذا  
 استطاعت ان تدل عليه وتشير اليه فمحبها ذلك .

## الشيخ محمد رضا الشبيبي

محمد رضا ابن محمد جواد بن محمد بن شبيب ابن ابراهيم بن صقر الجزائري(١) النجفي مولداً ونشأ . وكان الجد الاعلى لاسرتة اي الشيخ شبيب فقيها على طريقة المحدثين ، وهى الطريقة التي كانت ذاتعة لدى فقهاء العراق في عصره . وقد سجل الشيخ شبيب نسبة بخطه على ظهر نسخة من كتاب الحدائق المشهور في الحديث . وهذه النسخة من جملة كتبه الموقوفة . وكانت ضمن محتويات مكتبة الاسرة .

### نشاشه و دراسته و اساتذته

ولد في مدينة النجف عام ١٣٠٦ هـ ونشأ فيها ، وكذلك ختم القرآن قراءة فيها على سيدة صالحة مقرئه هي السيدة ( مريم ) البراقية وتعلم الخط على الشيخ هادي حصير ( بشديد الياء ) وكان للمعلم المذكور كتاب يتعلم فيه الاحداث : وآ ( حصير ) بيت من بيوت النجف عرروا بهذه المهنة مهنة المكتبين او المؤديين كما كانت تسمى في عصور الدولة العباسية مع ملاحظة الفارق البعيد في طبيعة هذا العمل وما كانت عليه في

١ - نسبة الى اقليم الجزائر المعروف من ملحقات لواء البصرة .

عصور المقدمين ، وما آلت اليه في أزمنة المتأخرین .

اما علوم اللغة العربية من نحو وتعريف وبلاغة وبيان فانه قرأها على اكثر من شيخ واحد في طليعتهم الشيخ ( محمد حسن المظفر ) ولعله اجل اساتذته في علم النحو ومن مشايخه في هذا العلم الشيخ محمد جواد الجزائري ، وكان استاذًا في فنون اللغة العربية . واما علم المنطق فانه قرأه على اكثر من استاذ كذلك ، في مقدمتهم السيد ( مهدي الطباطبائي ) من السادة المعروفيين بالبحر العلوم ، وكان السيد مهدي معروفا بحدة الذهن والذكاء الواقاد ثم على السيد حسين الحمامي قرأ عليه في كتاب ( شرح المطالع ) . والسيد هبة الدين الشهريستاني من اوائل اساتذته في المنطق قرأ عليه سنة ١٢٢٣ ( كتاب الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد ) وهذا الشرح من اجل شروح العلامة الحلبي في هذا العلم اما المتن الذي يسمى ( منطق التجريد ) فهو من مصنفات الحكم ناصر الدين الطوسي وكان كتاب القراءة الاول الذي يدرس في ( علم المنطق ) كتابا موجزا يقال له ( شرح التهذيب ) لكتابه الملا عبدالله اليزيدي ، اما متن التهذيب فهو من مصنفات سعد الدين الفقازاني ويقرأون بعده اي بعد كتاب التهذيب ( شرح الشمسية ) المتداول في المنطق للقطب الرازي . اما متن الشمسية فهو من مصنفات عمر بن علي المعروف بالكاتب القزويني تلميذ ( ناصر الدين الطوسي ) اهداه الى ( شمس الدين الجويني ) وزير المغول ، ويعتبر الجويني كما لا يخفى من خيرة وزراء المغول الذين

عنوا بشؤون الاسلام وال المسلمين في مهنتهم بعد غلبة القوم على الديار الاسلامية وهذا الكاتب القزويني احد الحكماء الستة التي اختارهم نصير الدين الطوسي لتعاونه في تأسيس ( مرصد مراغة ) والمعهد العالمي وخزانة الكتب الكبير في تلك المدينة المغولية وكان مؤرخ العراق ابن الفوطى مصنف كتاب ( مجمع الاداب ) في معجم الاسماء والألقاب فيما على مكتبة ( المرصد ) وقد عني في كتابه المذكور بتاريخ المرصد والمدرسة والمكتبة وكل ما يتصل بشؤون النهضة العلمية الكبرى في مراغة وتعد هذه النهضة من مآثر المغول في مستهل دولتهم في المشرق والعراق وقد عقد ابن الفوطى فصلاً طيفاً في كتابه ترجم فيه للكاتب القزويني الحكيم .

واما علم الفقه وعلم الاصول فقد قرأها المترجم على اكثـر من استاذ فـي الاصـول قـرأ كتاب المعـالم للشـيخ زـين الدـين العـامـلي وكتـاب القـوانـين للـقمـي وـفي الفـقـه فـرأـ كتاب شـرـائـع الـاسـلام لـلمـحقق الـحلـي وكتـاب الـروـضـة الـبـهـيـة فـي شـرـح الـلـمـعة الـدـمـشـقـيـة قـرأـ على الشـيخ عـبد الـكـرـيم آل الشـيخ صالح الجـعـفـري . وـتـخـرـج فـي الـادـب وـعـلـومـه عـلـى اـشـهـر مشـاهـير اـدبـاء تـلـكـ المـديـنـة وـفي طـلـيـعـتـمـ السـيـد حـسـيـن عـمـيد آل القـزوـينـي وـكـانـ شـاعـراـ خـبـيراـ بـفـنـوـنـ الـادـبـ مـجـداـ بـعـيـداـ عـنـ الجـمـودـ يـفـضـلـ درـاسـةـ الـكـتـبـ الـقـديـمـةـ الـاـصـيـلـةـ عـلـىـ كـتـبـ الـمـتأـخـرـينـ . وـعـلـىـ الشـيـخـ هـادـيـ نـجـلـ الشـيـخـ عـبـاسـ مـنـ آلـ الشـيـخـ جـعـفـرـ الكـبـيرـ .

وكان الشيخ الهادي اديباً ذواقة للشعر معانياً بروايته . وقد عنى هذا الشيخ بشؤون التربية واقتني مكتبة ثمينة غنية بالمخطوطات وقلما توثقت علاقة بين اثنين كالتي كانت بين والد المترجم الشيخ جواد والشيخ هادي المذكور . ولا عجب فمان تلك العلاقة كانت ذات جذور عميقية يغذيها اخلاص متبدل وصفاء لا تشوبه شائبة . ولما توفي الشيخ عباس والد الشيخ الهادي سنة ١٢١٥ رثاه الشيخ جواد بثلاث قصائد تعد من عيون شعره وهذه القصائد الثلاث يشعر من يقرأها بمتانة تلك العلاقة ، فهي بمثابة تعبير جميل عن شعور صادق وآخاء وثيق وصحبة اكيدة ، وقرأ المترجم في الادب ايضاً على اساتذة آخرين عدا ما اخذه عن والده واقرائه في ذلك الزمان . وكانت تعقد في النجف مجالس تلقى فيها بحوث ودروس بشكل محاضرات في الفقه والاصول يختلف اليها عدد كبير من الطلاب ومن أشهرها مجلس يعقد للشيخ الملا كاظم الخراساني الاستاذ المدرس المشهور في علم الاصول وآخر يعقد للشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة وهو خاص بالبحوث الفقهية وكان الشبيبي يختلف الى هذه المجالس العلمية .

### عمله في الاصلاح

وكان ذلك كله في اواخر عصور الدولة العثمانية . اي قبل نشوب الحرب الكونية الاولى . وهو عصر امتاز بيقظة فكرية ظهرت في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ومن جملتها العراق . وكان هدف تلك اليقظة المطالبة باصلاح

شؤون الدولة حيث اسهم المترجم له مع شباب ذلك العصر من عراقيين وغيرهم في الدعوة إلى الاصلاح . ثم كانت له جولات معروفة في الصحافة خصوصاً السورية والمصرية وعمره يتصف بعض صحف مصر وسوريا ولبنان والعراق الصادرة في ذلك العصر يقرأ له فيها شعراً اجتماعياً او سياسياً غير قليل ومقالات أدبية وتاريخية ولغوية وكان لجمهوره المتأدبين شفف باللغة بقصائده وحفظها وروايتها في تلك الفترة حمل المترجم لواء الدعوة إلى الاصلاح السياسي والاجتماعي في شعره ونشره منذ نشأة وكانت له رسالة من هذا القبيل في بلاد العرب والعراق وفي المطالعات المترات خاصة .

ويقول مؤرخو الأدب العراقي الحديث انه من اوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره بين شعراء العراق وأولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . وكان ذلك حوالي سنة ١٣٢٠ للهجرة ( ١٩٥٠ ) كما كان عمره إذ ذاك حوالي الخمس عشرة سنة . واعشهر الصحف والمجلات التي نشرت ما نشرت له من منظوم ومنتور في ذلك الحين : المقتبس ( مجلة وجريدة في دمشق الشام ) والبرق ال بيروتية ومجلة المعرفان ومجلة الزهور المصرية وصحف عراقية أخرى معروفة ، وله ديوان شعر عنوانه ( ديوان الشبيبي ) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٠ .

### بحوثه ودراساته

وللشبيبي دراسات وبحوث تاريخية وادبية وسياسية

بعضها مطبوع واكثرها مخطوط من ذلك بحث عنوانه (فن التربية في الاسلام) القاه على طلبة كلية التربية ببغداد سنة ١٣٧٧ - ١٩٥٨ ودراسة في اللغة عنوانها (أصول الفاظ اللهجة العراقية) واخرى في الادب موضوعها ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله المصرية وفضوصاته العربية<sup>(١)</sup> وهي محاضرة القاها على طلبة محمد الدراسات العربية العالمية في القاهرة هذا الى بحوث غير قليلة في التاريخ والادب واللغة القيت في دورات مؤتمر المجمع اللغوي في القاهرة وعددها خمس عشر دورة وقد نشرت محاضر الدورات المذكورة وفيها امثلة من تلك البحوث والمحاضرات . واخر مجهد ظهر له كتاب عنوانه ( رحلة في بادية السماوة ) نشرت اخيرا في بغداد .

### **مساهمته في الحرب الاولى**

ولما اعلنت الحرب الكونية الاولى واندلعت في العراق سنة ١٩١٤ شارك في هذه الحرب الى جانب الجيش العثماني وحضر معركة الشعيبة الطاحنة التي خذل فيها الجيش المذكور ، ومن ثم انتحر على الفور قائدہ امير اللواء ( سليمان عسكري ) وكان الى جانب القائد المذكور في ميدان الشعيبة ابان هذه الحادثة التكراء . ومن ثم عاد مع فلول الجيش المقهقر الى مدينة الناصرية .

كان القائد سليمان العسكري شجاعا مقداما غير انه لم يزود بمعلومات كافية عن معاقل الانكليز ومناعتها

١ - طبع كتاب ادب المغاربة والاندلسيين في القاهرة سنة ١٩٦٠ .

في ميدان الشعيبة ، ولذلك خابت محاولاته في الاستيلاء على الواقع المذكورة ومني الجيش بخسائر كبيرة بعد هجمات انتحارية ضاربة اشرف عليها سليمان عسكري القائد العام بنفسه ، وكان المترجم له معه فعلاً في ذلك الميدان وقد خصص له سلاح ورकوبه . ولمشاركة الشبيبي في حرب (الشعيبة) الناشبة بين البريطانيين والأتراك في العراق قصة نادرة لا يخلو ايرادها من فائدة وذلك على الصورة التالية :

كانت رئاسة هيئة اركان الجيش التركي انشئت في بغداد سنة ١٩١٤ مدرسة عسكرية عالية سميت (مدرسة ضباط الاحتياط) حشروا من حشروا فيها فريقاً من طلبة المدارس الدينية ، وكان الشبيبي من بينهم ، كما كانت التركية لغة التعليم في هذه المدرسة ومعظم الاساتذة ضباط اتراك كان تدريسيم على جانب من العنف والشدة ، على ان الشبيبي استطاع اقناع السلطات التركية ببغداد باستثناء طلاب المدارس الدينية واعفائهم من الانساب الى مدرسة الضباط فصدر الامر بتقريرهم على ان يلتحقوا بفرق المجاهدين المتطوعين في تلك الحرب وجلهم من افراد القبائل العراقية عرباً واكراداً فالتحق في عثة مرسلة الى عشائر الاكرااد في الجنوب قوامها غريق من رجال الدين وضباط الجيش اتجهت من مدينة بدرة (بدرة) الواقعة على واد يسمى وادي (بادرايا) الى المنطقة الجبلية الواقعة شرقى العراق وسكانها من الاكرااد التابعين لایران وذلك لمنع الانكليز واعوانهم من التغلغل

الى تلك الجهة من منطقة البصرة والاهواز وتطويق الجيش التركي المحارب في موقع الكوت والفلاحية المشهورة ، وهناك اجتمع بامير الاركان الذي استجاب الى الطلب وتعهد بان يقف سدا دون تسرّب طلائع البريطانيين على شرط تزويده بالسلاح وبمبلغ من المال وقد زود فعلا بذلك وقد تم الاجتماع بهذا الامير الكردي في مخييم له على ضفاف واد عريض يسمى ( باكسابا ) وكانت ضفاته خصبة مزدهرة وهذا الوادي ووادي ( بادرايا ) الذي قبله ينحدران من سفوح الجبال الشرقية او الكردية المذكورة ويمران في السهل حتى مصبهما في نهر دجلة وهمما تابعان اداريا للواء العمارة . وجل الزراع العاملين في هذه الجهات ينتمون الى بنى لام . يقول الشيخ الشبيبي في بعض ما كتبه : وقد سرنا على ضفاف الواديين من سفوح الجبال حتى السهل المتهيئ بشواطئ دجلة ولا تخلو كتب البلدان لياقوت . وبعد مكث الشبيبي مدة في تلك الجهات دعى ببرقية تدعوه الى مرافقته هيئة القيادة العامة للبعثة العسكرية المجهزة لاسترداد البصرة ، وكانت قد وصلت الى مدينة الناصرية ولا مناص له من المرور على مدينة ( الكوت ) وعلى الغراف في طريقه الى الناصرية وهي مسافة بعيدة ، وكانت الطرق كلها مغمورة باليابس في فيضان قلما شهد العراق نظيره بل اصبحت اليابسة وكأنها بحر لا ساحل له فاضطر ان يخوض الماء على ظهر جواده حتى مدينة ( الكوت ) وكانت مهددة بالغرق ووادى رحلته منها بطريق الغراف حتى التحق بمقر قيادة

الجيش التركي وقائده امير اللواء ( سليمان عسكري ) وصادف امير اللواء سليمان عسكري وهيئة اركان حربه على سلطىء الفرات في الناصرية وهم هلى اهبة الحركة الى ( الشعيبة ) بطريق بحيرة الحمّار وفي زوارق بخارية فاستقبلوه في زورق القائد العام وانحدرت السفن الى سوق الشيوخ ومنها الى منطقة الاهوار والبطائح المشهورة حيث اجتازوا في المنطقة على سود زراعية يقيمها الفلاحون وتوهم الاتراك لسوء فهمهم ان غرض الفلاحين سد الطريق على سفنهم وكانوا على اهبة الاشتباك بالسلاح مع اولئك الفلاحين ومرد ذلك الى نزق التركي وهو سه فاسرع الشبيبي الى الفلاحين وطلب الى الفعلة بلطف ان يخلو الطريق للزوارق التركية ولم يركب القائد وافهمهم بان الجيش ذاهب للدفاع عن البلاد وان القائد العام من جملة ركاب الزوارق ففتحوا الطريق وانحدرت السفن في طريقها الى ساحل البطائح الى معسكر ( النخلة ) وهو قاعدة جيش الاتراك المنظم وفرق المقاتلين او **المطوعين العراقيين** وقد اربى عددهم على ثلاثين الفا وكانت بعض الزوارق البخارية المذكورة تقطر سفنا شراعية موسومة بخبر عن مسود تعانه النفس وحسبك هذا دليلا على حالة المؤن والتموين ولم يخل مركز القيادة يومئذ من ضياء المان يغلب عليهم ضرب من الوجوم والوحيرة وكان القائد العام سليمان عسكري قد امر بتحشيد الجيش فعلا في الخطوط الامامية من ميدان الشعيبة وذلك في خطة مرتجلة غير مسبوقة بتصر وروية ، وامر بمهاجمة معاقل البريطانيين فيها ولم يعلم بمحاصاتها

ومناعتھا الا بعد فوات الوقت وقد اسفر الهجوم عن خيبة مريرة وتراجع الجيش بخسائر فادحة . ومن ثم انتحر القائد العام في مأساة معروفة ، وكان اليأس من نجاحه في ادارة رحى المعركة سببا في انتصاره ، ولو بقى هذا القائد حيا لاسر فيمن اسر من ضباط وجنود في تلك المعركة الضاربة . فان الجيش бритاني شن هجوما مقابل طوق فيه ذلك الميدان . اما المجاهدون او الذين سموا كذلك من افراد القبائل فكانوا اسرع من غيرهم الى الهزيمة .

وقد طورد المنهزمون بسيارات مصفحة ظهرت لأول مرة في حرب العراق حتى قاربت قاعدة الجيش التركي في النخيلة وكانت تطلق نيرانها الحامية في اقفية المتراغعين من افراد الجيش والمجاهدين وفي مساء ذلك اليوم شرع الاتراك بالانتقال الى قواعد جديدة في المنتفك لم تصمد ايضا ازاء تقدم бритانيين وكان ظفر бритانيين في الناصرية على الفرات ، وفي العمارة على دجلة مفتاحا لاكتساح العراق برمتھ . وكان امير اللواء سليمان عسكري يعتمد في ميدان الشعيبة على قائد باسمل مثله اسمه ( حمد بك ) عهد اليه بادارة رحى المعركة وقيادة الهجوم في الخطوط الامامية الذي استمر يومين بدون انقطاع وبدون جدوی ايضا فاستدعاءه سليمان عسكري من خط النار وال الحرب دائرة بعنف وسئل عن مصير الهجوم فكان الجواب والشبيبي يسمع ان معاقل العدو في غاية المنعة ومنذ تلك اللحظة قرر القائد العام سليمان عسكري الكف عن موافصلة الهجوم .

وامر تحت جنح الظلام بالتقهقر الى قاعدة الجيش في غابة ( البرجسية ) الواقعة في ضواحي مدينة ( الزبير ) والغابة كلها من شجر الاشجار والطرفاء .

## **بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى**

ولما عقدت المهدنة العامة سنة ١٩١٨ اي بعد انتهاء الحرب الكونية الاولى باندحار المانيا وحليفتها تركية وعقب احتلال العراق قام المحتلون بانشاء حكومة قوامها فريق من ضباط الجيش .

ولم يحسب للشعب العراقي حساب في تأليف هذه الحكومة ، ومن ذلك التاريخ شرع العراقيون بمقاومة تلك السلطة الاجنبية وبدأوا يطالعون الانكليز بالجلاء والوفاء بعهودهم التي قطعواها للعرب بشأن حقهم في تحرير مصر . وهذه العهود عبارة عن مراسيم اصدراها في العراق قادة الحلفاء واذاعوها مذيلة بتواقيع رؤساء حكوماتهم بعد تقهقر الاتراك في ميدان الحرب العراقية الى شمال الموصل واحتلال بغداد . وفي هذه المراسيم ما فيها من الامانة المسولة والمواعيد الخلابة في اداء العون للعرب في كفاحهم لنيل حريةهم وبعث تراثهم الجيد في الحضارة . والمع العراقيون على الانكليز بان تتكون في العراق حكومة مستقلة ذات سيادة . وكان للشبيبي في هذا العيد جهود معروفة في مقاومة دسائس المحتلين والمطالبة بما قطعوه للعرب وال Iraqis من عهود ووعود . ولما اضطرت حكومة لندن الى تكاليف

نائب الحكم السياسي العام في العراق السر ( ارنولدولسن ) باستفتاء العراقيين . وجه الحكم العام المذكور بواسطة حكام الاقاليم من الضباط السياسيين اسئلة معينة الى اهل العراق في اجتماعات كانت تعقد في مكاتب الحكم المذكورين ويشهدها فريق من الوجوه والزعماء وكان السؤال الاول عن جنسية الحكم الذي يريدونه والثاني عن شكل الحكم . والثالث عن حدود العراق ، فكانت اجوبة العراقيين مفاجئة تماما لرغبة الانكليز .

طالب الشبيبي في الاجتماع الذي عقد في مدينة النجف بحكومة دستورية يرأسها ملك عربي . وعبر بذلك عن رغبات احرار العراق على صورة اشارت امتعاض الحكم العام فقاطعه في تلك الجلسة ضاربا - اي الحكم - بقضية يده على المنضدة ولكن بدون جدوى والواقع ان اشتق ما كان يشق على البريطانيين يومئذ هو ذلك الشعور الحسي بالكرامة لدى ابناء العراق الاحرار ولنا ان نقول ان جملة من الحوادث التي اريقت فيها الدماء نشأت في العراق عن خشونة في اللهجة او عجرفة استعمارية في اللقاء اعتبرها الجانب العراقي جارحة لكرامته ، ماسة بشرفه وهكذا فان الشعور الحسي بالكرامة ونزعة الاستعماريين المعروفة في الشموخ والكبرياء ضدان لا يجتمعان وما اكثر الشواهد على ذلك ، في احداث العراق خلال فترة الاحتلال . ولا حاجة الى القول بان للشبيبي موافقه المعروفة في هذا الدور الخطير من ادوار الكفاح بين الشعب العراقي والسلطنة

المحتلة خصوصا في بعض المراكز المعروفة كالحلة وكربلاء والنجف والديوانية وبغداد فان الروح الوطنية التي بعثت يومئذ كانت قائمة على نشاط عدد من العلماء ورجال الدين والوجوه والزعماء والشباب في المدن والارياف المذكورة . وكان هو في طليعتهم . هذا ولما اخذت السلطات الانكليزية المحتلة تماطل وتتسوف في تلبية مطالب العراقيين والاعتراف بحقوقهم المشروعة ، وقد اعلنوها وطالبوها بها مارا خصوصا بعد اجراء الاستفتاء الذي تقدم ذكره . ولما كان قادة الثورة العربية في سوريا والجazz يجهلون ما يجري داخل العراق من صراع عنيف بين احرار البلاد والسلطات الانكليزية . وكان من الضروري اعلام زعماء العرب خارج العراق بحقيقة الحال هناك — فكر صاحب الترجمة بأن يقوم بهذه المهمة . وغاتسح بذلك فريقا من اصدقائه وزملاه العاملين من علماء ورؤساء وغيرهم من الشباب الناهض واقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة فوافقوا على رأيه .

## رحلته الوطنية

ومن ثم قام برحلته الى البلاد العربية منتديا عن العراقيين لدى الحكومتين العربيتين في مكة المكرمة ودمشق الشام اذ ذاك . وزود بوثائق مذيلة بتواقيع زعماء البلاد وعلمائها وقادة الرأي العام فيها تضمنت انتدابه ليمثل العراق لدى الحكومتين المذكورتين وابلاغهما رغائب العراقيين وايقافهم على الاحوال الجارية في

العراق . وقد بارح العراق في اواخر سنه ١٩١٩ الى مكة المكرمة سالكا طريق البادية من البصرة الى ( جبل شمر ) في الديار النجدية فالمدينة المنورة . ومن المدينة الى مكة .

وقد قاسى الامرين في هذه الرحلة الشاقة ومحب قافلة من البدو المسلحين واجتمع فور وصوله الى مكة بشريفيها الحسين بن علي ملك العرب اذ ذاك وبانجاله الامراء و منهم ( علي ) و ( عبد الله ) في مكة المكرمة وهذا هو ثاني اجتماع له بهم اما الاجتماع الاول فقد كان في الوادي الذي يسمى ( وادي فاطمة ) على قيد مرحلة من مكة في مخيم لهم هناك وكان الجميع بلباس الاحرام ، ولا يخلو وادي فاطمة من خصب وفيه بساتين يرويها جدول صغير ينحدر الى الوادي في شبه قناة او صهريج من الطائف .

## في الحجاز

واستقبله الملك حسين في قصر الامارة بمكة وخلا به حيث قدم له ما معه من الوثائق . وتحدث اليه واطلعه على حقيقة الاحوال في العراق ، وان العراقيين يعانون كثيرا من الضيم والارهاق تحت ادارة الاحتلال . ويطالبون اشد المطالبة بالحرية والاستقلال وانهم مستعدون لحمل السلاح واعلان الثورة والتضحية في هذا السبيل بنفوسهم ونفائسهم كما وقع ذلك فعلا . وقد طلب الشبيبي الى الملك حسين ان يبذل جهده في سبيل تحقيق مطالب الشعب العراقي ، وتوكيله رسالته

وممثليه في مؤتمر الصلح الذي كان ملتقى في باريس بذلك . وكان ( فيصل ) يعاونه شباب اكفاء من السوريين وغيرهم يمثل والده في المؤتمر المذكور ، فما كان من الملك حسين الا ان اعلم فيصلا بالوضع الراهن في البلاد العراقية وبان يدافع عن حقوق العراق في مؤتمر الصلح استنادا الى تلك الوثائق التي تسلّمها من الشبيبي في مكة المكرمة وقد ادعى بعضهم انها لم تصل اليه الواقع انها وصلت كما اخبره بذلك فيصل نفسه في الشام . ثم ان الملك حسين كتب بهذا المعنى رسائل اجاب بها العراقيين من علماء وزعماء واعلمهم بتسلم الرسائل والوثائق التي حملها الشبيبي ووعدهم وعدا قاطعا في كتابه بأنه مستعد للتضحية بنفسه وعرشه في سبيل استقلال العراق بحدوده المعلومة . وقد وهى الحسين بو عده فانه توفي بعد ان اخرج من مكة واضطر للتنازل عن عرشه بسبب صلابتته وشباته وهو الان يرقد في مثواه بفلسطين تغمده الله بالرحمة . وقد وصلت رسائل الملك حسين هذه الى كافة من كاتبه من قادة الثورة في العراق حملتها اليهم حاج عراقيون بناء على طلب الشبيبي . وبعد ان اقام الشبيبي مدة لا تقل عن ٤٠ يوما في مكة بارحها الى المدينة المنورة ومنها استقل القطار وكان بحالة يرثى لها من الخراب بعد الثورة وذلك الى حدود الشام . فلا جسر ولا مرفق اخرى ولا مستخدمين حتى ان رحلة القطار بين المدينة ودمشق استغرقت خمسة وعشرين يوما وهي لا تستفرق في العادة اكثر من ثلاثة ايام . هذا ولبعض الضباط البريطانيين فيما يقال خلص في ذلك الدمار .

## في دمشق

وفي دمشق اجتمع بالملك فيصل، بعد عودته من اندرن وبقيادة الحركة العربية من عراقيين وسوريين وفلسطينيين وغيرهم وتاكد لديه منهم وصول تلك الوثائق العراقية . وهكذا مثل العراق في عدة جمعيات ومؤتمرات من اشهرها المؤتمر العراقي الذي التأم في الشام سنة ١٩٢٠ ونادى — اي المؤتمر — على رؤوس الاشهاد باستقلال العراق استقلالا تاما على ان تقوم فيه حكومة دستورية . وتوجد وثيقة هذا المؤتمر مذيلة بتوقيع اعضائه من العراقيين المقيمين في سورية يومئذ ومنها توقيع الشبيبي . هذا وقد اقيمت في دمشق وغيرها من الحواضر السورية كبرى وتسليما في ذلك الحين حفلات تكريمية له . وقد انتهز فرصة وجوده في سورية فراح يدافع عن حقوق العراق ، وله في هذا المضمار مقالات وقصائد معروفة نشر منها في الصحف والمجلات الصادرة في دمشق وفي بيروت وتسليما في ذلك الحين ثم في ديوانه المطبوع . هذا ولا بد لنا من القول ان الشبيبي كان طول مكتبه في الديار السورية يراقب تطور الواقع والاحوال في الدولة المذكورة ، وقد تجلت في ذلك الحين نوايا الحلفاء وبيتوا غدرهم بالعرب وان البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية قسمت الى (مناطق نفوذ) بين انكلتره وفرنسا ، فكانت البلاد السورية من نصيب فرنسا ، ولذلك غادرها الانكليز الى فلسطين .

## غدر الحلفاء

فوجئت فرنسا انذارا نهائيا الى الملك فيصل بالنزول على مطالب الحكومة الفرنسية المنتدبة من قبل عصبة الام على سورية ، وكانت الحكومة تمثل الى الدخول في المفاوضات مع الفرنسيين اما الشعب السوري فقد هاج و Mage وثارت ثائرة السوريين وتوالت المظاهرات في دمشق كما شهدتها المترجم بنفسه في احياء دمشق وجساعت الجموع الى قصر الملك فيصل في حي (المهاجرين) و (الصالحية) تطالب وتهتف بحياة العرب ورفضن الانتداب والمطالب الفرنسية . ولما لم تلتقي الحكومة الفرنسية جوابا من حكومة دمشق امرت جيوشها المرابطة في لبنان بالزحف فزحفت بقيادة الجنرال (غورو) واجتازت حدود المملكة ووقعت الواقعة المعروفة بين السوريين والفرنسيين .

## وقعة ميسلون

وكانت قيادة الجيش السوري للبطل ( يوسف العظمة ) وقد قتل في واقعة ( ميسلون ) وشاهد الشبيبي وقلبه ينطر الملا نكوص المجاهدين من ابناء الشام واندحارهم في الواقعة المذكورة كما شاهد دخول الجنرال غورو الى مدينة دمشق دخول الظافر الفاتح فاخترق الشوارع الى سوق الحميدية فالجامع الاموي ومنه اتجه الى مقبرة ( مسلاح الدين ) على شكل يشعر بضرب من التشفي والانتقام . ولا بد لنا من القول ان سلطات دمشق كانت كما يقول

الشبيبي قد عرضت قيادة الجيش العامة في ساعة المحن على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذرنا بعد قيامهم بالكشف على وحدات ذلك الجيش وتفتيش الثكنات قائلين ان جيش دمشق او ما يسمى كذلك في ذلك الحين لا يعول عليه ولا يعتقد به كما وكيفا كما تحدث الى الشبيبي بذلك ( ياسين الهاشمي ) وهو اي الهاشمي ممن عرضت عليه رياسته ( ديوان شورى الحرب ) فاعتذر بعد جولة قام بها في المعسكرات والثكنات واجتمع على اثرها بالشبيبي في منزله بصالحية دمشق واعرب له عن راييه بكتافة ذلك الجيش ، ومن ثم ركزن الى العزلة ، وكانت عزلة هذا العسكري العراقي المعروف سببا في مجاملة الفرنسيين المحتلين له ، وهناك اسباب اخرى لهذه المجاملة ومنها ان ( ياسين الهاشمي ) كان يكن ضربا من الولاء للاتراك خلانيا لغيره من الضباط العراقيين الذين شاركوا في ثورة العرب عليهم بزعامة الملك حسين وانجاله ، وفي هذا الصدد يقول الشبيبي : كنا نلاحظ انزماج الانكليز من اسناد بعض المناصب اذا استند اليه اي الهاشمي ياسين . والخلاصة كان ( ياسين ) يتتردد على الشبيبي في منزله ( بصالحية ) وكانت متجاورين في تلك الصاحية وما اكثر عدد الذين كانوا يتترددون على الشبيبي في ذلك المنزل من ابناء دمشق ولبنان والعراق وغيرهم ( ١ ) .

١ - ومن وحي هذه الاحاديث نظم قصيدة ( دمشق ويفداد )  
المنشورة في ديوانه .

عوده من الشام

هذا وقد آثر العودة من دمشق الى الوطن فسور الاحتلال الفرنسي وذلك قبل غيره من ابناء العراق وبعد ان مكث في ارجاء الشام مدة سنة كاملة ، وفي هذا الصدد يقول : ( رجب الي ( ياسين ) وهو يودعني ان لا تقطع المراسلة بيننا واتفقنا على استخدام ضرب من الاشارات الرمزية في الكتابة في محاولة لكتمان الاسرار عن علم السلطات المحتلة الفاشية وسماسرتها في العراق والشام ) .

ولم تطل اقامة الشبيبي بعد ذلك في سوريا فبارح دمشق في خريف سنة ١٩٢٠ عائدا الى العراق بطريق الbadia على ظهور الجمال(١) ، وقد قطعوا المسافة بين دمشق وبغداد في خمسة وعشرين يوما ووصل ببغداد مع رفيق له من الضباط العراقيين متذكريين ووجد كثيرا من أصدقائه مبعدين الى خارج العراق او معتقلين داخل البلاد ، او مشردين . ولما اطمأن في بغداد اتصل باهله واخوانه واجتمع بكثير من قادة الرأي ورجال الاحزاب والجمعيات السياسية .

في العراق

هذا وفي هذه الفترة الصاخبة من تاريخ البلاد ظهر للجميع ان الانكليز لم يجدوا بدا من انهاء عهد الاحتلال. والموافقة على قيام دولة مستقلة ذات سيادة وفقا لما تقرر في

١ - في وصف هذه الرحلة كتب رسالة تعتبر من اطرف ما كتب في الرحلات

مؤتمر القاهرة الذي عقد سنة ١٩٢١ حيث مثل  
 شرشل وغيره من البريطانيين الحكومة الانكليزية ومثل  
 العراق كل من السر ساسون حسقيل والسيد جعفر  
 العسكري ، وفي صيف السنة المذكورة وصل فيصل وحاشيته  
 ومن جملتهم رستم حيدر على باخرة انكليزية اقلعت بهم  
 من جدة الى البصرة . ومنها توجهوا على السكة  
 الحديد فمروا في طريقهم بالديوانية والحلة وكربلاء الى  
 النجف وارياض الفرات وهي قلب العراق النابض وعرى  
 الابطال الاشاؤوس الذين اذاقوا قوى المحتلين في  
 الرارنجية والرميثة والشامية وابي صخیر وغيرهما ما  
 اذاقوه ، وضحوا بارواحهم وجميع ما ملكت ايديهم في  
 سبيل حرية البلاد وكرامتها ، وكان لفيصل باعتباره ثائرا  
 عربيا استقبال باهر يعجز التعبير عن وصفه في تلك المدن  
 المجahدة ، وقبول بمظاهرات ترحيبية كبيرة وخطب ثورية  
 بلغة كما انه القى عدة خطب في تلك المناسبات ، وكان  
 الشبيبي يجتمع بفيصل وصحابه طول مدة اقامته في  
 تلك الجهات وخصوصا في النجف وبغداد بعد وصوله  
 اليها ولا يضن عليهم بالنصح ومواجهتهم بالواقع ، ولما  
 نودي بفيصل ملكا على العراق في تلك السنة كان يستدعيه  
 ويستشيره في الامور المهمة ، وقد رشح لاشغال بعض  
 المناصب العليا في اوائل ایام العهد الفيصلی ولكنه  
 كان يعتذر ويفضل الانقطاع للدراسة والتاليف الى ان  
 كانت سنة ١٩٢٤ وفيها عهد الى ياسين الهاشمی  
 بتاليف وزراته الاولى فابرق اليه وهو مقيم في النجف قائلا

انه يسره التعاون معه وان يشغل منصب وزارة المعارف في الوزارة الهاشمية .

### في مناصب الدولة

فتردد كثيرا في قبول الوزارة ولكن الحاج اصدقاته في بغداد والنجف اضطره الى القبول فاشغل منصب هذه الوزارة فترة لا تزيد على سبعة اشهر ، ولما عرضت اتفاقية النفط على مجلس الوزراء وكانت من الاتفاقيات المجنفة بحقوق العراق اقترح تعديل بعض بنود الاتفاقية على اساس يكفل للعراق في زيادة العوائد المالية فلم يجد من يعده . وفي جلسة خاصة بينه وبين الهاشمي ساله عن موقفه الاخير من الموضوع فقال الهاشمي ان ابرام هذه الاتفاقية من واجب وزارته . وعلى اثر ذلك غادر الجلسة وذهب الى مكتبه في ديوان الوزارة وبعث بكتابه الذي يستقيل فيه من الوزارة لانه يرى ان الاتفاقية مجنفة بمصالح العراق . وقد تقلد الشبيبي منصب وزارة المعارف خمس مرات وان لم تكن مدة الاستئزار طويلة فيها ففي سنة ١٩٢٤ تقلدها كما قلنا اول مرة ، وتقلدها مرة ثانية سنة ١٩٣٥ وثالثا سنة ١٩٣٨ ورابعا سنة ١٩٤١ وخامسا سنة ١٩٤٨ واختير سنة ١٩٢٥ عضوا في مجلس الاعيان وانتخبه هذا المجلس رئيسا له سنة ١٩٣٧ وقد رشح في الانتخابات النيابية فكان عضوا في المجلس النيابي غير مرة وانتخب رئيسا للمجلس النيابي سنة ١٩٤٣ وامضى سنة في الرئاسة ثم اعيد انتخابه لرئاسة المجلس المذكور

سنة ١٩٤٤ ولكن استقال قبل انتهاء المدة بسبب دسائس استعمارية معروفة دبرت بليل.

هذا ومن يمعن النظر في سيرته الرسمية او السياسية منذ ان نشأت الدولة العراقية سنة ١٩٢١ الى اخر حياته تبدو له ظاهرة نادرة وهي ان تلك السيرة امتازت بكثرة الاستقالات والتخلی عن المناصب العليا التي تقلدها فقد استقال مرتين من منصب وزارة المعارف : المرة الاولى سنة ١٩٢٥ والمرة الثانية سنة ١٩٣٥ وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر في تخطيط سياسة التعليم وفي تنظيم شؤون المصلحة واختيار الموظفين واستقال ايضا من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ واستقال من رئاسة لجنة الترجمة والتأليف والنشر ومن عضويتها سنة ١٩٤٦ واستقال من عضوية مجلس النواب في اواخر سنة ١٩٥٠ مع من استقال من النواب وعددهم خمسة وثلاثون نائبا بسبب محاولة حاول بها بعض المرتزقة مس كرامة المعارضين في المجلس . وكان لهذه الحادثة اثيرها البالغ في الخارج والداخل على حد سواء . وهذه كما قلنا ظاهرة نادرة اذا ما استطعلينا اسرارها تبيين لنا انه كان محاطا بشبكة من دسائس المستعمرين واذنابهم ، فكان لا يقر لهم قرار اذا تقلد او اشغل منصبا عاليا من مناصب الدولة لأن الاذناب ومطالي الاستعمار اعداء الخدمة الصحيحة واكبر خصوم للاصلاح رهما كما لا يخفي غايته القصوى من تقلد وظائف الدولة في جميع الاحوال . وكانت آخر استقالة له ، استقالته من رئاسة المجمع العلمي العراقي قبيل وفاته .

## في المناصب العلمية

وانتخب الشبيبي في كثير من المؤسسات والجامعات العلمية واللغوية داخل العراق وخارجه . فهو عضو نادي القلم العراقي(١) ورئيسه نحو من عشرين سنة ورئيس المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٨ الى ان تخلى عن رئاسته لأسباب معروفة . وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة تقديراً لبحوثه في الأدب والتاريخ وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٢٣ كما انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة وذلك في او اخر سنة ١٩٤٧ وبارح العراق الى القاهرة واشترك لأول مرة في المؤتمر اللغوي الذي عقد في اول سنة ١٩٤٨ . واقيمت له حفلات في القاهرة منها حفلة استقباله في المجمع اللغوي ، وللأستاذ عباس محمود العقاد في هذه المناسبة خطبة معروفة كما ان

١ - انشيء هذا النادي - نادي القلم العراقي - ببغداد سنة ١٩٢٤ وقد نصت المادة الثانية من نظامه الأساسي على ما يلى : ( تعارف المؤلفين وهمة الأقلام واحكام الروابط بينهم وتعزيز الأدب العربي . وتعزيز البحث وایجاد الصلات بين حملة الأقلام في العراق وآثائهم في البلاد العربية ) . وقد اتمنى الى النادي اشهر حملة الأقلام والصحفيين في ذلك التاريخ وواجب اعضاوه على عقد جلساتهم والقاء البحوث والمحاضرات وقد اختلف اكثر من مرة بضيوف العراق من ادباء الاقطار العربية وتالت من بحوث اعضائه ومحاضراتهم اكثر من مرة مجموعة نشرت منها المجموعة الاولى سنة ١٩٣٨ بعنوان (مجموعة نادي القلم العراقي ) . وقد اعتبر النادي كغيره معملاً بموجب مرسوم تعطيل الاحزاب والنواب والجماعيات الصادر سنة ١٩٥٨ ولم يتقدم احد من اعضائه بطلب لاستئناف نشاط النادي منذ ذلك الحين .

للسبيسي خطبة فيها ايضا ، ومن المحاضرات التي القاها في المؤتمر اللغوي محاضرة موضوعها ( النهضة الادبية الحديثة في العراق ) وقد لخصتها بعض الصحف المصرية وعلقت عليها . واقامت له كلية دار العلوم المصرية حفلة استقبله فيها الاستاذ ابراهيم مصطفى بخطاب ضاف والقى فيها محاضرة عنوانها ( اقدم مخطوط وصل اليانا في وصف جزيرة العرب ) وكان لها وقع بالغ في نفوس الحاضرين . وفي هذه الحفلة القيت قصائد وخطب ترحيبية .

وهكذا لم يتختلف عن شهود دورة من دورات مجمع اللغة العربية منذ انتخابه عضوا فيه الا مرة واحدة . ولما الغي المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٣ وخلفه المجمع الجديد انتخب عضوا فيه ورئيسا له ولوحظ ان المجمع اخذ يجتاز بعهد رئاسته مرحلة من مراحل النشاط والاضطلاع باعباء المهام المطلوبة منه ، وقد اخرج جزءا جديدا حافلا بالبحوث من مجلته الخاصة . وظل في رئاسته الى ان استقال منها قبل وفاته ب أيام . وقبل انتهائه الى جوار ربه كان يشارك في احتفالات الاسراء في المسجد الاقصى ، وفي عودته استقبل في بغداد استقبلا يعز نظيره . وكان هذا الاحتفاء آخر احتفاء يقدمه له الشعب في حياته اذ قضى نحبه في نفس الليلة التي عاد فيها وذلك ببغداد في الثالث من شعبان ١٣٨٥ والمسادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٦٥ .

## الهجرة العربية الى الشرق الاقصى

### هجرة مجهولة من العرب ولديها مجهول منهم

اشتهر الادب المجري اللبناني اشتهراء بعيداً ودوى في تاريخنا الادبي دوياً شديداً . ونبغ فيه متفوقون سواء في الشعر او النثر سيظلون ابداً من انصع الكواكب في آفاقنا الادبية قديماً وحديثاً . وحسبنا ان نعدد منهم في الشعر : الشاعر القروي والياس فرات وليليا ابو ماضي ، وفي النثر جبران وامين الريحاني .

والشعر المجري اللبناني لا يحتاج الى تعريف ولا تنقصه الشهرة وبعد الصيت ولكن هناك ادباء مهجرياً عربياً آخر حمله فريق من مهاجري العرب الى منائهم البعيدة ومهاجرهم القصية لم يكتب له من الذیوع والانتشار جزء مما كتب للادب اللبناني . بل يمكن ان نقول انه لم يعرف اصلاً في اوساط العرب وديارهم ولم يقرأ في نواديهم ومعاهدهم اذا استثنينا قلة قليلة ، بل افراداً معينين وقعوا على هذا الادب صدفة او لظرف معين ومناسبة محدودة .

هذا الادب هو ادب الهجرة الحضرمية<sup>(١)</sup> من جنوبى الجزيرة العربية الى الجزر الاندونيسية وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، واذا كانت الهجرة اللبنانية الى الامريكيتين هجرة جارفة حملت عشرات الالوف من مدارج صباهم ومنابت اصولهم الى بلاد العالم الجديد سعيا وراء الرزق

١ - قال رياض الرئيس يصف بعض مناطق حضرموت حين زارها في السبعينيات : وادي حضرموت يمتد كنهر كبير بين ضفتين من الجبال العالية المترامية . وسيؤون ( بفتح السين ) تقع في وسطه كمدينة اهملت التاريخ فتناسها . والى الجنوب منها تريم والى الشمال شبابام كانواها خرافيان وسط لا شيء الا واحات كبيرة من التخيل ونطحات سحاب عالية من الطين .

كل ما في غراف ( بضم الغين ) القرية الصغيرة التي تقع في منتصف الطريق تماما بين سبؤون وتريم ، يوحى بالوهم ، وتحس بعزلة محبيبة عن الواقع ، غليس فيها ما يربطك بالعالم الذي تعرفه .

وتحملك سيارة اللاندروفر عبر الوادي الاخضر المفتوح على نهر جف منذ ما يزيد على قرن . والنخيل هو الخبرة الدائمة ، والطريق بغراف ، القرية الصغيرة ذات الكهوف الطينية والبيوت الواطنة القليلة . وتدخل سبؤون عبر ممر من اشجار النخيل وكانت في حلم سينمائى افتولته هولابود وتلمع القباب البيضاء ، وتبعد سبؤون من بعيد واحدة من الالوان : البيوت خضراء وهمراء وببيضاء ، وزرقاء ، كلها زاهية . الشوارع ترابية مرصوفة ونظيفة ، والناس كانوا لا تعمل الا في البناء والزراعة . كل شيء في سبؤون من الطين والالوان . لا حجر ولا اسمنت . الشوارع فسيحة ترابية ونظيفة . والنظافة تلفت النظر في كل مكان وخاصة القادر من اليمن وعدن . فالهندسة صناعة محلية تقاد تكون اهم ما يميز حضرموت عن الجزيرة العربية كلها . والزراعة هي المرة والخضر ، هي مهنة الحضارة المقيمين الذين لم يسعدهم العظام بركوب البحر الى ابعد .

وتنطلع الى اعلى لترى البيوت الطينية ترتفع الى عشر طبقات او اكثر ، وتمتد كقصور من الف ليلة وليلة ، حولها حدائق خضراء وماء وفيها السوان والسوان .

وطلبا للثروة ، فكذلك كانت الهجرة الحضرمية من الارض الجديبة والوطن الفقير الى عالم التجارة والفنى والاخذ والعطاء .

واذا كانت الهجرة الاولى قد انتجت ادبها مهجريا كثيرا ،

فكذلك كانت الهجرة الثانية . ولكن الفرق بين المهرتين العربيتين ان الاولى كتبت لها الشهرة وطول الذكر وارخت في كثير من الموارد والمصادر ، بينما لم يكتب للثانية شيء عن هذا ، ولم تعرف ابدا ولم ينشر اليها بحال من الاحوال شيئا في ذلك شأن ادبها .

ولعلنا في هذه الكلمة نستطيع ان نرفع ستار عن بعض جوانب الهجرة الحضرمية ونزييل الحجاب عن شيء من نواحي ادبها فاتحين بذلك الباب امام الباحثين لا سيما من عانوا تلك الهجرة وتحملوا اعباءها او بالاحرى من ابنائهم واحفادهم .

## الهجرة الاولى

على انه لا بد لنا من القول ان الهجرة العربية الى اندونيسيا والشرق الاقصى كلها ذات شقيقين او ذات عهدين متبعدين ، هجرة بعيدة تعود الى تاريخ بعيد يصل الى العهد العباسي حيث هاجر فريق من العلوبيين طلبا للسلامة والامان فحل بعض احفاد علي العريضي بن الامام جعفر الصادق في جنوب الجزيرة العربية او لا ثم امتدوا منها حتى وصلوا الى الهند والصين وملايا واندونيسيا والفلبين وجزائر سليمان . وفي

المطليعة من هؤلاء كان احمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن الامام جعفر الصادق . هذا الذي رحل من العراق العام ٢١٣ وما زال يمضي حتى استقر في جنوب الجزيرة العربية . وربما لان هذا الرجل كان فاتح باب الهجرة . عرف في التاريخ باسم احمد بن عيسى المهاجر . واذا كان احمد هذا قد استقر في الجنوب العربي فان احفاده هم الذين انتشروا بعد ذلك في كل مكان من الشرق الاقصى حاملين معهم الاسلام ينشرونه حيث حلوا ..

قال : المقريزي في الخطط ( ج ١ ص ١٦ ) : « في جانب هذا البحر الشرقي مما يلي الصين ست جزائر ايضاً تعرف بجزائر السبلي نزلها بعض العلوبيين في اول الاسلام خوفاً على انفسهم من القتل » .

وقال المؤرخ الاندونيسي محمد تميم ابراهيم استاذ الدراسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي في جامعة جاكرتا من محاضرة له : « ان اول مملكة اسلامية هنا يرأسها شخص يلقب بلقب شيخ كانت بابدي العرب من الهاشميين » .

وقد ذكر هجرات العلوبيين الى جزر الشرق الاقصى كل من المستشرقين الهولنديين « فن دين بيرخ ، وفردين ميس » في كتاب تاريخ البلدان الجاوية « سجارة تانه جاوا » و « بيهمان » وكذلك نور الدين محمود عوفي . يقول فن دين بيرخ في كتابه ( حضرموت والمستوطنات العربية في الجزائر الهندية ) الصادر باللغة الفرنسية : « ان نجاح الدعوة الاسلامية في جاوا كان لان الدعاة كانوا من ذرية النبي .

ويقول نور الدين عوفي عن انتشار الاسلام في الصين :  
ان الاشراف العلوبيين هربوا الى بلاد الصين ونشروا  
الاسلام فيها .

ويذكر محمد تميم في محاضرته التي القتها في  
الندوة التاريخية في ميدان سومطرا الشمالية : ان الاشراف  
العلوبيين انتشروا في كامبودجا والصين وسيام وغيرها ،  
وان من الواضليين الى كامبودجا الحسين الملقب بجمال  
الدين الاعظم . وانه كان للحسين هذا ولدان ، احدهما  
ابراهيم ، وتقول الروايات الجاوية ان ابراهيم وصل  
مع ابيه الحسين الى سيام وجروا وتزوج  
اميرة من جامبا اسمها باناو ولاق فولدت له ولدين  
عليا واسحاق كانوا من انجح العاملين على نشر الاسلام ،  
وان اعظم نجاح لاسحاق كان في بانيو وانفسي .

ووصل العلوبيون الى الفلبين فاستوطنوها ونشروا  
فيها الاسلام ثم اقاموا فيها لاما واستمر حكم العلوبيين فيها  
حتى سنة ١٥٦٥هـ (١٤٨٥م) وقيل الى سنة ١٥٢١ حين  
هاجم الاسبان المسلمين وفشل السلطان عبد القاهر في  
صد هجومهم . وفي تاريخ الفلبين ذكر مجيء الشرييف  
اولياء بسفينة طافت في تلك الجزر لنشر الاسلام . وجاء  
في كتاب ( دراسات عن المسلمين المورو وتاريخهم )  
المطبوع بمانيليا سنة ١٩٠٥ ان مجيء الاسلام الفلبين  
كان بواسطة شريف علوي اسمه حسن بن علي من  
ذرية احمد بن عيسى المهاجر . وقد عمل هذا  
العلوي على نشر الاسلام اول الامر في جزائر ( يوایان )

الفليبينية فاسلم ملكها على يديه وانتشر الاسلام في (مينданا رمافينيدانا وسببيو وسولو وماندا بارو وتمبارا وليونغسان باكمبانيا ) .

وجاء في ذلك الكتاب ان هؤلاء العلوبيين كانوا اول من علم الاطلسيين هناك الكتابة العربية .

ولا تزال المقابر الاندونيسية تضم حتى اليوم قبور احفاد اولئك الرواد الاولى وقبور احفاد احفادهم . ولا تزال تلك الاجدات محجة للزائرين من كل مكان . ويمكن ان نعد منهم كلاما من مولانا ابراهيم المدفون في مدينة قرسيء بجاوا ومولانا حسن الدين المدفون في مدينة يانتن بجاوا الشرقية ومولانا هداية الله المدفون في مدينة شربون بجاوا الشرقية ، وهو ابن عبد الله المتوفى في كامبودجا بالهند الصينية . ومولانا زين العابدين المتوفى بمدينة دماك بجاوا الوسطى ومولانا رحمة الله المتوفى بمدينة دماك بجاوا الوسطى ومولانا رحمة الله الملقب بعين اليقين المتوفى في مدينة قرسيء بجاوا وكل هؤلاء ينتهي نسبهم الى احمد بن عيسى المهاجر . هذا المهاجر الذين نحسب انه اول من حمل هذا اللقب في العالم العربي كله .

على انه يبدو من بعض النصوص ان استقرار هؤلاء العلوبيين في الجزر الاندونيسية وشهرة مقامهم فيها قد حملت بعض الخائفين على التوجه اليها والحلول بين تلك الجاليات التي تناقلت وتكثرت ، وانه كان بين من نزحوا اليها احد احفاد الخليفة العباسيين المسمى عبدالله

والذي نجا بنفسه فرارا من مذابع المغول بعد سقوط بغداد على يدي هولاكو .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الهجرة العربية الكبيرة قد افطوت في غمار التاريخ ولم تترك لنا من اثر سوى أنها كانت من اكبر العوامل في نشر الاسلام في تلك الاقاصي وحسبه من اثر . وقد ذابت تلك الاصول العربية في المجتمع الاندونيسي وغير الاندونيسي من المجتمعات المجرية التي عاشت فيها وغابت ملامحها غيبة كاملة وعادت اندونيسية خالصة حتى في اسماء الاعلام ، وان ظل بعض رجالها يسلسل اباءه مبتداة باسمه الاندونيسي واسم أبيه وجده وهكذا حيث يعود الى الاسماء العربية . فهناك مثلا : ابوکو سنو حوكروسویو سو الذي ينتمي الى آل عظمه خان الى ان تنتهي السلسلة الى علي بن عبدالله بن احمد بن عيسى المهاجر (١) .

### الهجرة الاخيرة

ان تلك الهجرة لا تعنينا في بحثنا هذا وليس هي

١ - يمكن ان تعد من المهاجرين حسين بن احمد بن عبدالله بن عبد الملك بن علوى بن محمد صاحب مرياط بن علي بن علوى بن عبيد الله بن احمد المهاجر الذي وصل مع اولاده العام ٥٧٥ . وحسين بن احمد هذا هو المعروف من سلالة آل عظمه خان .

وكذلك جاء بعده محمد بن عيد آل عبيد المتوفى سنة ٩١٩ هـ الذي وصل اولاده اجيه في اندونيسيا . واما محمد بن عبد القادر آل عبيد المتوفى عام ٩١٥ هـ فان عقبه الذين وصلوا الى اندونيسيا موجودون الى الان في مدينة ( كوبان ) بجاوا الشرقية .

المقصود بهذه الكلمات . بل ان المقصود هو الهجرة الاخيرة التي انتبهت الادب العربي المهجري الشرقي في مقابل الادب العربي المهجري الغربي .

وليس بين ايدينا ما يحدد لنا التاريخ الذي بدأته فيه هذه الهجرة من الجنوب العربي الى جنوب آسيا(١) ، تحديداً دقيقاً ، ولكننا نستطيع القول استناداً الى بعض

— حدثنا هنا عن هذه الهجرة وحدها ، والا فان هجرة الحضارة كانت الى شتى البلاد وفي زيارة لمريض الرئيس الى حضرموت في المستينات جرى بينه وبين احد كبار المسؤولين حوار جاء فيه :

— ما هي المشكلة التي تشغل بالك حالياً ؟ وقال مجيباً : مشكلة اللاجئين الحضارمة الذين وفدوا الى الملا من افريقيا . عددهم يفوق العشرة الاف ، من العمال والبحارة والقراء . فالعمل قليل هنالنا ، والامكانيات ضعيفة ، والارض ليس عندها من الفنى ما يسمح لها باحتضان الجميع . انهم الحضارمة الذين ذهبوا بهم الرحال في الاتجاه الخطأ . فرسست سفنهم على شواطئ افريقيا ، بدل ان ترسو على شواطئ جنوب شرق آسيا مكان الفقر في افريقيا والفنى في آسيا .

ويكمل رياض الرئيس حديثه وهو يصف بلاد حضرموت متحدثاً عن الملا :

وخرجت الى شوارع الملا التي تقع بالناس اسأل عن مكتبة تبيع الصحف . فدلوني على واحدة وجدت فيها كل مجلة تصدر في العالم العربي وكل كتاب مؤلف لم اسمع به من قبل . ووجدتها اكتر الامكانة عملاً في الملا . صحف العالم كلها فيها ، من اندونيسيا وهونغ كونغ الى بيروت . ولما عرف صاحب المكتبة انني من لبنان ، ابتسם وقال : « نحن شعب نقرأ بهم ، ونسمع الى الراديو بهم اكبر ، لان هناك حضرينا في كل بقعة ، مثلكم ايها اللبنانيون ، بل ربما اكتر ، لأننا نحن ما زلنا على صلة بهم »

وعلى الشاطئ الرملسي كانت ثلاثة من الجنود الحفاة تأخذ التحية لركب شراعي كبير عليه عدد كبير من الناس يبحرون الى ارض جديدة — اذا بقي في العالم ثانية ارض — ليلقى عليها حموته ، فاما ان تنشر ، واما تعود بهم اكبغرقة صغيرة الى شاطئ الصدف والاسماك والرمال ، فلتلقى شباكها في فقر بيوت الطين . ويكون التاريخ قد اوقف المد وعزم الشراع .

المصادر ان اول فوج من المهاجرين "الحضارمة" خرج من موطنـه ، كان خروجه في اواسط القرن الثاني عشر الهجري . بل نستطيع ان نقول ان ذلك كان في حدود سنة ١١٥٠هـ وكان هذا الفوج مؤلفا من اربعة مغامرين هم : حسين القدرى الملقب بالحسنى وعثمان بحسن ومحمد احمد القدسى ومحمد بن حامد . وكان الدافع الاول لهم للهجرة هو السعى وراء العيش الكريم وبلغ النجاح ببعضهم ان تزوجوا بالاميرات بـنات السلاطين الاندونيسيين وكان المغرى الوحيد بهذا الزواج ان المهاجرين كانوا من سلالة الرسول ، فرأى السلاطين في تزويع بناتهم من هؤلاء الغرباء العلوبيـن شرفا لهم . ثم تطور الامر بعد ذلك فاذا ببعض ابناء المهاجرين واحفادهم يتولى الملك بنفسه لـان السلاطين رأوا في الاسباط المتصلـين بالنسب النبوـي ما يفضلون به الاحفاد غير المتصلـين بهذا النسب . وهكذا نجد ان من بين سلاطين سياك وفونتيانك وغيرهما من هـم من الـاشراف العـلوـبيـن اـبـنـاء واحـفـاد اـولـئـكـ المـهاـجـريـن .

على ان هذا التزاوج قد ادى الى ذوبان اعقاب المهاجرين في الوسط الاندونيسـي فلم يعودوا يـعرفـون بالـطـابـعـ العـرـبـيـ ولا باـسـمـ الاسـرـةـ العـرـبـيـ . اما الذين لم يقدر لهم مثل هذا الزواج فقد ظـلـواـ مـحـفـظـينـ حتىـ الـيـوـمـ باسمـ عـربـيـةـ لـاسـرـهـمـ وـهـمـ منـ سـنـرـىـ اـسـمـاءـ اـسـرـهـمـ فيـ الـاـتـيـ مـنـ القـوـلـ .

واذا كـناـ قدـ ذـكـرـناـ غـيـرـاـ تـقـدـمـ اـسـمـاءـ المـغـامـرـيـنـ الـارـبـعـةـ طـلـائـعـ الـهـجـرـةـ العـرـبـيـةـ فـلـاـ يـفـوتـنـاـ انـ نـذـكـرـ اـسـمـاءـ

اخري كانت في اوائل الماكمب المهاجرة ونستطيع ان نعد من ذلك مهاجري آل كثير والنهدي والبلحمر والبارجاء والعمودي وغيرهم .

قالت مجلة الرابطة الصادرة في جاوي ( سنة ١٩٣٠ ) وهي تنعى السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب الدين :

لقد هاجر في النصف الاول من هذا القرن من حضرموت الى الجهات الجاوية عشرات الالوف من الحضارمة ، منهم من عاد الى وطنه ومنهم من توفاه الله .

### آل الجفري

وابرز من خرج فيهم السيد عقيل بن زين العابدين الجفري الذي كان عالماً مرموقاً خرج من اندونيسيا الى تركيا ودخل جامعة اسطنبول ثم سافر الى اوروبا وكثير من بلدان اسيا واتصل بالكثيرين من عظماء العالم الاسلامي ، ثم صار من اقطاب السياسة الاندونيسية فقاوم الاستعمار الهولندي مقاومة شديدة ادت الى ان تعاقله السلطات وتسرجنه سنة ١٩٢٨ ثم صادرت املاكه وابادت مكتبه الكبيرة القيمة . ثم اطلقته فقيرا لا يملك شيئاً . وعاش حتى ادرك الاستقلال فكانت فرحته فيه فرحة تتناسب مع نضاله وتضحياته . وتوفي العام ١٩٥٢ عن عمر ناهز التسعين .

ويعتبر السيد عقيل من الادباء المؤلفين باللغة العربية . وقد ترك العديد من المؤلفات التي ظلت مخطوطة لصعوبة الطباعة العربية في تلك البلاد .

## آل الحضار

وابرز من خرج فيهم السيد محمد بن احمد الحضار المتوفى سنة ١٩٢٤ في مدينة سورابايا وهو عالم وشاعر يعتبر في طليعة شعراء المهاجر الاندونيسيين . وقد ترك ديوانا كبيرا وعدة مؤلفات . ولكنها ظلت كغيرها مخطوطة لم تطبع ولم تنشر . ومن آل الحضار ملوك وقضاة في جزائر القمر في افريقيا .

## آل يحيى

وابرزهم السيد محمد بن عقيل الذي يعتبر في وقته من اكبر علماء العالم الاسلامي واعظم رواد الاصلاح فيه . وكانت دار هجرته جزيرة سنغافورا حيث اسس فيها دعوة اسلامية اصلاحية امتدت حتى شملت اندونيسيا وغير اندونيسيا . وكانت طريقة هي انشاء الجمعيات وتأسيس المدارس ونشر الصحف ويمكن ان نعد جريدة التي نشرها في سنغافورة اول جريدة عربية في تلك المهاجر وكذلك جمعيته ومدرسته التي حرص على ان تكون مدرسة عربية اسلامية . وكان تأسيس الجمعية سنة ١٣٢٢ه وتولى رئاستها السيد احمد السقاف وكانت هي نواة جمعيات الاصلاح في البلاد الجاوية كلها ، ، وصارت مركزا عالما يقصده المثقفون ، بل كانت على حد تعبير احد الباحثين سببا لجمع شمل العرب الذي كان مفرقا . ثم اضاف الى ذلك اصدار مجلة عربية سماها ( الامام ) ، صدر العدد الاول منها في اول جمادى الثانية سنة ١٣٢٤ ( ١٩٠٦ ) وصدر اخر عدد منها في شهر ذي

الحجـة سـنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) . وقد سمى مدرسته مدرسة الاقبال ، ولم يكن من الميسور ايجاد مدرسيـن لها في المـهـجـر فاستدعاـت لها المـدرـسيـن من مصر . وـكـان تـأـسـيـسـها سـنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) ثم صـدرـت بـمـسـاعـيـهـ جـريـدةـ الـاصـلاحـ التـيـ لمـ تـعـمـرـ طـوـيلـاـ شـانـهـاـ فـيـ ذـلـكـ شـانـ مـجـلـةـ (الـامـامـ) اـذـ صـدـرـ العـدـدـ اـلـأـوـلـ مـنـهـاـ فـيـ اـوـلـ شـوـالـ سـنةـ ١٣٢٦ـ وـصـدـرـ آـخـرـ عـدـدـ مـنـهـاـ فـيـ ٢٤ـ ذـيـ الحـجـةـ سـنةـ ١٣٢٨ـ .

وـكـانـتـ هـذـهـ النـهـضـةـ العـرـبـيـةـ فـيـ سنـغـافـورـاـ مـدـعـاـةـ لـانـ تـقـومـ مـثـلـهـاـ فـيـ انـدوـنيـسـيـاـ وـبـلـدانـ جـنـوبـ آـسـيـاـ التـيـ كـانـتـ تـصـلـهـاـ مـجـلـةـ الـامـامـ وـجـريـدةـ الـاصـلاحـ فـتـأـسـيـسـتـ فـيـ جـاـكـرـتاـ جـمـعـيـةـ خـيرـ سـنةـ ١٣٢٤ـ وـتـأـسـيـسـتـ اـوـلـ مـدـرـسـةـ لـجـمـعـيـةـ خـيرـ فـيـ جـاـكـرـتاـ وـفـيـ فـلـمـبـاغـ بـمـسـعـيـهـ السـيـدـ عـلـيـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـانـ الرـحـمـانـ الـمـساـوـيـ وـالـسـيـدـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـانـ الـنـورـ سـنةـ ١٣٢٦ـ . كـماـ تـأـسـيـسـتـ مـدـرـسـةـ فـيـ سـوـرـاـبـايـاـ بـنـفـسـ السـنـةـ بـمـسـعـيـهـ السـيـدـ شـيـخـ بـنـ زـيـنـ الـحـشـيـ وـمـدـرـسـةـ فـيـ جـاـكـرـتاـ بـمـسـعـيـهـ السـيـدـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـلـيـ الـعـطـاسـ . وـكـلـهـاـ مـدـارـسـ عـرـبـيـةـ التـدـرـيـسـ اـسـلـامـيـةـ المـنـاهـجـ .

وـكـانـ اـبـنـ عـقـيلـ يـزـورـ انـدوـنيـسـيـاـ بـيـنـ الـحـينـ وـالـحـينـ لـدـعـمـ النـهـضـةـ فـيـهـاـ وـبـثـ الـاصـلاحـ بـنـرـجـالـهـاـ وـكـانـتـ اـخـرـ زـارـةـ لـهـ لـجاـواـ سـنةـ ١٩١٨ـ .

وـهـكـذاـ نـسـتـطـيـعـ انـ نـعـتـبـرـ السـيـدـ مـحـمـدـ بـنـ عـقـيلـ رـائـدـ نـهـضـةـ وـداعـيـ اـصـلاحـ وـمـرـبـيـ اـجيـالـ . وـاـذـ كـانـ قدـ قـدـرـ لـبعـضـ كـتـبـهـ انـ تـطـبـعـ خـارـجـ الـمـهـجـرـ فـانـ مـعـظـمـ تـلـكـ الـكـتبـ ظـلـ مـخـطـوـطاـ .

وقد عاد من مجده الـسي الـوطـن الـسـريـي فاستقر  
فترة في الحجاز سنة ١٣٢٩ ثم انتقل إلى الجنوب  
سنة ١٣٤٠ فسكن الملا(١) وعاود الدورة إلى الاصلاح

١ - قال رياض الرئيس وهو يصف بلاد حضرموت متحدثاً عن الملا :  
شباك كثيرة ، ومراتب قديمة راسية ، وصيادون واسرة ممزقة  
وطريق بيته نهر عبر منحدر جبلي ضيق ، وشاطئه واسع كله  
جبال وسوار وناس ، وناس ، لعلهم تجار أو بحارة أو ربما قراصنة .  
كان هذا هو الدخل إلى الملا ، نافذة حضرموت المفتوحة على العالم  
كل ما فيها يوحى بالحركة ، وكل ما فيها كانه ذكرى من ذكريات .

والطائرة لاتصل من عدن إلى الملا . فلا بد أن تهبط في الريان ،  
وهي قرية صحراوية على مشارف الملا من الداخل . وانتظرنا في شمس  
الريان المحرقة بعد طيران أكثر من ثلاثة ساعات في طائرة الداكتا  
المقديمة ، أن يتراجع المد ويصبح من الممكن لسيارة اللاندروفر ان تمشي  
بمسافة الشاطئ في ساعات الغزو حتى تصل بعد ساعة ، اذا لم  
تفصل في الرمال او تلف احدى عجلاتها ، إلى طريق الملا الضيق .

واقفلت السيارة براكبيها اليـيمـين ، أنا وزميل اجـبيـي ، على  
الشاطئ الاستوائي وهي تفوح نارة وتقف نارة لاصلاح ما افسده  
الحر من محركها ، او حطمته الرمال في عجلاتها ، مروراً فوق الاف  
الاسماك الملونة المقوية التي تركها المد على الضفة قبل ان يرحل ،  
وحلوها تموج منات السلاحف الكبيرة الجميلة لتنتميـها ، وطيور البحر  
تضرب زجاج نافذة السيارة بالاجنحة والقوارب الفارقة ترسو بعيداً عن  
الشاطئ وقد سحبها المـدـ معـهـ ، فتعلقت بالشباك التي تركها الصيادون  
على الرمال . وتنطل الملا من فوق الطريق الذي سـدـ بالصخور حتى  
يلوح في نهايته شارع ضيق كلـهـ بيـاضـ مـفـتوـحـ علىـ الـبـحـرـ ، كرصيف طويـلـ  
لـمـنـاءـ كـبـيرـ وقد تكتـسـتـ اـكـواـمـ الـاخـشـابـ والـبـضـائـعـ فيـ كلـ مـكـانـ حتـىـ لمـ  
يـعـدـ مـكـانـ لـلـمـشـاةـ ، واختـلـطـتـ اـشـكـالـ الـمـوجـهـ الفـرـيقـةـ بعضـهاـ معـ بعضـ  
فيـ الجوـ ، فلاـ وجـهـ واحدـاـ يـشـكـلـ طـابـعاـ لـلـمـدـيـنـةـ .

ومن الملا يـبعـدـ العـضـارـمـ الـسـيـ الـعـالـمـ ليـجـمـعـواـ ثـروـاتـ وـيـبـنـواـ  
امـجـادـ ، وـيـعـودـواـ بـحـضـلـارـ وـعـادـاتـ تـنـدـمـجـ فيـ بـيـتـهـ وـتـرـاثـهـ ، وـمـنـ شـمـ

السياسي والديني والاجتماعي منقدا الوضاع القائمة نقدا صريحا مما اثار الفضيحة عليه شأن كل مصلح وفي سنة ١٣٤٧ انتقل الى عدن فكان شأنه فيها

نكاوع في ارض غريبة لثبت اهليتها وفرديتها وخصائصها . فالحضارمة المهاجرون أكثر من الحضارمة المقيمين ، والمسافر منهم يغسل المقيم ، والثروة الوحيدة هي ثروة الهجرة .

من اندونيسيا الى سنغافورة الى الملابي ، حيث اسسوا دولا وممالك ، حتى الهند وسيلان في آسيا . ومن زنجبار وكينيا وتنجيانيقا والحبشة والصومال في إفريقيا ، كان مد الحضارمة ينتفع الى جنوب الجزيرة العربية ، ومعه اموال ، ليبني . وتحتول الرمال في بلاده الى ناطحات سحاب من الطين ، وينقل من الشرق الاقصى وافريقيا التوابل والخشب والحرير والقصب . ولا يحمل معه من الجزيرة الا الاسلام ، فيعطيه لاندونيسيا والملابي وزنجبار ، « نحن فاشلون في بلادنا ، وناجعون في الخارج .. » ، كانتعليق رفق حضرمي في الملا للاظظي على بدائية تفريح البفائع من السفن في الملا ، مع وجود عشرات من الحضارمة العاطلين عن العمل .. ولكن يبدو ان المد الذي ركبته الحضارمة عاد بهم من الشرق الاقصى وافريقيا الشرقية . وكانت اندونيسيا وقد توقفت ثرواتهم فيها وتعطلت اعمالهم في عهد سوكارنو . وكانت الهند وفقرها ، وقد جفت ينابيع الخير فيها . وكانت زنجبار وثورتها حين ذبح الافارقة العرب ، وكانت كينيا وقد فرضت قيودا على غير الافريقيين . وعاد الآلاف من الحضارمة وخاصة من افريقيا الى الوادي الاخضر دون مال ولا عمل ليعايشوا الفقر من الاول .

وبعدات هجرة ثانية : الى السعودية . الى الكويت . الى الخليج العربي . فثمة اليوم ٢٥. الف عائلة حضرمية في السعودية وحدها ، ترسل في الشهر ١٠٠ الف جنيه استرليني الى البلاد . ونصف هذا العدد في بلدان الخليج العربي .

ودخلت السياسة لتفسد . واصبح بهم الحضارمة التجار ان يرفضوا ما يحل لهم في الدول التي لهم تجارة فيها . ووقع المراكع . فإذا اغضبوا السعودية ، يا ولهم . وإذا اغضبوا اندونيسيا يا ولهم ، وإذا اغضبوا سنغافورة والملابي ، فما ولهم ايضا . اذن ، لم يمشوا على الحبل بمهارة .

شأنه في المكلا ثم انتقل من عدن الى الحديدة سنة ١٣٤٩  
وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٣٥٠ .  
وكان السيد محمد بن عقيل معروفا في العالم الاسلامي  
كله ولما توفي رثاه شاعر من بلاد الشام بقصيدة طويلة  
مطلعها :

سالت دموع العين كل مسيل  
حزنا لفقد محمد بن عقيل

### آل الحداد

نبغ من هذا البيت العديد من العلماء والشعراء منهم  
العالم الشاعر السيد عبد الله بن علوى الحداد الذي ظل  
ديوانه كغيره مخطوطا لم يطبع .

### آل السقاف

ومن هذا البيت ايضا خرج العلماء والشعراء كالسيد  
احمد بن عبدالله السقاف والسيد ابن عبيد الله . والاول  
منهما كاتب بارع وشاعر مجيد ومن اعرق الناثرين على  
الاستعمار الهولندي وله في هذا المضمار الكفاحي الكثير  
من الشعر الحماسي المثير لا سيما في اول الحركات  
التحررية سنة ١٩١٠ . واذا كان معظم شعر بقية  
الشعراء المهجريين لم ينشر حتى في الصحف بل ظل مخطوطا  
في الدواوين مقرأ في المنتديات فان شعر هذا الشاعر كان له  
من الحظ اكثر مما كان لغيره اذ نشر الكثير منه في الصحف  
والمجلات العربية التي كانت تصدر في المهر ، ولكن  
لم يجمع في ديوان مطبوع .

## آل العطاس

ينسبون الى جدهم الاكبر السيد عمر بن عبد الرحمن العطاس ، المتوفى بحريةة حضرموت سنة ١٠٧٢ هـ ومنهم السيد عبدالله بن علوي العطاس الذي نشر الاسلام في بورما والهند وغيرها . المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ .  
ومنهم السيد سالم بن احمد الطعاس الذي تولى الافتاء في جهور (الملايو) مدة خمسة وثلاثين عاماً المتوفى سنة ١٣١٣ هـ ومنهم السيد عبد القادر بن محسن العطاس الذي تولى كذلك الافتاء في جهور مدة ثلاثين عاماً وتوفي سنة ١٣٤١ . و منهم السيد عبد الله بن عبد الرحمن العطاس الذي تولى القضاء في سنغافورة مدة عشرة اعوام ، المتوفى سنة ١٣٥٥ باندونيسيا .

## آل جمل الليل

ومنهم السيد محمد بن عيدروس الحبشي المتوفى في سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤ هـ .

## آل حبشي

ومنهم السيد محمد بن عيدروس الحبشي المتوفى في سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤ هـ .

## آل الكاف

وهم اللذين كانت لهم الايادي البيض في بناء المساجد والادارس . وقد سكت لهم نقود تحمل اسمهم ، وكان يتعامل بهما في حضرموت .

## آل شهاب

نبغ الكثيرون من رجال هذا البيت ويعتبر السيد علي بن احمد بن شهاب من ابرزهم ، كان من الكتاب المؤلفين ولكن مؤلفاته ظلت هي الاخرى مخطوطة . وهو من المكافحين للاستعمار الهولندي ومن اركان الحركة التحررية وابرز زعمائها . وكان هو الداعي الى تأسيس جمعية خير سنة ١٩٠٧ كما كان عضوا في الحزب الاسلامي الاندونيسي ( شركة اسلام ) وفي العام ١٨٨١ هوجم اجتماع وطني كان يرأسه فساقته الشرطة الهولندية الى السجن حيث قضى فيه فترة ، وبعد خروجه من السجن ساح في البلاد الاسلامية فزار تركيا ومصر وسوريا ثم ادى فريضة الحج ، ثم عاد الى اندونيسيا متابعا الكفاح الاستقلالي وظل حيا حتى دخول الجيوش اليابانية الى اندونيسيا ، ثم توفي سنة ١٩٤٥ في اواخر العهد الياباني عن عمر ناهز الخامسة والتسعين .

## ابو بكر بن شهاب

من هذه الاسرة خرج العالم الشاعر المؤلف السيد ابو بكر بن شهاب . وهو الشاعر الذي نريد ان نتخذه منه نموذجا للشعر المهجري العربي الشرقي لانه الوحيد الذي طبع ديوانه من بين شعراء المهر الشرقي .

ولد ابو بكر بن شهاب سنة ١٢٦٢هـ بقرية

حسن ال فلوجه احد مصايف تريم(١) من بلاد حضرموت

١ - قال رياض الرئيس مواصلا وصف بلاد حضرموت متابعا رحلته من سيليون الى تريم :

وانطلقت سيارة اللاندروفر في حر بعد الظهر عبر الطريق المرصوف في الوادي البنسي اللون الاغبر الجاف . وكانت تريم في الجانب الآخر تسبح في واحة من التخييل والالوان والماء . وكانت الكثيري فيعزها واذا بتريم مدنه مسورة ، بابها ضيق ، ومن خلف السور الطيني تطل ناطحات السحاب الطينية ، ومعها مآذن على مدار النظر . وامام الباب احتشد جم من الناس وقد علت اصواتهم واختلطت باطبلان الرصاص في الهواء وقد مشى امامهم فتیان يحملون حرابا على راسها مالسم اتبشه من بعيد .

وسالت رفيق الطريق الحضرمي ، فقال هؤلاء الناس قد عادوا من صيد الغزلان ، وقد حملوا رؤوسها على الحراب ، وهم يطلقون الاهازيج بين كل وقفة ووقفة ، انه تقليد من تقاليد الصيد ، وصيد الغزلان عندنا فن قديم .

ودخلنا الباب وراء الجماهير ، فإذا نحن في ساحة كبيرة خلفها جبل كبير وقد القص السور وجدرانه الثلاثة به ، وكان هو العدار الرابع . ووسط الساحة مقابر ذات شواهد قصيرة وكانتها مجسمة تعرف صفيرة صفت بشكل هندسي انيق في واجهة متحف من المتألف .

لعل هذه المقابر وجدت قبل تريم ، وبعضاها منذ ايام العميريين . اجرمال وراء اجيال تدفن هنا في وسط البلدة : قالها رفيق الرحلة الحضرمي المولود في سنفورة ومن اكبر عائلات حضرموت واغنائها .

وكانت جموع الصياديين والناس قد اختفت من الساحة وتوزعت في الازقة الترابية الضيقة . واذا بتريم تختلف عن سيليون وشبيام . انها مدينة حدائق مسورة : داخل السور الكبير ، اسوار صفيرة تدور حول قصورها وعماراتها المترفة ، واذا بالجو ، جو اوبيستوغرافي بعيد عن التجارة والماضية والاسواق التي تملأ سيليون والملا .

واثارتني كثرة المآذن ، فسألت رفيقي الحضرمي السيد يعقوب الكاف عن كل هذا ، فقال : في تريم ٣٦٥ مسجدا . كل يوم من ايام السنة لمسجد . فافتباخ حضرموت كانوا يتذرون بعد موتهم ببناء مسجد على ارواحهم ، بدلا من ان يبنوا مدارس ومستشفيات . اما اليوم وقد

وتوفي سنة ١٣٤١ بحيدر اباد الدكن من بلاد الهند . وكانت هجرته الاولى من بلاده الى الحجاز سنة ١٢٨٦ وهذه الهجرة كانت لطلاب العلم حيث اخذ عن علماء الحجاز لا سيما السيد احمد بن زيني دحلان ثم عاد الى تريم واقام بها حتى سنة ١٢٨٨ حيث هاجر الى الشرق الاقصى هجرة امتدت اربع سنين كانت جل اقامته فيها باندونيسيا في مدينة سورابايا من مدن جزيرة جاوا مشتملا بالتجارة ثم عاد الى وطنه ولكن لم يستقر فيه بل عاود الهجرة سنة ١٣٠٢ مفتاحا هجرته بسياحة في عدن ولحج والجاز ومصر وسوريا وفلسطين ثم في الاستانة ، واختتم سياحته بالحلول في مهجر جديد هو مدينة حيدر اباد الدكن في الهند ، ولكنه ظل دائم التردد الى اندونيسيا . وفي العام ١٣٣١ عاد الى وطنه

اتفق عدد الجماع مع عدد ايام السنة ، فنرجو ان يبدأ بناء المدارس والمستشفيات .

وصلنا الى منزل الدليل ، فإذا به قصر من قصور الالكاف . وتعبر البوابة الخارجية فإذا قطعه من الشرق الاقصى ، وتمر الى الحديقة ، وإذا بها جزء من الملايو او سنغافوره . كل شيء اخضر ، وكانك في غابة استوائية . واصطفت مائدة طويلة ، فيها من انواع الشراب والمرطبات والاطعمه ، وكانك عند سلطان من سلاطين ماليزيا ، اضيفت اليها كل اللمسات العربية الجميلة ، فاختلطت حضارتان في الطريق الى المعدة . وأكلنا وشرينا وتحدثنا .

وسقطت الشمس وراء السور الكبير ، وبدأت النساء في العباءات البرتقالية والبراقع السوداء ينسحبن الى بيتهن من الحقول ، ولمعت انوار المأذن الكهربائية كمنارات على شاطئه مهجور ، وتحولت تريم بعد المفيف الى مهرجان من الالوان الارистوقراطية ، وبدت سيلون في الطرف الآخر من الوادي كأنها خرافه . وكانت سلوفون وتريم .

مصطحبا عائلته بعد هجرة استمرت نحو ثلاثين سنة، وترك اسرته في الوطن وعا دالى المهر سنة ١٣٣٤ ليقطع ما تبقى من علاقته ثم يعود الى الوطن ولكن لم تكتب له العودة حيث قضى نحبه في ديار الغربة .

### شعره

لن نجد في الشعر المجري الشرقي ما نجده في شعر المهر الغربي من تجديد وتطوير ، بل ان الشعر الشرقي هو امتداد للشعر العربي القديم بكل خصائصه وكل موضوعاته ونحن حين نعرض لشاعر هذا الشاعر لا نطبع ان نجد فيه اكثر مما نجد في شعر اي شاعر تقليدي من شعراء العرب . وكذلك يمكننا ان نقول نفس القول فيما وصلنا من شعر غيره من شعراء المهر الشرقي . فالغزل والمدح والرثاء واحيانا الهجاء هي قوام هذا الشعر . والتعابير والالفاظ والمعانى هي نفس ما عرفناه في كل شعر قديم . ومن العجيب ان الانفعالات العاطفية التي اثارتها الغربة في شعر شعراء المهر الامريكي فنظموا في الحنين الى بلادهم شعرا هو بان يوصف بأنه عبرات وزفرات وتؤوهات اخرى من ان يوصف بأنه الفاظ وكلمات . ان هذه الانفعالات التي اشتغلت عليها احيانا قصائد كاملة في شعر الشاعر القروي والياس فرحت وليليا ابى ماضى وغيرهم ، ان هذه الانفعالات مفقودة في شعر المهر الشرقي فيما وصل اليها منه . كما ان الابداع الذي تجلى في شعر المهر الامريكي هذا الابداع الذي رفع الشعراء الثلاثة المقدم ذكرهم الى اعلى قمة في شعرنا العربي في القديم

وإذا كانت الانفعالات العاطفية مفقودة — كما قلت —

في الشعر الشرقي فذلك لا يعني ان اصحاب هذا  
الشعر لم يحنوا شعرا الى اوطانهم . ولم يتواهوا  
في غربتهم شوقا الى ديارهم . بل هم فعلوا احيانا ذلك .  
ولكنه كان انفعا لاعبرا من قصيرا خلال القصائد الطويلة .  
فتشاعرنا ابو بكر بن شهاب مثلا ينظم قصيدة من اطول  
القصائد يتحدث فيها عن علي بن ابي طالب فـ مثلا  
يكون فيها من الحين والاشارة الى الغربة الا  
بيتان اثنان :

الا ليت شعري والتمني محب  
الى النفس تبريدا لحر اوامها  
متى تنقضسي ايام سجني وغربتي  
وتتحل روحي من عقال اغتمامها

ولكن هذا الحنيف لم يكن الى حصن آل فلوقه  
مسقط راس الشاعر ولا الى تريم مراح صباحه ولا الى  
حضرموت مدرج هواه . بل الى بلد اخر غير هذه البلاد .  
الى بلد يعتبر هموطن الروحاني ؛ فاذا حن غيره  
من الشعراء الى مواطن اجسادهم فان هذا الشاعر  
انما يحن الى موطن روحه الى النجف :

وهل لي الى ساح الغربين زوره  
لا ستافريا رندها وشامها

وانى على ناي الديار وبينها  
وصدع الليالي شعبنا واحتكمامها  
منوط بها ملحوظ عين ولائها  
قريب اليها مرتو من مدامها  
ولكن ليس هذا كل ما في شعر الشاعر من حنين ،  
فإذا كان في القصيدة السابقة قد حن إلى وطن الروح  
ف فهو هنا يحن إلى وطن الجسد ، يحن إلى حضرة موت  
وترى :

ويبلغ به الحنين في الهند حدا ينطّقه بأكثَر قصائد  
عاطفة واحرها شوقا :  
يا ايها الراكب الفادي الى بلد  
جرعاوه خصبة المرعى وابرقه

ناشدتك الله والود القديم اذا  
 ما بان من بان ذاك السفع مورقه  
 ان تستهل صريحا بالتحية عن  
 باك من البعد كاد الدمع يغرقه

يثير اشجانه فروح المصبا سحرا  
 وساجع الورق بالذكرى يؤرقه  
 له مؤاد نزوع لا يفارقه  
 حر الغرام وجفن ليس يطبلقه  
 بالهند ناء اخي وجد يحن الى  
 اوطانه وسهام البين ترشقه .

### الفرق بين الشعرين

والفرق بين هذا الشعر وبين شعر المهر الامريكي ان  
 الثاني لا يوري عن بلاده بالجرعاء والابرق وما اليها  
 من اسماء عربية ليست هي المقصودة بالشعر ولا هي  
 مكان الحنين ، بل هي مواطن لا يعرفها الشاعر ولا  
 يشتقها ، وانما هي منازل لقوم من العرب تغنو بها  
 في القديم ، فكان من الشاعر الحديث ان حذا حذوهم بذكرها  
 معبرا بها عن ارضه ووطنه . واذا كان لم يصرح باسم  
 البلد الذي يشوقه فانه قد صرح باسم البلد الذي يحن منه  
 الى بلده ، واعلمنا انه الهند . لو لا ذلك لما كان من فرق  
 بين هذه الابيات وابيات لشاعر عربي قديم يذكر جرعاء  
 الحمى والابرق . عاى العكس من الشعر الامريكي  
 الذي يسمى الاماكن باسمائها ، ثم هو يعبر عن حنينه

تعبيرا لا يدنو في شيء من تعبير القدمين ولا من  
اساليبهم ولا معانيهم .

### تبرير الهجرة

وهذا المشوق في الهند الى بلده يبرر الهجرة ويعين  
اسبابها ، ويرى انه ما دام المقام في الوطن مداعاة للخمول  
والاهتمام فلا بد من الرحيل عنه الى اقصى مكان :

تلك السبيل الى الفخار فان ترد  
ادراكه فمدع الربوع وعادها  
وارحل فان العجز شر مصاحب  
عجل وطا في السير شوك قتادها  
واخطب عذارى المجد في آفاقها  
واشهد مواسمها على ميادها  
هل في القضية ان اقيم ببلدة  
يخشى الكرام بها اذى او غادها  
في الارض متسع لحر نفسه  
عصماء يأمن مستحيل كمسادها  
فسنام اي الارض اذهب منزلي  
ولي الندامى الغر من امجادها  
ويكرر هذا المعنى فيقول :  
واذا ما الكرييم آنس ذلا  
في بلادفليعن بالارتحال .

ولكن هل شفت الهجرة آلامه وابلغته مرآمه حين  
ترك وطنه خوف الهوان او اذى الاوغاد ، وهل وجد

في الارض متسعا لنفسه الحرّة العصماء : وهل لقى  
الندامي الفرّ الذين تحدث عنهم ؟ انه هو يجيئنا عن  
ذلك بعد ان مضى هلى هجرته تسع سنين :

غرية في ديار من ليس جنسى  
جنسهم والمقال غير المقال

سمت فيهم نفيس علمي فلم ينفق  
وقد قرظتهم بسحر حلال  
وبمحض العفاف صار كتابي  
مستعارا وصفنا نقلي نعالى  
ذهبت حكمتي ضياعا وشمسى  
في استئثار عزتى في ابتذال  
فيهم قد قضيت تسعه اعو  
م اذا بت نفسى وعمري ومالى  
ثم تزداد الالم تفجرا فيقول :  
ومن عجب انى نزيل ببلدة  
شمائل اهلها الحماقة والدعوى  
الى الله اشكو غربتى بينهم فما  
الى غيره من مثلهم تنفع الشكوى .

ثم تتراءى له في الذهن او طانه بعيدة لا سيل لها  
الوصول اليها فيقول :  
كيف السبيل الى اللقاء ونحن في  
رق الزمان وربما لا يعتنق  
اترى زمان السوء يسمح لي بما  
ارجو فتسرى بي اليك الاينق

لابثك الشكوى وتعلّم انتي  
دتف وشمالي بالبعاد ممزق

وأين هو من النوق في عصر البخار ، فليس النوق  
هي التي يمكن ان تسرى به من اندونيسيا او من الهند  
الى حضرموت وانما هي البوادر الجواري كالاعلام ،  
ولكن الشاعر المتأثر بالقديم لا يستطيع التخلص  
عن قديمه ولا التخلص عن الاحتذاء حذوه حتى فيما  
تستحيل عليه فيه رؤيته ، فكيف بان يكون وسيلته ..

### سنفافورا

وفي كل ما نظم الشاعر لم يذكر اسما من اسماء  
منازله في المهر ما عدا ما رأينا من ذكره للهند ذكرا  
عابرا لا دلالة فيه على شيء سوى انه نزيلها . على  
انه يخص جزيرة سنفافورا بقصيدة يحييها بها ويحيي  
نازليها من مهاجرة العرب :  
**مدينة سنفافورا حين تبدو**

معالها ترى السوح الرحيبا  
فتحيابها الحيا الوسمني حتى  
يفادر سفحها ابدا خصيبا  
تصور لا يلم بها قصور  
**ودور بالبدور نفحن طيبا**  
ولم تسمع اذا ما طفت الا  
حمام ساجعا او عندليبها  
وبالعرب الكرام الساكنيها  
من المجد اكتسبت بردا قشيبة

وجوه بالمكان مسافرات  
 سمت عن ان ترى فيها شحوبا  
 اذا عض الزمان لهم نزيلا  
 من الدهر استقادوا ان يتربوا .

وتبدو هذه القطعة من اثمن ما في شعر الشاعر من حيث تسجيلها للهجرة العربية تسجيلا شعريا يحدث الاجيال القادمة عما كان للعرب من الشأن في تلك الجزيرة القصبة ، التي يبدو جليا من الشعر ان العرب فيها كانوا من الكثرة وكان لهم من الاثر بحيث صح للشاعر ان يتحدث عنهم كجزء بارز في تكوين سنفافورا الاجتماعي . وبالرغم من ان الحديث في هذا الشعر عن سنفافورا حدث مجمل عام ولا دلالة فيه على مكان معين وطبيعة معينة ، ولا وصف فيه لتحسس نفسي مثير ، فان مجرد التأثر بسنفافورا وابراز هذا التأثر في الشعر يكسب هذا الشعر طرافة ويجعل منه وثيقة ادبية ثمينة . وفي مثل هذه القطعة يبرز الفرق ايضا واضحا بين شعر المهر الغربي وشعر المهر الشرقي ، فالشعر الغربي في مثل هذا الموضوع يعني بالتفاصيل ويحدد لك المكان تحديدا واضحا ويحدثك عن كل جزء من اجزائه وكل بقعة من بقائه ، في حين ان الحديث هنا اقتصر على الاشارة الى السوق الرحيبة والقصور والدور ، والسوق الخصبية ، وعلى الدعوة بان يحييها المطر لتظل ابدا خصبية .. ثم انتقل فجأة الى العرب الساكني سنفافورا والتبااهي بهم والاشادة بخلالهم .

و اذا كان الامر كذلك فلان ما يثير الشاعر العربي الغربي هو غير ما يثير الشاعر العربي الشرقي ولان ما شاهده مثلا وعاشه جورج صيدح على شواطئ فنزويلا فانطقه بالشعر الجميل . لم يشاهد مثله ولا يمكن ان يشاهد مثله فضلا عن ان يعيش ابو بكر بن شهاب الفقيه الجليل ، ولان ما تعمد ان يقصده ويستمتع به شاعر المهر الفنزويلي ، ينهى عن قصده والاستمتاع به شاعر المهر السنغافوري فجورج صيدح مثلا وهو يشاهد المستحمات العاريات على الشواطئ الامريكية ، كان يرى ان السعي اليهن ومطالعة مشاهدهن والاقتراب بهن ، هو ما يسوقه كل اصيل الى الشاطئ ، لذلك فهو يهتف بمثل هذا الشعر :

أندى الحمامـاً باكـرت حمامـها  
في شـاطـئ فـرشـ العـيونـ اـمامـها  
الـكاـسيـاتـ العـارـيـاتـ تـؤـمـهـ  
بـفـلـائـلـ ماـ غـلـفـتـ اـجـسـامـهاـ  
ترـكـتـ الـىـ عـبـثـ النـسـيمـ شـفـوفـهاـ  
شـفـضاـ النـسـيمـ عـنـ النـجـومـ غـمامـهاـ  
. اـماـ شـاعـرـ سـنـفـافـورـاـ ، فـانـ كـلـ ماـ فـيـ  
الـاـمـرـ اـنـهـ كـانـ وـهـوـ فيـ طـرـيقـهـ الـىـ عـمـلـهـ  
وـعـودـهـ منـ عـمـلـهـ يـرـىـ اـمـامـ عـيـنـيهـ السـوـحـ الرـحـيـةـ وـالـمـيـادـيـنـ  
الـطـلـيقـةـ ، وـيـبـصـرـ الـقـصـورـ الشـاهـقـةـ وـالـمـنـازـلـ الـقـوـراءـ ،  
كـمـاـ يـرـىـ السـفـوحـ الـخـصـيـةـ الـخـضـرـاءـ يـرـاـهـاـ مـنـ الـخـارـجـ دـوـنـ  
انـ يـسـتـطـلـعـ مـاـ فـيـ تـلـكـ الـقـصـورـ وـمـاـ تـضـمـهـ تـلـكـ الدـورـ ، وـدـوـنـ

ان يقصد ماوراء السوق من مقاصف ومرافقن ومشارب ، وما على جوانب السوق من مباح وملعب . لذلك جاء حديثه عاماً جملاً ، حديث العابر العجل ، لا حديث المستاني المقيم . في حين انه كان في نفس الوقت يحيى حياة العرب هناك ، وينتمس في مجتمعاتهم ويفوض في عيشهم لذلك كان التفصيل في شعره بالحديث عنهم وعن اخلاقهم وشمائلهم . ولم يكن التفصيل في غير ذلك .

### اختلاف مواضع الشعراء

ومن هنا اختلفت مواضع كل من شعر المهرجين الشرقي والغربي ، غابو بكر بن شهاب مثلا يصل الى علمه وهو في مجره طبع كتاب ( الاستيعاب ) لحافظ المغرب ابي عمر بن عبد البر فيرى في ذلك حدثا يستحق منه النظم ويستحق ان يؤرخه شعرا ن يقول :

رَحْزَ الْبَدْرِ نَقَابَهُ  
وَبَكْتُ عَيْنَ السَّحَابَهُ  
وَغَدَا الْبَلَلَ يَشَدَّوْ  
مَوْقِ اَفْنَانَ الْخَطَابَهُ  
وَدَعَا دَاعِيَ الْمَسَراَهُ  
تَفَاسِرَ عَنَا الْاجَابَهُ

والدعوة الى المرات والاسراع الى اجابتها يشتراك فيها شعراء المهرجين ، ولكن الذي يختلفون فيه هو نوع تلك المرات فشاعرنا هنا يعلن ان ما يمكن ان يظنه الناس انه مرات تغريه ، لا يعنيه في شيء وان مراته من

## نوع خاص :

لا الى الدنيا ولا للغير شوقا وصبابه  
 بل لنشر العلم نرويه ونستتصفي لبابه  
 وبعد ان يتحدث عن ( الاستيعاب ) بمثل قوله :  
 ( اسد الغابة ) منه مستمد و ( الاصابه )  
 يختم القصيدة ببيت يؤرخ بهما طبع الكتاب :  
 وبيت كامل ار خته فاضبط حسابه  
 رق ( الاستيعاب ) طبعا واصفا مجد الصحابه ( ١٣٢٤ )  
 ومن البدهي انه عندما يدعوا داعي المسرات جورج  
 صيدح فيسرع الاجابة ، يكون ذلك الاسراع لا لكتاب  
 ( الاستيعاب ) ولا لاي كتاب غير الاستيعاب ، وانما الى  
 الدنيا والى الغيد شوقا وصبابه . ويبقى بعد ذلك  
 عنده مكان لكل الكتب ليقرأها ، لا لينظم فيها الشعر ويؤرخ  
 سنة طبعها ، ولالينبذ من اجلها الدنيا والغيد والصباية ..  
 على ان شاعرنا الناقم على الدنيا والغيد والصباية  
 هو نفسه القائل في ابيات لم تذهب الصنعة احساسها الحي :

سنت الحسان لماذا  
 سماك اهلك « تقـوى »  
 فيك طال اغترابـي  
 وكادت السـدار تقـوى  
 كـم صفت فيك فسيـسا  
 ليسـت قـوافيـه تقـوى  
 نفسـي فـدادـك صـلينـي  
 فالوصـل برـ وتقـوى .

وهو حتى هنا تبرز فيه صفتـه الفقهية فـيأـتـي بالـبرـ والـقـوىـ فيـ سـيـاقـ حـدـيـثـهـ الفـرامـيـ الـصـرـيـحـ.ـ عـلـىـ انـ اـبـيـاتـهـ الـاـتـيـةـ تـوـضـعـ لـنـاـ مـوـقـفـهـ الصـحـيـحـ،ـ فـهـوـ اـنـسـانـ بـكـلـ ماـ فـيـ اـنـسـانـ مـنـ عـاطـفـةـ وـحـاسـةـ وـهـوـ شـاعـرـ بـكـلـ ماـ فـيـ الشـاعـرـ مـنـ شـعـورـ وـرـقـةـ،ـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ الاـ اـنـ يـسـتـجـيبـ لـلـجـمـالـ وـيـخـشـعـ لـلـحـبـ،ـ وـلـكـنـهـ فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ مـقـيـدـ بـسـلاـسـلـ تـرـبـيـتـ عـاطـفـتـهـ وـتـحـبـسـ شـعـورـهـ فـتـتـصـارـعـ فـيـ نـفـسـهـ شـتـىـ الـاحـاسـيـسـ وـتـتـجـاذـبـهـ شـتـىـ الـطـرـقـ فـلـاـ يـلـبـيـثـ اـنـ يـكـبـتـ حـقـيقـتـهـ وـيـطـفـيـءـ جـذـوـتـهـ مـعـبراـ عـنـ ذـلـكـ بـهـذـاـ  
الـشـعـرـ :

انا من هوى سود الذواب ذائب  
اصلت موتهن في كبدى ضرم  
ولطالما دعت المحبة والهوى  
لعنق خربة يزول به السقم  
فيهدى عنها مخافة خالقى  
وعفاف نفسي والمروءة والكرم  
فبقرع داعية الهوى وسماعنا  
هيـةـ التـقـىـ اـرـدـ المـنـيـةـ لاـ جـرمـ  
ماـ الحـبـ لـلـعـشـاقـ الاـ مـحـنةـ  
سبـقـ القـضـاءـبـهاـ عـلـيـهـمـ فـيـ الـقـدـمـ

### حمية وطنية

والغرابة والبعد عن الوطن لم تنس الشاعر انه ابن الجنوب العربي وسليل تلك الارض الطيبة التي

لها عليه حق الوفاء فما هو ان يبله ان شاعرا هجا (عدن)  
بشعر يقول فيه :

هي عدن لكنها من جهنم  
عندما يمرض الصحيح ويسمى  
حتى يهرب مدافعا عن وطنه متهمسا لارضه قائلا  
من قصيدة :

عدن وهي في الحقيقة عدن  
جنة ازلفت لمن سوهاها ام  
بلد طيب رب غفور  
وقصر سرور سكانها عم  
ومغان كأنها في جنан  
وغوان كالحور او هي انفهم  
حيث يرعى الذمام والجار يحمى  
ويعز القطيين فيها ويكرم

### كيف هم بقایا المهاجرين

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية الى الشرق  
الاقصى ، تلك الهجرة التي لم تزل من عنایة الدارسين  
ما هي خلية به .

و اذا كان شاعرنا قد تغنى - كما رأينا فيما تقدم -  
بالعرب سكان سنغافورا ، و اذا كان غيره ربما كان قد تغنى  
بالعرب سكان غيرها من المهاجر البعيدة ، فكيف حال العرب  
اليوم في سنغافورة وغير سنغافورا وفي اندونيسيا وغير  
اندونيسيا ؟

هنا تتحد المجرتان الغربية والشرقية وتوافقان في ان مصير كل منهما كان مصير واحدا . فكما انتهى اليه امر المهاجرين الى امريكا انتهى اليه امر المهاجرين الى جنوبى اسيا . ونستطيع ان نقسم بقایا مهاجري جنوبی اسيا الى ثلاثة اقسام :

قسم ذاب بالكلية في مجره فلم يعد يربطه بوطنه الاول اية رابطة ولم يعد له من الماضي اية ذكرى . وكان العامل الاول في هذا الذوبان الكامل ان اسرا بكمالها هاجرت تدريجيا حتى انتهت بمجموعها الى المجر فلم يعد لها في موطنها من ترتبط به او تتطلع اليه من اهلها فانغمست في موطنها الجديد انغمارا كلية . ونستطيع ان نعد من هذه الاسر اسرة ابن احسن واسرة بارقبة واسرة باركون واسرة باشيبان التي انطلقت اسماؤها العربية انطواء كاملا واصبحت سلالاتها تحمل الاسماء الاندونيسية ومن آل باشيبان الدكتور علي ساسترو اميجو ( رئيس وزراء سابق ) . ومن تلك الاسر يتحدر كل من محمد هاشم اشعرى مؤسس حزب نهضة العلماء والدكتور سوينونوهادي نوتو من الوزراء السابقين .

وقسم ثان لا يزال يحتفظ من الماضي باسم الاسرة العربي وببعض العادات العربية ويحس بأنه عربي النجاح وان كان لا يحسن النطق بآية عبارة عربية .

وقسم ثالث وهو اقل من القليل لا يزال مرتبطا بالوطن العربي ويجيد التكلم باللغة العربية ويكتب بها تاريخا وادبا . ولا يزال محافظا على تراثه وعاداته . هذا عن المهاجرين الذين اقاموا اقامة نهائية في المجر

وهنالك فريق كان يعود الى بلاده ويعاود الحياة فيها(١) .

## الصحافة العربية في المهر الآسيوي

كما حفل المهر الأميركي بصحافة عربية كان لها يوما من الايام شاؤ رفيع ، وكما اخذت تلك الصحافة بالترابع والثلاثي آنا بعد آن حتى انتهت او كادت . كذلك كان الامر في المهر الآسيوي فقد صدر فيه العديد من الصحف جرائد ومجلات بلغت اديانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لصحف الوطن العربي في حينها . ولكن على كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يومية على خلاف المهر الأميركي التي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية .

وإذا كانت الصحافة المهرية الأمريكية قد عرفت وارخت فإن من حق الصحافة المهرية الآسيوية علينا ومن حق منشئها ان نلم بها وبهم هنا المامة ولو قصيرة ففي سنغافورا صدرت الصحف العربية الآتية : السلام : اسبوعية رئيس تحريرها احمد بافقى ، صوت حضرة موت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف ، الهدى : اسبوعية رئيس تحريرها عبد الوهاب الجيلاني .

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الآتية : حضرة موت : مؤسساها عيدروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بن هاشم . صدرت اول الامر اسبوعية ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع ، الرابطة : شهرية رئيس تحريرها ، احمد

١ - قال رياض الرئيس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاعد احزاب حضرموت : هو حضرمي من مواليد اندونيسيا .

بن عبد الله الدقاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقلة : نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها محمد بن مسلم بار جاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس تحريرها عمر كارم ، الدهناء اسبوعية ، الايقاف : اسبوعية هذا عدا الصحف الذي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها ولم تبق منها بقية . وانني لا ذكر اتنا كانا تتلقى في مطالع الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت تصل اليانا من تلك الارض البعيدة فترى فيها ادبها رفيعا وشاعرا رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المحمولة بل صفحة من تاريخنا جديرة بالحفظ والذكر .



## ملحق لـ قال الدولة الفاطمية

### الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام : « وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥ م - ٥٦٥ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، واراق الافتکین صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولایته » .

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي : « على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والامارات الاسلامية لم تثبت ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدو الاسلام بعد جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح ... ) وقللت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحرية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحله كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقى البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

على اقليم الشام لكي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنة ٩٧٥ م سار الاسطول الرومي الى بلاد الشام واستولى على كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها(١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الى القسطنطينية . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشمالية .

وتقول ايضا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥ م الى تلبي حكام صور وطرابلس على الفاطميين ومساعدتهم على شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذين المينائيين وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم(٢) الاول صاحب صقلية اسطولا نزل دمياط سنة ١١٥٥ م - ٥٥٠ هـ فمات فيها فسادا ثم اتجه الى تونس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعان ما فر هاربا عندما ظهر له الاسطول المصري ( الفاطمي ) .

## الفهرست

### الصفحة

	المقدمة
٣	هذه اللغة العربية
٤	معركة عين جالوت
١٠	بطidan
١٩	ابن الفوطى
٣١	رشيد الدين الهمذانى
٤٣	من ملامح الدولة الفاطمية
٦٢	ابن هانى الاندلسى
٧٧	حمزة بن عبد المطلب
٩٠	جعفر بنا بى طالب
١٠٥	الزنوج في معركة الاسلام
١١٧	زين العابدين علي بن الحسين
١٢٥	جعفر الصادق
١٣٧	الخليل بن احمد الفراهيدى
١٤٩	الادرسى وخريطته وكتابه
١٦٠	جعيفران الموسوس
١٧٤	الایوان بين شاعرین
١٨٤	المراة في حياة المتنبي وشعره
١٩٦	الحب عند المتنبي
٢٠٣	عندما كان المتنبي طالب وظيفة
٢١١	

## الصفحة

٢١٦	تببا بالندم فكان النائم
٢٢٢	ابن زيدون بين الحياة والشعر
٢٣٩	صحافيون الماضي
٢٤٢	ادباء انتهازيون وآخرون مبعدون
٢٤٦	الوزير الملهبي
٢٦٦	شعراء شعبيون
٢٨٥	ملامح الملهمة العربية
٢٩٩	الشيخ جعفر الخطى
٣١٢	الشيخ محمد رضا التبيى
٣٤٦	المجرمة العربية الى الشرق الاقصى